



مَحَاتِمَا غَانِدِي

سيرته كما كتبها بقامه

ترجمة

اسماعيل مظفر

طبع بمطبعة عيسى الباني الحلبي وشركاه بمصر
بمؤاسسة البانين بصر

مَحَاتِمَا غَانِدِي

نشأته وعمله في جنوب إفريقيا

من سيرته كما كتبها بقلمه ونشرها مستر اندروز الانجليزى أحدمريدييه

ترجمة

اسماعيل مظفر

—————

١٩٢٤

طُبِعَ بِمَطْبَعَةِ عَيْسَى الْبَابِي الْخَلْبِي وَشِرْكَاهُ بِمِصْرَ



الاهداء

مع كثير من المحبة والعطف
إلى الدكتور بهادر سنغ وزوجه
وإلى المقيمين من بنى جلدتى بجزائر الهند الغربية

قصيدة شوقي بك

في غاندى — بطل الهند

نمهد لهذا الكتاب بالقصيد الفريدة
التي حياها المرحوم شوقي بك غاندى
عند ما مر بمصر في طريقه إلى إنجلترا
ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة، تحية
من مصر إلى بطل الهند .

بَنَى مِصْرَ أَرْفَعُوا الْغَارَ وَحَيُّوا بَطْلَ الْهِنْدِ
وَأَدُّوا وَاجِبًا وَاقْضُوا حُقُوقَ الْعِلْمِ الْفَرْدِ
أَخُوكُمْ فِي الْمَقَاسَةِ وَعَرَكِ الْمَوْقِفِ النَّكِدِ
وَفِي التَّضَخُّمِ الْكُبْرَى وَفِي الْمَطْلَبِ وَالْجَهْدِ
وَفِي الْجُرْحِ وَفِي السَّمْعِ وَفِي النَّفْيِ مِنَ الْمَهْدِ
وَفِي الرِّحْلَةِ لِلْحَقِّ وَفِي مَرَحَلَةِ الْوَفْدِ
قِفُوا حَيُّوهُ مِنْ قُرْبٍ عَلَى الْفُلْكِ وَمِنْ بَعْدِ
وَعَطُّوا الْبَرَّ بِالْأَسِ وَعَطُّوا الْبَحْرَ بِالْوَرْدِ

عَلَى أَفْرِيزِ رَاجِبُوتَا نَ تِمْنَالِ مِنَ الْمَجْدِ

نَبِيٍّ مِثْلَ كُنُفُو شَبَوِ	سَ أُوْمِنَ ذَلِكَ الْعَهْدِ
قَرِيبُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ	مِنَ الْمُنْتَظَرِ الْمَهْدِي
شَبِيهُ الرُّسُلِ فِي الذُّودِ	عَنِ الْحَقِّ وَفِي الزُّهْدِ
لَقَدْ عَلَّمَ بِالْحَقِّ	وَالصَّبْرِ وَالْقَصْدِ
وَتَادَى الْمَشْرِقِ الْأَقْصَى	فَلَبَّاهُ مِنْ الْأَحْدِ
وَجَاءَ الْأَنْفُسَ الْمَرْضَى	فَدَاوَاهَا مِنَ الْحَقْدِ
دَعَى الْهِنْدُوسَ وَالْإِسْلَامَ	مَ لِلْأَلْفَةِ وَالْوُدِّ
بِسِحْرِ مِنْ قُوَى الرُّوحِ	حَوَى السِّفَتَيْنِ فِي غَمْدِ
وَسُلْطَانٍ مِنَ النَّفْسِ	يَقْوَى رَائِدَ الْأَسَدِ
وَنَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ	وَتَيْسِيرٍ مِنَ السَّعْدِ
وَحَظَ لَيْسَ يُعْطَاهُ	سِوَى الْمَخْلُوقِ لِلْخُلْدِ
وَلَا يُؤْخَذُ بِالْخَوْلِ	وَلَا الصَّوْلِ وَلَا الْجُنْدِ
وَلَا بِالنَّسْلِ وَالْمَالِ	وَلَا الْكَدْحِ وَلَا الْكَدِّ
وَلَكِنْ هِبَةُ الْمَوْلَى،	تَعَالَى اللَّهُ ، لِلْعَبْدِ

سَلَامُ النَّبِيلِ يَا عَنَدِي	وَهَذَا الزَّهْرُ مِنْ عِنْدِي
وِإِجْلَالُ مِنَ الْأَهْرَاءِ	مَ وَالْكَرَمُ نَكَ وَالْبَرْدِي

وَمِنْ مَشِيخَةِ الْوَادِي وَمِنْ أَشْبَالِهِ الْمُرْدِ
 سَلَامٌ حَالِبَ الشَّاءِ سَلَامٌ غَازِلَ الْبُرْدِ
 وَمَنْ صَدَّ عَنِ الْمِلْحِ وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَى الشَّهْدِ
 وَمَنْ يَرْكَبُ سَاقِيَهُ مِنْ الْهِنْدِ إِلَى السِّنْدِ
 سَلَامًا كُلَّمَا صَلَّيَ مَعَ عُرْيَانًا وَفِي الْأَبْدِ
 وَفِي زَاوِيَةِ السَّجْنِ وَفِي سِلْسِلَةِ الْقَيْدِ

مِنْ الْمَائِدَةِ الْخَضْرَاءِ خُذْ حِرْكَ يَاعَنْدِي
 وَلَا حِظٌّ وَرَقَ السَّيْرِ وَمَا فِي وَرَقِ اللُّورِدِ
 وَكُنْ أَبْرَعَ مَنْ يَلُ مَبُ بِالْشَطْرَنْجِ وَالنَّزْدِ
 وَلَا فِي الْعَبْقَرِيِّينَ لِقَاءَ النَّدِّ لِلْنَّدِ
 وَقُلْ هَاتُوا أَفَاعِيكُمْ أَتَى الْحَاوِي مِنَ الْهِنْدِ
 وَعُذُّ لَمْ يَجْعَلِ الدَّامُ وَلَمْ يَغْتَرَّ بِالْحَمْدِ
 فَهَذَا النَّجْمُ لَا تَرْقِ إِلَيْهِ هِمَّةُ النَّفْدِ
 وَرَدَّ الْهِنْدِ لِلَّامِ مِنْ حَدٍّ إِلَى حَدٍّ

ديباجة

صورة بقلم الناقل

امبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها . فكرة الأرض تحمل من ألوانها الجغرافية زناً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ، ولسلطانها ينضع الأبيض والأسمر والأصفر والنحاسى والأسود من سلالات البشر . وفى داخل أملاكها تدين أقوام بصور من الأديان وألوان من العقائد لا يحصرها العد ، وينطق بلغات وألسنة تمثل ما لبلى الله من لهجات أهل الأرض فى بابل القديمة . امبراطورية تسود البحار ، ومن ساد البحار فقد حاصر اليابسة وأذلها فى عصر كمصرنا قوام الحياة فيه الاتصال لا الانفصال . امبراطورية تقدر ثروتها بالملايين وآلاف الملايين من الأصفر الرنان ، وتحصى مواردها بأرقام يخيل اليك أنها موهومة . وتخبر للحساب أن يبتدعوا طريقة حسابية لحصر تلك الموارد شبيهة بطريقة الفلكيين إذ يقيسون أبعاد الشمس والسيارات بالسنين النورية ، لا بالأميال الأرضية . هذه الامبراطورية يقيمها ويقعدها هيكل بشرى من الدم واللحم والعظام ، لا يزيد وزنه على وزن كرة مدفع من أصغر مدافع بريطانيا العظمى . وأما هذا الهيكل البشرى الضئيل ، فغاندى العظيم .

كم من مرة في بضع السنوات الأخيرة تحركت هذه الامبراطوية ، وأعدت عدتها برآً وبحراً ، كما يتحرك « امفيان » لا تصوره إلا الميثولوجيا القديمة ، استعداداً للقبض على غاندى لتضعه بين أربعة جدران من اللبنة المرصوفة . ولعمري إن هذا لأبلغ ما يصل اليه الوهم الديوى . فان جسم غاندى الضئيل ليس بشيء إذا هو حبس بين أربعة جدران من الحجارة أو الفولاذ ، مادامت روحه مخلقة في سماء الحرية الفسيحة، فتكهرب جوالشرق ، بل جو الكرة الأرضية ، لا جو الهند وحدها .

انما تكون الامبراطورية البريطانية جديرة بعظمتها، اذا هي استطاعت أن تسجن روح غاندى في « ققم » كما كان يسجن سليمان بن داود الجن والشياطين في روايات ألف ليلة ، وتمحو أثرها من الوجود . فأما وروح غاندى تسبح في فضاء الحرية ، وتغذى الأرواح الأخرى بمبادئها ، فأى أثر يمكن أن يحدثه سجن الهيكل الترابي ، في حجرة عرض جدرانها نصف قيراط ، أو نصف ميل من حجارة أوفولاذ .

وفي اكتمال رجولته يأتي «غاندى» ، الخالد الفاني، بالمعجزة الكبرى، فيسوى بين الانجاس النبوزين في الهند ، الخارجين من قدمي بوذا ، والهندوكيين الأطهار، الخارجين من رأسه ، ويقضى على العقائد والفوارق المقدسة التي غذاها الزمان الطويل بكل ما يستطيع أن يخلق التكوين البشرى من الأوهام . ثم يهدد بالصيام الى الموت اذا لم تتم المعجزة ، لانه

لم يستطع أن يوقظ ضمير الهند النائم ، ولم يستطع أن يوقظ ضمير الانجليز ؛ فيضطرب جو الكرة الأرضية ، وتفتح له أبواب السجن ليكون حراً ، فيأبى إلا أن يموت سجيناً . ثم يخاطب الملوك والحكومات وهو بعد في السجن ، مستلقياً تحت ظلال شجرة من « المانجو » منصرفاً إلى صلواته العميقة ، يستقبل الموت في أسماه باسماء راضى النفس .

وهنا يستيقظ ضمير الهند فتفتح الهياكل المقدسة للأنبياء المنبوذين ويتساوى كل أهل الهند في الحقوق المدنية والسياسية ، وتم المعجزة الكبرى لأول مرة في تاريخ الشرق ، لا من طريق الشعوذة ، ولا من طريق السيف ، بل من طريق الاقتناع . ولعمري إن هذا لأول حجر يبنى في استقلال الشرق بقوة الايمان ، لا بقوة الحديد والنار . وهنا يستقر الروح الحائر ، ويرضى بأن يظل ملازماً للجسم الترابي الى حين .

فيا لعظمة غاندى ، ويا لنبل الرسالة التى أداها ، والتضحية التى ضحّاها .

على أن لهذا الهيكل الضئيل تاريخاً تكونت خلاله عناصر القوة والعظمة التى يمتاز بها غاندى ، وأكبر ميزة لهذا التاريخ أنه يظهر على غاندى فى أطواره المتلاحقة ، ويكشف لك عن كلالته ونقائصه ، فى صباه ، ثم تحوله فى شبابه ، ثم قنوته ونسكه فى شيخوخته . ومن هذا التاريخ تعرف كيف تكونت مع عناصر قوته وعظمته ، عناصر مبادئه السياسية التى استخلصها من عمليات ووقائع مشهودة ، لا من نظريات خاوية فارغة ، كثر ماخطها غيره من الزعماء على الورق ، أو استخلصوها

من التاريخ ، وكثير ما خاب حدسهم وغشهم التاريخ .
فاذا أنت استوعبت تاريخ غاندى العظيم ، أمكنك أن تعرف كيف
يكون أثر المبدأ من القوة اذ يتكون على مدى الدهر بعد أن تصقله
الحوادث والكوارث ، وكيف يكون أثر المبدأ من الضعف والفساد اذ
يعمد إلى النظريات دون العمليات .

أما هذا التاريخ فجزء من سيرة غاندى نفسه كما كتبها هو ونشرها
رجل انجليزى من مؤيديه المعجبين بشخصه يدعى مستر « اندروز » . وقد
راجعها غاندى قبل نشرها . وسوف تتوخى فى التلخيص طريقة الترجمة
الكلية لفصول الكتاب ، بحيث يظهر تاريخ « بشير القرن العشرين »
مفصلاً مطرداً بقدر ما تسمح بذلك الظروف . على أنى لم أهمل إلا بضع
جمل ، ولم أتصرف الا قليلا . واذا تتالت الصفحات وتعاقبت ، فعذرنا أننا
ترجم عن حياة رجل هز أعظم امبراطوريات الأرض ، بعد أن أفلت
روحه من أقفاص الفولاذ والحجارة التى حاكته من حوله أو هام
القرن العشرين .

اسماعيل مظهر

الفصل الاول

المولد والمسكن

الغانديون من طائفة «البانيا» Bania والظاهر انهم كانوا في الأصل تجاراً يتعاطون التجارة في بيع السلع نجوماً ، لاجلة . ولكنهم ظلوا منذ ثلاثة أجيال وزراء في كثير من مقاطعات « كاثياوار » Kathiawar وكان جدي «أوتاغاندي» من الرجال الذين يقدرون المبادئ ، وقد اضطرته الدسائس السياسية أن يغادر «پورباندر» Porbander حيث كان «ديواناً» أي رئيس وزراء ، وأن يلجأ هارباً إلى «جوناجاد» . فلما قابل «نواب» هذه المقاطعة ، حياه بيده اليسرى . ولما سئل عن سبب ذلك - قال - « ان يدي اليمنى قد قطعت لنواب «پورباندر» عهداً غير مخلوف » .

وتزوج «أوتاغاندي» مرتين ، فكان له أربعة أولاد من زوجه الاولى ، واثنان من الثانية . ولما كنت صغيراً لم أشعر مطلقاً بأن أولاد «أوتا» كانوا غير أشقاء . أما خافس أولاده فكان « كرمشاند غاندي » وسعى « كبا غاندي » كما كان سادسهم يدعى « تولسيدس غاندي » ، وكلاهما كان رئيس وزراء ، أحدهما تلو الآخر . أما أبي « كبا غاندي » فكان

رئيس وزارة « راجكوت » لعهد ما ، ثم رئيساً لوزارة « فانكانار » ولما مات كان يتناول معاشاً من حكومة « راجكوت » .

وتزوج « كاباغاندى » أربع مرات على التوالى ، اذ كان يفقده الموت من يتزوج منها كل مرة . وكان له من زوجه الأولين فتاتان من كل واحدة ، وأما زوجته الثالثة « بوتلباي » فقد أعقبت بنتاً وثلاثة صبية ، كنت أنا أصغرهم

كان والدى عباً لطائفته صادق القول شجاعاً كريماً ، ولكنه كان ضيق الخلق . ولم يكن زاهداً فى الميول الحيوانية ، لأنه تزوج الرابعة وقد تجاوز الأربعين من عمره . غير انه كان مستقيماً جداً طاهر اليد ، وكان معروفاً باستقلال رأيه وعدم تحيزه ، سواء أئين أسرته ، أم بين الناس . أما خضوعه للحكومة فأمر معروف ذائع . تكلم أحد رجال السياسة فسب أميره ، ولكن « كاباغاندى » رد السباب بمثله . ولما طلب منه أن يعتذر رفض الاعتذار ، فسجن بضع ساعات ، ولم يفرج عنه الا بعد أن رؤى أنه من العبث أن ينثنى « غاندى » عن عزمه .

ولم يحاول أبى أن يثرى ، ولم يترك لنا من الحطام الا النزر اليسير . ولم يتلق العلم ولم يتعلم ، اللهم الا ما تجود به تجربة الحياة على الناس . كان جاهلاً بالتاريخ والجغرافية . غير أن تجاربه كانت كفيلة بأن تجعله قادراً على أن يحل أعوص المشكلات ، وان يسوس مثات الرجال . ولم يفقه من الدين الا قليلا ، غير أنه استوعب تلك الثقافة التى تستوعب من كثرة

التردد على الهياكل والمعابد وسماع المناقشات التي كانت تدور حول الدين الهندوكي . وفي أواخر أيامه بدأ يقرأ « الغيتا » The Gita على برهمي مثقف من أصدقاء الأسرة ، واعتاد أن يردد بعض مقطوعات دينية جهرًا خلال صلاته .

أما الأثر الذي تركته أمي مطبوعاً في مخيلتي فأثر الزهد والقداصة . كانت متدينة شديدة التدين ، حتى أنها لم تكن تأكل وجباتها اليومية من غير أن تؤدي عنها صلاة حارة كلها تعبد وقنوت . أما زيارتها للمعبد فكانت من الواجبات اليومية الضرورية . ولا أذكر ، على قدر ما اتصل إليه ذا كرتي ، أنها أهملت يوماً صيامها الديني ، حتى أن المرض لم يكن سبباً في أن تفرط في هذا الواجب المقدس . مرضت مرة مع حلول الصوم ، غير أن المرض لم يكن يخل بالنظام أو يؤثر في القيام بالواجب الأبدي . ولم يكن ذا بال لئسها أن توالى الصيام أياماً ، بل كانت تكتفي بوجبة واحدة في اليوم ، مادامت صائمة . وكانت تنذر في بعض الأحيان أن لاتأكل الا اذا طلعت الشمس وبزغت من خلال النجوم وزاتها بعينها . وكنا ونحن أطفالاً نقف في مثل تلك الأيام متطلعين الى السماء ، وكلنا شغوف بأن يكون أول من يبشر أمه بيزوغ الشمس من خلال السحب الثقيلة . وبلاد الهند في خلال فصل الأمطار لا ترى الشمس الا غراراً . ولا أزال أذكر أياماً كنت أهرع فيها الى أمي حالما تظهر الشمس بعد هطول الأمطار لأبشرها . بالنبا العظيم . فكانت تخرج لتراها

بميينها ، ولكن الشمس الطريدة تكون قد توارت وراء الغيوم قبل أن تكتحل عينها بمرآها ، فتطوى صائمة ! وقد تقول . « غير مهم ! ان الله لا يريدني أن آكل » . ثم تمضى فى شؤونها وواجباتها كأن لم يكن شىء .

وكانت أمى ذات قدرة فى الحكم على حقائق الأشياء . وكانت محيطة بأحوال الحكومة ، حتى ان نساء الحاشية كن يقدرن فيها الذكاء . وكنت أصاحبها فى زياراتها متخذاً من طِفولتى عذراً ، ولا أزال أذكر مناقشات كلها فطنة وإدراك كانت تدور بينها وبين أرملة « ثاقور صاحب » .

...

من هذين الأبوين ولدت فى « پورباندر » فى اليوم الثانى من اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، وهناك قطعت طفولتى وذهبت الى المدرسة . لم احفظ جدول الضرب الا بكل صعوبة . والحقيقة انى لم أتعلم فى هذا الطور أنا والصبية الذين كانوا يتعلمون معى من شىء اللهم الا ذم المعلم . والظاهر أن عقلى فى ذلك العهد كان ضعيفاً ، كما كانت ذاكرتى فجأة غير ناضجة .

وكان عمري سبع سنوات لما ترك أبى « پورباندر » الى « راجكوت » ليكون عضواً فى الحاشية . فالحقنى بمدرسة ابتدائية ، فكنت فيها كما كنت فى الأولى تلميذاً عادياً متوسط القوة . غير انى لم أصل الى الثانية

عشرة حتى كنت في مدرسة ثانوية ، ولا أتذكر خلال هذه الاثني عشر عاماً من عمري ، على طفولتي ، اني كذبت مرة واحدة ، سواء على معلمي ، أم على اخواني في الثامنة . وكنت خجولاً جداً ، متباعداً عن مرافقة الناس . وكانت عادتي أن أكون يباب المدرسة عند ماتدق ساعة البدء في الدرس ، وأعود الى البيت توأ بعد الانصراف . وكنت أقطع المسافة من المدرسة الى البيت عدواً ، لأنني لم أكن احتمل أن أتكلم مع أي انسان ، كما كنت أخاف أن يهزأ بي أي شخص كان .

...

وقعت خلال دراستي حادثة لأبأس بذكرها . وكان مستر « جيلز » Mr . Giles - مفتش التعليم قد وفد مرة يفتش ، فأملى علينا خمس كلمات ليعرف مقدار علمنا بالهجاء (في اللغة الانجليزية) فأخطأت في احداها ، وأراد المعلم أن ينهني الى ذلك بطرف حذائه . ولكني تعمدت أن لا أنتبه ، لأنني شعرت بأنه ليس في مقدوري أن أغش التهجية من صحيفة جاري ، ولأن من واجب المعلم أن يحول دون الغش في الامتحان . وكانت النتيجة أن جميع التلاميذ استطاعوا أن يكتبوا كل الكلمات صحيحة ماعداي . فأنا وحدي كنت بليداً . وكثيراً ماحاول المعلم أن يصرفني عن هذه البلادة ، ولكن عبثاً . لأن الغش شيء لم يكن في مقدوري أن آلفه .

على أن هذا الحادث لم يكن من شأنه أن ينزل من قدر أستاذي في

نظري أو يقلل من احترامه في قلبي . فقد كنت بطبعي أعمى عن أن أعد نقائص الذين هم أكبر مني سناً . ولقد علمت بعد ذلك كثيراً من نقائص هذا الاستاذ . غير أن احترامى له ظل كما كان . لأنى شئت على أن أطيع أوامر من هم أكبر مني ، لأن أعد معايهم .

حادثتان أخريان في ذلك العهد لا تزالان عالقتين بذاكرتى . كانت عادتي أن أنصرف عن قراءة أى شئ خارج عن مجال درسى . وكنت أنجز درسى اليومى دائماً . لأنى كنت امتنع من أن يكلفنى أستاذى بواجب عملى ، كما كنت أكره أن أغشه . كنت أنجز دروسى ، ولكن عقلى كان دائماً بعيداً عنها . كنت أنجزها غائب العقل ذاهلاً عنها . ولكن مادمت قد أنجزتها كيفما كان الحال ، فلا عقاب بتكليف بواجبات أخرى . غير أنى بصدفه ما وقعت عيني على كتاب اشتراه أبى . وكانت رواية تدور حوادثها حول ولاء «شرافانا» لأبويه فقرأته بمنتهى ما يصل اليه الاعجاب وتذهب اليه اللذة . وفى ذلك الحين هبط منزلنا بعض البائسين المتجولين ، فرأيت فيما رأيت معهم ، صورة تمثل «شرافانا» يحمل فى حمالة معاقه فى كتفيه أبويه الضريرين فى هجرة طويلة أزماها . ولقد ترك الكتاب والصورة فى ذهنى أثاراً لا يمحي . قلت فى نفسى : « هو ذا مثال تحذيه » . ولا يزال حياً فى ذهنى رثاء أبويه على موته ولوعتهما على فقده . ولقد هزنى النعم من أعماق حفظته وأخذت أعزفه على «كونشرتينا - Concertina» - اشتراها لى أبى .

والحادثة الثانية تتعلق كهذه برواية . فقد حصلت من أبي علي
اذن بأن أشهد رواية تمثيلية يدعى بطلها « هاريشاندرا » . فملكت
منى هذه الرواية كل نواحي قلبي ، وسكنت معانيها في قرارة نفسي ، حتى
لقد أخذت اتساءل « لماذا لا يكون كل الناس صادقين مثل
هاريشاندرا » . ؟ اتباع الحق ، والبحث عن الحقيقة مع احتمال كل المحن
والآلام التي تحملها « هاريشاندرا » ، كان الوحي الوحيد الذي بعثته هذه
الرواية في نفسي . ولقد أخذت اعتقد في حقيقة « هاريشاندرا » كما لو
كان شخصاً حياً ، لا شخصاً خيالياً ، كما أيقنت بحقيقة الحوادث التي
حكاها المؤلف من حوله .

وكثيراً ما كنت أبكي كلما ذكرت هذا البطل وحوادث حياته
السامية . هاريشاندرا وشرافانا ، لا يمكن إلا أن يكونا بطلين تاريخيين
لا خياليين . ولا أشك مطلقاً في أنني لو قرأت هاتين الروايتين اليوم ،
لهزتا عواطفي بالقدر الذي هزتاها به في أيام الأولى .

...

لا بد لي في سياق كلامي هذا من أن أجرح بضع جرعات مريرة ،
إذا ما كنت من عباد الحق على الوجه الأكمل . وأول ما أبدأ به هو أمر
زواجي وأنا في الثالثة عشرة من عمري . ولا جرم أني أغبط الشبان
الذين أراهم اليوم من حولي ، وقد استطاعوا بحكم الزمان أن يفروا
مما وقعت فيه وأنا في سنهم .

كنا ثلاثة اخوة . تزوج الأول . ثم صمم كبار الأسرة على أن يتم زواج أخى وزواجى وأحد أولاد أعمامى فى يوم واحد . ولم يفكروا فى مصالحنا ولا أعاروا رغباتنا اهتماماً ، كأن الأمر لا يتعلق إلا بمرضاتهم وبمقدرتهم المالية على اتمام الزواج . وزواج الهندوكيين ليس بالأمر السهل ، بل معناه أن أسرتين قد تعانيان فى سبيله الخراب . ضياع فى المال والوقت ، وأشهر تقضى فى اعداد الملابس وأدوات الزينة وتهئية « ميزانيات » من الأموال لاقامة الولائم . وكل من الأسرتين تحاول أن تبر الأخرى اسرافاً وتنويعاً فى مظاهر الفرح والسرور . وكان أبى وعمى كلاهما كبير مسن ، وكنا آخر من يزوجان من أولادهما ، فامعنا فى الاسراف بفكرة ان هذا آخر أفراحهما .

لم نعرف نحن من الأمر شيئاً الا أن هنالك أفراحاً تقام وزينات وغناء ورقصاً وملابس جديدة وولائم فخمة وبنات غريبات عنا أتين لنلهو بهن .

قلت من قبل انى كنت تلميذاً ، وظللت تلميذاً بعد زواجى . كنت أنا وأخواى ندرس فى مدرسة واحدة . فلم يكن للزواج من أثر فى حياتنا المدرسية الا ضياع سنة من أعمارنا ذهبت ببداء . وكمن شباب الهند يقاسون نفس هذه الخسائر الفادحة . على أنى مضيت بعد ذلك فى الدرس ، وكنت متوسط الذكاء والقوة ، غير أنى كنت حائراً على الدوام لرضى أساتذتى وعطفهم . وكنت لا أحتمل اللوم ولا التوبيخ .

عوقبت مرة عقاباً بذنب ، فبكيت بمرارة لا أذكر أنى بكيت بمثلها في كل أطوار حياتي .

...

كنت أمقت الألعاب الرياضية ، وكنت لا أذهب اليها الا مرغماً لأنها اجبارية . غير أنى أعتقد الآن أن من الواجب أن تكون من المواد الأساسية في برامج التعليم . أما سبب مقتي لها ، فيرجع إلى رغبتى الشديدة في أن أقوم بتمريض أبى ، وكان على فراش المرض ، وقد قربت نهايته . فكنت أترقب انقضاء الدروس لأهرع الى المنزل وأظل بجانبه أعنى به وأمرضه وأنفذ أوامره بكل دقة وعناية . فكانت الألعاب الرياضية تحول دون هذه الرغبة ، ولذلك توسلت الى مستر « جيمى » أن يعفنى منها ، لأقوم بواجبى نحو أبى ، غير أنه لم يعبأ بتوسلاتى . وكان من الواجب أن نذهب فى الساعة الرابعة من كل سبت الى المدرسة لنقوم بألعابنا الرياضية ، ولم يكن معى ساعة أضبط بها الوقت ، وخذعتنى السحب واضطراب الطقس .

وكان التلاميذ قد بارحوا المدرسة قبل أن أصل اليها . فى اليوم الثانى لاحظ مستر « جيمى » انى كنت غائباً ، ولما اعتذرت اليه بما حدث تماماً ، رفض أن يصدقنى ، وفرض على غرامة صغيرة كعقاب لى .

لقد آهمت بالكذب ! فالمنى هذا الاتهام كل الألم . وكيف أستطيع أن أثبت براءتى ؟ لم يكن من سبيل الى ذلك . فبكيت بحزن

عميق . ولكنى لم ألبث أن طرأ على ذهنى أن الرجل الصادق يجب أن يكون ذا عناية بأموره . وكان هذا الحادث آخر عهدى باهمال أى شىء يتعلق بمدرستى ودرسى . ولكنى لم يهدأ لى بال ، الا بعد أن رفعت عنى الغرامة التى فرضت على ، تلقاء اهمالى لا تلقاء كذبنى .



الفصل الثاني

أيام المدرسة

عقدت أواصر الصداقة بيني وبين أحد أقراني في التلمذة ، وكان معروفاً عنه أنه غير مستقيم الأخلاق ، فحذرتني والدتي وحذرتني زوجي . ولكنني كنت من الكبر بحيث لا أخضع لنصائح زوجي ، وحاولت لأول مرة أن أعمل على الضد من ميول أمي . كثيراً ما قاتلتني أني مع قرين سوء . ولكن أحبتهما « إنني أعرف أن صديق فيه المعاييب التي تذكرانها ، ولكنكما لاتعرفان فضائله . وانه على ذلك لا يستطيع أن يفسد أخلاقى ويقودنى فى طريق الرذيلة ، لأنى انما أقصد بصداقته أن أقوم معوجه على اعتقاد انه اذا استقام أصبح من أحسن الرجال . وانى لأرجوا أن لاتشفقا من مصاحبتي لياه » . وكان هذا الحادث أول ما حاولت أن أكون مصلحاً فى ناحية من نواحي الحياة .

لم تقبعا بما قلت ، ولكنهما تركتاى أقطع شوطى . فلم ألبث غير قليل حتى استبان لى أن حسابى قد طاش ، وعرفت أن من يريد أن يقوم اعوجاج شخص لايجب أن يكون على علاقة حبسية به ، ولأن الصداقة الحقيقية صفة نفسية قلما توجد فى هذه الدنيا . ان الصداقة لن تكون ذات قيمة ولن تدوم الا بين الطبائع المؤتلفة . والأصدقاء

يؤثر بعضهم في بعض تأثيراً عكسياً مطرداً . ولذا لا يكون من مجال لأن يصلح صديق من معايب صديقه أو يؤثر في اصلاح نقائصه . ورأي أن الانسان يجب أن يتعد عن الارتباط بعلاقات عاطفية مع الناس ، لأنه بذلك إنما يكون أقرب الى التطوح مع الرذيلة منه الى اتباع الفضائل ، وان الذي يريد أن يعقد صداقة مع الله ، يجب اما أن يظل وحيداً ، واما ان يعقد صداقته مع الدنيا كلها . وقد أكون مخطئاً ، ولكن التجربة دلتنى على ان محاولتى فى عقد صداقة اخلاص ، كانت فشلاً مؤلماً .

كانت تحتاج « راجكوت » فى ذلك العهد عاصفة من « الاصلاح » فقال لى صديق يوماً ان كثيراً من مدرسى مدرستنا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمر . ولم يكتف بهذا بل ذكر أسماء رجال معروفين من « راجكوت » قال أنهم يفعلون ذلك . فمضت من الأمر ، وسألته السبب فى هذا . فقال لى ماأتى : « نحن أمة ضعيفة لاننا لانأكل اللحم ، والانجليز قادرون على حكمنا واخضاعنا لأنهم من أكلة اللحوم . وخذنى مثلاً . فانك تعرف مقدار اضطبارى وجلدى واحتمالى المشقات ، فوق انى عداة معروف . والسبب فى هذا انى آكل اللحوم . والذين يأكلون اللحوم لا يصابون بفساد الدم ، واذا جرحوا التأمّت جروحهم سريعاً . ولا يمكن أن تنهم مدرسينا وغيرهم من الرجال الناهيين ممن يأكلون اللحوم بأنهم مغفلون . أنهم يعرفون ماهذه العادة من فضائل .

وانه لواجب عليك أن تقتص أثرهم فليس في الدنيا مثل التجربة .
جرب وأنت تعرف مقدار العافية التي تلبس بدتك » .
كان أخى الأكبر قد وقع في الخطيئة ، فأيده وحاول اقناعي ، بأنى
ضعيف الجسم وهو قوى . وكان صديق متفوقاً في العدو الى مسافات
بعيدة ، وقادراً على الوثب العالى الى درجة مذهشة . فكان هذا سبباً
في أن أميل إلى مايقول . ولماذا لأصبح قوياً مثله ؟

كنت جباناً . كان يفشأنى الخوف من اللصوص والأشباح والأفاعى . ولم
أكن أجروء على أن أخرج من البيت اذا أظلمت الدنيا وناء الليل بكلكله
على الوجود . كانت الظلمة تفزعنى . وكان من المستحيل على أن أنام
في الظلام ، لأنى كنت أتصور اذا أظلمت الدنيا من حولى أن اللصوص
آتون من ناحية ، والأشباح من أخرى ، والأفاعى من ثالثة . فكان لا بد
من ضوء في حجرى . وكانت زوجى أكثر شجاعة منى ، فكان
هذا يجعلنى . لم تكن تعرف خوفاً من أشباح أو أفاعى ، وكانت
تذهب حيثما شاءت في الظلام . وكان صاحبى يعرف في هذا الضعف ،
فكان يقول لى انه يستطيع أن يمسك فى يده أفاعى حية ، وأن يقارع
اللصوص ، وانه لايمتقد في وجود الأشباح . وان كل هذا راجع الى
انه من أكلة اللحوم .

أحدث كل هذا فى نفسى أثراً ، فهزمت . وبدأت نفسى تحدثنى
بأن أكل اللحوم خير ، وانه سوف يجعلنى قوياً شجاعاً ، وأن أهل

الهند اذا اعتادوا أكل اللحم استطاعوا أن يتغلبوا على الانجليز
ويطردوهم من بلادهم .

حددنا يوماً للبدء في هذه التجربة . وعزمنا على أن نبدأ بها في الخفاء .
فان « الغانديين » من « الفاشنافا » . Vaishnavas وأبوأي من
أشد الناس استمساكاً بعري العقيدة . ومما يدل على هذا أن للاسرة
معابدها الخاصة بها ، وكانت العقيدة « الجانية » ^(١) - Jainism -
عظيمة الأثر في « كوجرات » ، والامتناع عن أكل اللحوم كمقيدة
دينية يستمسك بها أهل الجانية والفايشنافية ، لم تظهر في طرف من
أطراف الهند بما ظهرت به من قوة الأثر في « كوجرات » . وهذه
هي العقيدة التي شبيت في أحضانها وتحت سلطانها . أضف إلى ذلك
اني كنت شديد الاحترام لأبوي كثير الخضوع والولاء لهما . وكنت
على يقين من انهما يموتان تَوّاً اذا علما اني آكل اللحوم ، واني انتهك
حرمة العقيدة المقدسة . وكان حبي للصدق والحق يجعلني شديد الالباء .
ولم يكن في وسعي أن أنكث على نفسي وأغالطها في حقيقة اني بأكل
اللحوم أغش والدي واني أموه عليهما . ولكن عقلي كان يتجه الى
« الاصلاح » - لم يكن الأمر عندي راجعاً إلى ارضاء شهوة البطن . بل

(١) ظهرت العقيدة الجانية في الهند في نفس الوقت الذي ظهرت فيه البوذية .
ومن مبادئها الاساسية عدم الاعتداء على الارواح وسلب أشخاص نعمة الحياة .
وكانت هذه العقيدة من أشد العقائد أثراً في نفوس الغانديين منذ أزمان طويلة .

كنت أريد أن أصبح قوياً شجاعاً مثين العضلات مشدود الأضراب ،
وأن يصبح بقية أهل الهند على هذه الصورة ، فنستطيع أن نهزم
الانجليز وأن نحرر الهند . ولم أكن حتى ذلك العهد قد سمعت كلمة
« سواراج » (الحكم الذاتي) ولكنى كنت أعرف مامعنى الحرية .
ولقد أعماني حب « الإصلاح » كما كان احتياطي في أن آكل اللحم
سراً ، سببا في أن أنطوح مع الوهم ، فأقول في نفسي ان اخفاء الفعل
عن أبوى كاف في ذاته لأن يجعل فعل الشر بعيداً عن أن يكون تناقضاً
مع الصدق وحب الحق .

. وآذنت الساعة . وانه ليصعب على أن أصف حالتي وصفاً صحيحاً .
اكتنفتي حب « الإصلاح » من ناحية ، وساورتني من جهة أخرى
جدة الأمر ، أرى في فعله استداراً لمهد واستقبالا لمهد آخر في الحياة ،
ثم التخفي لاثنيان ذلك الفعل ، شأن اللصوص . ولكننا ذهبنا معا نفتش
عن مكان منفرد بجوار النهر ، وهناك رأيت اللحم لأول مرة في
حياتي . وكان معنا خبز صنع على الطريقة الانجليزية . فلم اتذوق شيئاً
منه . فاللحم كان في فمي كأنه جلد صفيق شديد التماسك ، فلم أسنّه ،
وشعرت بأني مريض ، فتركت المكان في الحال .

أمضيت بعد ذلك ليلة شديدة الوطأة . اعتراني كابوس مخيف ،
فكنت كلما هممت بأن أنام ، خيل الى أن عنزاً مذبوحة ينزف دمه
وتتخبط بجوارى ، فأهب مذعوراً فرعاً ، وفي قلبي أشد ما يمكن

أن يتصور من ألم الضمير

ولكن كنت أذكر نفسي بأن ما فعلت كان واجباً ، فتروح هذه الفكرة عنى بعض الشيء ، واستعيد شيئاً من صفاء النفس . ولم يكن صديق من الذين ينتنون عن عزمهم بسهولة ، فأخذ يطهى ألواناً من الطعام يجعل ظهور اللحم فيها أقل تعرضاً للنظر . ثم تدرجنا من ذلك إلى الأكل فى مطعم فاخر الياش ، كان صديق على معرفة بطاهيه ، بدل أن نتبذ بقعة مهجورة من شاطئ النهر .

وقل بعد ذلك أن أتناول طعامى فى البيت ، فكنت أعتذر لأمى كلما جهزت لى طعاماً بأنى مضطرب المعدة أو أنى مريض . وكنت أشعر بأنى أكذب ، وإنى أكذب على أمى ! وكنت أعلم أنه ما من شىء فى الحياة يؤثر فى والدى بقدر ما يؤثر فىهما معرفتهما بأنى أصبحت من أكلة اللحوم . فكانت هذه الفكرة تنهش قلبى ولا تريح ضميرى ساعة واحدة . وما بلغت هذه الحالة حتى أخذت نفسى يتحدثنى قائلة : « انه وان يكن من الواجب أن آكل اللحوم ، وأن أتناول هذا الطعام ابتغاء « الاصلاح » فان الكذب على الأبوين وغشهما ، أنكر من الامتناع عن أكل اللحوم . فيجب اذن أن لا أعود الى هذا العمل مادام أبواى على قيد الحياة . فاذا طواها التراب ، فهناك أكون حراً ، فأكل اللحوم علناً بدون خشية ولكن قبل أن تحمل الساعة ، فلا تمتنع عن أكل اللحوم » . ومنذ تلك الساعة لم أذق اللحم أبداً . ولكن

العظة الصحيحة هي أنى حاولت أن أصلح فاسداً ، ففسد صلاحى ، من غير أن أشعر بأنى كنت ساراً نحو التردى فى هذه الحماة اللدنية . وتعدى تأثير هذه الصداقة الى علاقتى الزوجية وأمانتى لزوجى . أخذنى صديقى يوماً الى ماخورة من مواخير المومسات ، ودفع عنى الأجر المطلوب . ولقد زودنى بالنصائح اللازمة وأحكم الترتيب كل احكام ! هانذا أخضت أردى بين أنياب الرذيلة ، ولكن الله الرحيم رحمنى من نفسى، وصاننى من غوايتها ، فردنى أعمى أصم فى تلك الماخورة، وخرجت منها بدون أن أتلوث بخطيئة الفعل . شعرت بأن رجولتى قد جرحت ، وأن الأرض تميد بى لتبتلعنى ، غما وخجلا . ومنذ تلك الساعة لأذكر الحادثة الا وأرسلت فى قلبى بشكران حار الى الله، جزاء ما صرفنى عن هذا الفعل الشنيع . وانى لأذكر أربع حوادث من هذا النوع فى حياتى ، خدمنى الحظ ، لاقوة الارادة، فى الفرار من الوقوع فى خطيئتها . أما اذا نظرنا فى مثل هذه الحوادث من الوجهة الأخلاقية الصرفة ، فلا يمكن أن نعتبرها أكثر من غيبوبة أدبية ، تموت فيها المشاعر والعقائد . ذلك لأنى أعتقد أن تحرك الشهوة البدنية لا يقل نقصاً عن اتيان الفعل نفسه . اما اذا نظرنا فيها من وجهة الحياة العادية ، فإن الرجل الذى يفر من ارتكاب خطيئة يعتبر ناجحاً ، ولا أشك فى أنى لم أعد القاعدة فى تجاربى التى جرت هذا المجرى . وفى الحياة أفعال يعتبر الفرار من إتيانها عناية الهية تنجى الشخص والذين هم

حوله من الناس . وبمجرد أن يرتد الانسان الى مشاعره ، ويستيقظ ضميره ، فانه لا يتوجه في الحياة الى شيء ، اللهم الا للمراحم القدسية ، يشكرها على فراره من العصيان . واني لأعلم أن الانسان قد يخضع للغواية وقد يتغلب عليه الايحاء والاغواء فيخطيء . ولكن كثيراً ما تتدخل العناية العليا في شؤون الكثيرين ، فتنقذهم رغم أنوفهم . اما كيف يحدث ذلك ؟ وإلى اى حد تذهب حرية الانسان ؟ وإلى اى حد يخضع الانسان لحكم ماهو قائم حوله ؟ وأما كيف يتغلغل القدر في مسارح الحياة الانسانية ، فذلك سر غامض ، وسيتبقى سرّاً إلى الأبد .

كل هذا لم يكن كافياً لأن يفتح عيني على شيء من رذائل صديق وخطر مصاحبته . وكان هذا العمى النفسى ، سبباً في أن أجرح بضع جرعات مريرة ، قبل أن تتفتح عيني على شيء من نقائصه ، عبرت عنها أفعال جاءت عرضاً وعلى غير انتظار . كان صديق أحد الأسباب الأساسية التي قامت لاشعال نار الخلاف بيني وبين زوجى . فقد كنت زوجاً محباً غيوراً ، وعرف في صديق هذه الصفات ، فأخذ يذكي النار الكامنة ليشعلها ويرسل بلهبها في صفاء الأسرة قوياً محطماً . ولم أكن أشك في صدقه . غير انى حتى اليوم لأستطيع أن أغفر لنفسى ما ارتكبت من قسوة ازاء زوجى ، وجرائمى التي تحملتها صابرة . ولم يكن لها من سبب إلا أخبار صديقى هذا . وليس في العالم من يحتمل ما فعلته مع زوجى الا الزوجة الهندوكية . وهذا هو السبب في انى اعتبر

أن المرأة معنى مجسما من التسامح . فخادمك يترك خدمتك . ووليك
يفر من تحت سقفك ، وصديقك يقطع معك علاقته . أما الزوجة ،
حتى اذا شككت في زوجها وملأها الريبة ، فانها تظل هادئة . ولكن
اذا شك الرجل ، فهدمها ثمن الشك ، وسقوطها وتشردها عربون الريبة .
الى أين تذهب ؟ ان الزوجة الهندوكية لا تستطيع أن تطلب الطلاق في
محكمة . ان القانون لا يحميها . ولن أسامح نفسي أو أغفر لها خطيئة
انى كنت سبباً في أن تصل الحال بزوجى إلى هذا المآل ، مآل اليأس
والقنوط .

ان سرطان الشك لم تقتلع جذوره من نفسى الا بعد أن فهمت
«الاهمسا» Abinsa مع كل ما يرتبط بها من العلاقات والاعتبارات .
هنالك رأيت عظمة البرهماشاريا - Brahmacharya - وتحققت أن
الزوجة ليست رفيقة للزوج ، بل رفيقة ومعيينة في الحياة ، وأن لها
حق أن تقسم مسراته واحزانه ، وانها حرة كالرجل في أن تختار ما يلذ
لها في الحياة من سبل الحياة . وانى كلما ذكرت تلك الأيام السود ، أيام
الشك والريبة ، ملأنى الحزن العميق والألم الممض ، تلقاء ما كنت
فيه من الغفلة والتهاب الشهوة والقسوة ، واحتقر تلك الثقة العمياء التى
وضعتها في صديق .

...

حدث في أيامى المدرسية وقبلها بقليل ، انى عكفت وأحد أقاربى

على عادة التدخين . ولم نكن نعرف ما هو التدخين . ولكنى ولما
تصورنا فى أن نرسل بالدخان فيخرج حلقات كالسحاب ، لذة . وكان
عمى من كبار المدخنين ، وكنا كلما رأيناه يدخن حاولنا أن نحذو حذوه .
ولكن لم يكن لدينا نقود . فأخذنا نلتقط أعقاب السجائر وندخنها .
ولم يتيسر لنا أن نجد الأعقاب دائما ، ولم يكن فيها من الدخان ما يكفى
لتحقيق غرضنا . فبدأنا نسرق بضعة درهمات من جيب الخادم لنشتري
بها سجائر هندية . وأين نجدها؟ كانت هذه المشكلة سبباً فى أن ندخن بعض
أوراق الأشجار التى سمعنا أنها يمكن أن ترسل الدخان كما يرسله التبغ ،
فجمعنا منها قدرًا وأخذنا ندخنه . غير أن حب الاستقلال أخذياً كل فى
قلبنا ، لأن خوفنا من أن ندخن أمام من هم أكبر منا سنًا ، جعلنا نشعر
بأن هذه الحياة لا قيمة لها من غير أن يكون الانسان حرًا مستقلاً بنفسه .
وفى النهاية ، وكرها لهذه الحياة ، صممت وقربى هذا على أن نتنحرج .
ولكن كيف نتنحرج؟ ومن أين نحصل على السم؟ سمعنا أن بزور
الداتورة سم نافع . فذهبنا الى الغابة نبحث عن حبها وجمعنا شيئاً منه ،
وحددنا المساء لارتكاب جريمة الاتجار . فذهبنا الى معبد « كيدارجى
مندر » ووضعنا زيتاً سائلاً فى مصباح العبد ، وزرنا المقام الأقدس ،
ومن ثم أخذنا نبحث عن زاوية منعزلة . غير أن الشجاعة خانتنا . قلنا
لنفرض أننا لم نمت توا؟ وما هو الخير الذى نجنه من أن نتنحرج؟ لماذا
لا نستقل بأنفسنا ونكفيها شر الموت؟ ومع كل هذا ازدرد كل منا

جبتين أو ثلاثاً ، ولم نجروُ أن نزدرد أكثر من هذا العدد . ولم نكد نزدرد الحبات حتى تملكنا شعور الخوف من الموت . فهرعنا الى المقام الأقدس ، وعاهدناه على أن لا نرجع الى تنفيذ فكرة الانتحار ، وأن نقلع عنها . والحق أن تنفيذ فكرة الانتحار ليس سهلاً كتصورها . وما سمعت منذ تلك الساعة شخصاً يهدد بالانتحار ، الا واعتقدت أنه بعيد عن الجد ، وانه الى الهزل أقرب .

لقد صرفتنا فكرة الانتحار عن تدخين أعقاب السجاير وعن سرقة نقود الخادم . لم أدخن بعد ذلك قط . وأخذت هذه العادة تلوح لى كأنها ضرر وقذارة . وكلما فكرت فى الأمر ، لا أستطيع أن أعرف السبب فى انتشار عادة التدخين هذا الانتشار المريع فى كافة أنحاء العالم . وانى لأختنق اذا سافرت فى قطار عقب جوه بدخان التبغ ، وأشعر شعوراً عجيباً بحاجة الى الهواء الطلق النقي .

لم تكن جريمة السرقة من الخادم آخر جريمة ارتكبتها . أما السرقة الثانية فحدثت لى من العمر خمس عشرة سنة ، فان أخى الذى أغوانى وصديقى على أكل اللحم ، كان قد استدان خمساً وعشرين روية ، وكان بيده حلية تتدلى منها قطع ذهبية ، فسرقت قطعة منها وبعتها وأديت عنه الدين . ولكن هذا لم يكن الشيء الذى تحتمله نفسى . فصممت على أن لا أسرق مرة أخرى . وحاولت أن أعترف لأبى ، ولكن لم أجروُ على الكلام . بيد أنى لم أمتنع خوف أن يضربنى أبى ، فانى

لا أذكر أنه ضرب واحداً منا طول حياته . ولكنى خشيت الألم الذى أحدثه فى نفسه باعترافى . وأخيراً صممت على أن أكتب الاعتراف بيدي، وأرسل به الى أبى طالباً منه العفو والغفران . فكتبته على قصاصة صغيرة وسلمته اليه يدأ بيد . ولم أعترف بمجردى فقط ، بل طلبت منه أن يعاقبنى عليها، ورجوته أن لا يعاقب نفسه بالاسترسال مع الحزن والألم، ووعدته أن لا أسرق مرة أخرى .

كنت أهتز رعدة من مفرق رأسى الى أخصى، لما قدمت له الاعتراف، وكان يشكو ناسوراً حاداً فرقد مستلقياً على فراشة، الذى لم يكن سوى دكة من الخشب الصلب . فلما قرأ الورقة تساقطت الدموع من عينيه كاللآلىء البيضاء حتى بللت الورقة ، ثم أغمض عينيه برهة مستغرقاً فى لجة من الأفكار، ثم مزق الورقة . فبكيت لبكائه وألمه . ولو كنت فناناً لرسمت صورة رائعة من هذا النظر . فانه لا يزال حياً فى خاطرى كما وقع تماماً . ولقد طهرت تلك الدموع البريئة قلبى وغسلت خطيئتى . ولن يدرك حقيقة هذا الحب الا من يكابده .

كان هذا الدرس بمثابة وضع قواعد «الاهمسا» (١) موضع التنفيذ

(١) الاهمسا هو قد مرت بنا من قبل - بالمعنى الحرفى البراءة وعدم استعمال العنف . وهى فى هذا المعنى تعادل معنى الحب . والذى يظهر من هذه الفكرة أن عدم التعاون والعصيان المدنى مع الامتناع عن استعمال العنف، وهى الوسائل الأساسية التى يستخدمها غاندى لمقاومة الاستعمار الانجليزى فى الهند ، منتحلة أصلاً من مبادئ دينية صرفة . أما البراهما شارما التى مرت فى صفحة أخرى فى المعنى الحرفى الخلق الذى يؤدى إلى الاتصال بالله . ومن أركانها ضبط النفس والعفة والتعفف .

والتطبيق . لم أستدوق من هذا الدرس في ذلك العهد إلا أنه عطف أبوى .
أما اليوم فأني أعتقد أنه « الالهسا » في براءته وطهره ، قالت
« الالهسا » إذا أحاط وتغلب ، فانه يغير كل شيء يحسه . لا حد
لقوته ، ولا نهاية لأثره . إن أبى لم يكن في التسامح بحيث يذهب به
حب المغفرة الى الحد الذي وصل اليه . فلقد ظننت أنه سوف يغضب ،
وان غضبه سوف يلتهب ، فيرسل بكلمات جارحة ، وأنه سوف يضرب
جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً . وإنى لأعتقد أن هدوءه كان راجعاً الى
ضراحة اعترافى . وإن اعترافاً بريئاً مصحوباً بوعد صريح بعدم
العودة الى ارتكاب الجرم ، اذا تقدم به المجرم الى الشخص الذى يحق
له أن يتقبل هذا الاعتراف ، لأننى صورة من صور التوبة . ولقد شعرت
بأن اعترافى قد طيب نفس أبى وأنه أصبح واثقاً بى وزاد حبه لى
وعطفه على .

كنت اذ ذاك فى السادسة عشرة من عمرى ، وكان أبى مريضاً طريح
الفرش ، ويقوم بتمريضه خادم عجوز وأمى وأنا . وقت له بعمل
المرضة ، فكنت أغسل جرحه وأضمده وأعطيه الأدوية كلما حان وقت
تناولها . وكنت أكب كل ليلة على تدليك قدميه ورجليه ، ولا أذهب الى
فراشى إلا بعد أن يأذن لى أو بعد أن يأخذه النعاس . وكانت هذه الخدمة
عزيزة عندى شيقة لى . ولا أنذكر مطلقاً انى أهملتها ، بل كنت

أصرف كل وقتي بعد المدرسة في العناية بتمريض أبي . وما كنت أخرج للنزهة قليلاً إلا إذا اذن لي ، أو شعر بأنه أحسن حالا . وأذنت الساعة الزهية . وكان عمي في « راجكوت » وأذكر أنه أتني على عجل عند ما علم باشتداد العلة على أخيه . وكان ينام بجواره ويعرضه بنفسه . كانت الساعة الحادية عشرة ، وكنت أدلك قدسي والدي ، ثم آويت إلى حجرتي ، ولكن الخادم طرق الباب بعد بضع دقائق معلناً أن أبي قد اشتدت به العلة . ولكنني شعرت شعوراً عميقاً بما يختفي وراء هذه الجملة من المعاني . وسرعان ما صدق حلمي . فإن والدي كان قد فارق الحياة .



الفصل الثالث

با كورة الشباب

كنت في المدرسة من السادسة أو السابعة الى السادسة عشرة من عمرى ، حيث تعلمت كثيراً من الأشياء ما عدا الدين . ولقد أخفقت في أن ألتقى من أساتذتى ما يمكن أن يعدونى به من معلومات ، من غير أن أ كد هم وأجهد هم . ومع هذا استطعت أن ألتقط مبادئ دينية استمتعها من يبتنى تسقطا من هنا وهناك . وأعنى « بالدين » اصطلاحاً في أوسع ما يحتمل اللفظ من المعانى ، أنه « تحقيق الذات » .

ولدت مطوقاً بمعتقد الفايشنافا - Vaishnava - ولذلك كثيراً ما كنت أغشى معبد الأسرة . ولكن العبادة في المعابد لم تكن تلائم مزاجى . فاني أكره فيها مظاهرها ونغماتها المصطنعة ، وكذلك سمعت أن كثيراً ما يقع في المعابد من الأعمال ما لا يتفق والآداب ، فزهدت فيها زهداً تاماً .

ولكن ما فاتنى من العلم بزهدى في المعابد تلقيته من مربيتى ، وهى خادمة عجوز من الأسرة لا أزال أذكر عطفها على وحنوها الى الآن .

ولقد اقترحت على يوماً أن أكرر اسم « راما » ^(١) كعلاج أتخلص به من خوفي من الأشباح . ولكن كان لى من الثقة بها ، أكثر مما كان لى بحقيقة العلاج الذى وصفت ، غير أن سنى سمحت لعقلى أن يتأثر بما وصفت من علاج خيل إليها أنه يذهب بما أحسن من خوف . والتربية الصالحة اذا غرست فى سنى الشباب ، فلا بد من أن تترك أثرها الثابت فى النفس . ويلوح لى أن ما غرست هذه المرأة الصالحة فى نفسى من الالتجاء الى ذكر « راما » لإطرد الخوف ، قد ثبت فى نفسى ، حتى أنى كثيراً ما ألجأ الى الاسم أكرره فى أيام محن ، فيروح عنى ، ويزيح ما يثقل على صدرى من الهموم .

فى ذلك الوقت حاول أحد أعمامى ، وكان من أتباع « الرامايانا » Ramayana - أن يلقنى وأخى الثانى مبادىء « راما راكشا » Rama Raksha - فأخذنا نستظهر المبادىء صم ، واتخذنا تلاوتها عن ظهر قلب عادة عكفنا عليها كل صباح بعد الاستحمام ، وظللنا نتلو ما حفظناه طيلة ما بقينا فى « بوربندار » ولكننا نسينا كل شىء بمجرد أن حللنا فى « راجكوت » ذلك لأننى لم أكن أعتقد أنى بهنه المبادىء

(١) « رامانا » - Ramanama - كلمة تكرر تعبداً وتقرباً من الله . و « راما » عبارة عن تجسد الله فى الذات البشرية وحوله فيها كما وضعت فى قصيدة « رامانا » الايقاعية التى وضعها تولاسيداس - Tolasidas - وهذه القصيدة فى الهندية مقتبسة من الأصل السنسكريتى الذى وضعه فليكى - Valmiki - .

و كنت أتلوها لازهو بأنى أستطيع أن أتلو « راما را كشا » من غير خطأ فى تخريج الحروف والكلمات . أما الذى ترك أثرآ فى نفسى لا يزول فقرة « الرامانا » تأليف « تولاسيداس » مع أبى . وكان أبى خلال مرض وفاته قد أمضى بعض الزمن فى « پوربندار » ، وتعود أن يسمع تلاوة « الرامانا » كل ليلة وكان الذى يتلوها « لاوامهاراج » من أخص أتباع « راما » وأكثرهم تأثراً به . وكان يقول انه استطاع أن يشفى نفسه من مرض الجذام بنصير عقاقير ، بأن لف على الأعضاء المصابة أوراق شجرة مقدسة فى معبد « بولشفار » وهبت للاله الكبير ، وبأن أخذ يكرر اسم « راما » . وقد يكون هذا صحيحاً أو غير صحيح . غير أننا صدقنا صحة الرواية على كل حال ، لان جسم الرجل كان فى ذلك الوقت سليماً من الجذام . وكان ذا صوت شجى ونبرات حزينة ، وكان يرتل ثنائيات أو رباعيات مستغرقاً كل الاستغراق ، حتى انه يجرف معه كل سامعيه ، ويستولى على لبهم . وكنت فى الثالثة عشرة من عمري اذ ذاك . ولكنى أتذكر أن تراتيله اختلبنى وأوقعتنى فى شراكه . وكان هذا سبباً فى افتتاحى « بالرامانا » . وانى لأعتقد الآن أن هذا الكتاب أعظم كتاب تعبدى ظهر فى العالم .

تعلمت فى « راجكوت » كيف أكون متساعماً ازاء كل فروع المذهب الهندوكى والديانات الأخرى ، وكنت مع أبى وأمى كثيراً ما تزور معابد شيفا وراما ، وكثيراً ما كان يزورنا رجال من مختلف

المذاهب ويتناولون بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكان يزورنا مسلمون يحدّثوننا عن حقيقة معتقدهم . وكنت أسمع هذه الأحاديث وما يدور حولها من المناقشات بجانب سرير أبي وأنا أمرضه . وكان هذا سبباً في أن لا أشعر بأثر للتعصب لمذهب أو ضد مذهب ما .

شدت النصرانية وحدها عن هذه القاعدة عندي . فقد تكون في وجداني نوع من الكراهية لها . ولذلك سبب . فقد اعتاد مبشرو هذه الديانة أن يقفوا على مقربة من المدرسة العليا ، وهناك يمحطون الهندوكيين سباً ولعناً ويوسعون آلهتهم تحقيراً . ولم أكن أستطيع أن أهضم هذا . وقفت مرة أستمع إليهم . وكانت الأولى والأخيرة . فلم أحاول أن أعيد التجربة مرة أخرى . وسمعت في ذلك الحين عن هندوكي معروف انتحل المسيحية . فأصبح حديث المدينة كلها يدور حول تعميده ، وكيف انه أكل لحم العجل وشرب النبيذ وكيف أبدل زيه ، فلبس الملابس الأوروبية وغطى رأسه بقبعة . ولقد أثر هذا في أعصابي كل تأثير . حتى لقد حدثتني نفسي بأن ديناً يرغم معتقيه على أكل اللحم وتماطي المشروبات الروحية وتغيير زيهم ، ليس جيداً بأن يكون ديناً ، وليس خليقاً بأن يسمى ديناً . وطرق سمى أن ذلك « المؤمن » الجديد أخذ يهزأ بدين أسلافه وعاداتهم ووطنهم الذي هو وطنه . وكانت كل هذه الأشياء سبباً في أنني شعرت بكراهية نحو النصرانية .

على الرغم من أنني رضت نفسي على أن أكون متسامحاً نحو الأديان

الأخرى ، فان ذلك لم يكن معناه انى كنت أعتقدنى وجود الله . وحدث
أنى قرأت فى ذلك الحين كتاباً دينياً ^(١) كان من بين مقتنيات أبى ، ولم
ترك قراءتى لما تضمن من أقاصيص الخلق وأصل الانسان اى أثر فى
نفسى ، بل على الضد من ذلك أحدثت فى نفسى زعة الى الالحاد
وانكار وجود الله .

وكان لى ابن عم احترم فيه الكفاءة العقلية وقوة الحكم . فلبجات
اليه أثير شكوكى لديه وأستمع به عليها ، فلم يستطع أن يذلل مصاعبى
أو يحل مشكلة واحدة من مشاكلى العقلية . واخيراً تركنى قائلاً :
« عندما تكبر يمكنك أن تحل هذه المشكلات بنفسك وهذه مسائل لا يجب
أن تكون مشاغل من هم فى مثل عمرك » فسكت . ولكن لم يهدأ بالى .
على أية حال لم يستطع هذا الكتاب بشرائه واقاصيصه أن يعالمنى
الاهمسا - Ahimsa ولكن شيئاً واحداً ثبتت أصوله فى نفسى اذذاك ،
ذلك هو الاعتقاد بأن الاحساس الأدبى اساس كل الأشياء ، وأن الحق
هو النواة الأولى التى تتكون منها شريعة الآداب العليا . ولقد أصبح
الحق غايى الوحيدة فى الحياة ، فأخذ يعظم فى نفسى ويزيد قدره فى يقينى
يوماً بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت اخذ ادراكى لمعنى الحق يعظم وتراعى
أطرافه .

شغفت بعد ذلك بقطعة شعرية باللغة الكوجراتية ملكت منى عقلى

(١) المانو سمرتين - Manusmriti - شريعة هندوكية قديمة جداً تعتمد نظام
الطائفة المسماة بهذا الاسم . والكتاب يحتوى على أساطير فى أصل الخلق وأصل الانسان ،

وكل قلبي . وكان عنوانها « قابل الاساءة بالاحسان » فأصبح مبدئي الأول الذي يقود خطواتي ، بل أمسى شهوة محتدة جامحة ، حتى انى أخذت أطبقه فى الحياة العملية .

...

بعد ان اجتزت امتحان القبول ، أشار على من هم أكبر منى سنًا أن أتابع درسى فى الكلية . وكان املنى جامعتان ، إحداها فى « يافنجر » والأخرى فى « بومباى » وكانت أولاهما أقل نفقة، فاخترتها ، على ان التحق بكلية « ساملداس » . فذهبت، ولكن لم ألبث ان وجدت نفسى فى بحر لظى . كل شىء كان صعبًا . وكل شىء كان عميقًا . ولم أستطع أن استوعب محاضرات الأساتذة . ولم يكن ذلك راجعا اليهم . فان أساتذة هذه الكلية كانوا من الطراز الأول . ولكنى كنت فجًا ، غير ناضج . وفى نهاية الدورة الدراسية الأولى ، عدت الى البيت .

وكان « مافجى وانى » وهو برهمى أريب واسع الاطلاع ، مرجع الأسرة وعمل استرشادها . فزارنا خلال الاجازة المدرسية ، وسأل أمى وأخى الأكبر عن دراستى وكيف أسير فيها ، فلما علم انى فى كلية « ساملداس » اقترح ان أسافر الى انجلترا لأتخرج فى القانون . وكانت هذه امنيتى . فأفعم الاقتراح قلبنى سرورًا لأمرين : الأول انى كنت ألاقى صعوبات حمة فى الكلية . والثانى انى أردت أن أرى بلادًا جديدة:

غير أنى أردت أن ألتحق بكلية أدرس فيها الطب ، فاعترض أخى قائلاً ان أبى كان ييغض هذه المهنة ، وكان يقصدك بقوله ان « الفايشنافا » لاشأن لهم بتشريح الجثث ، بل أراد أن تكون محامياً . وكان الاعتراض الثانى على درس الطب ان هذه المهنة لا تهيشنى لأن أكون « ديوانا » كما كان أبى ، وانى اذا أصبحت « ديوانا » أو أكثر من « ديوان » استطعت أن أقوم بأعباء أسرتى .

...

لم يتم هذا الحديث ، وينصرف البرهمى ، حتى أخذت ابنى العلالى والقصور ، ولكن فى الهواء . بدأ أخى يفكر الى أين يرسل بى ؟ وهل من الحصافة أن يرسل شاب مثلى وحيداً الى بلاد أجنبية ؟ أما أمى فقد اضطرب فكرها واختلط عليها الأمر . لأنها كانت تمقت فكرة أنى مفارقها ومبعتد عنها . وحاولت أن تقيم العقبات فى سبيل سفرى فقالت « ان عمك أسن من فى الأسرة الآن ، فيجب أولاً أن نشاوره ، فاذا وافق أمكننا أن ننظر فى الأمر » .

فلما قابلت عمى وأطلعته على جلية الأمر فكر قليلاً ثم قال : « لست أدرى ان كان هذا العمل يتفق ومبادئ ديننا . وكل ما يصل اليه علمى فى هذا الموضوع لا يخلو من شك . فانى عندما أقابل كبار المحامين لأرى فارقا بين حياتهم وحياة الأوروبيين . انهم لا يتقيدون بقيدفيا يأكلون ، ولقائف التبغ لا تفارق شفاهم . وهم يلبسون بلا خجل كما يلبس الانجلز .

وكل هذا مناقض لتقاليد أُسرتنا . واني لمزمع حجا . ولم يبق لي في الحياة الاسنوات معدودات . وكيف تتصور وأنا على حافة القبر ، أن آذن لك أن تذهب الى انجلترا وان تقطع بيننا وبينك البحار ؟ ولكني لن أقف في طريقك . فالأمر اذن يرجع الى موافقة أمك . فاذا وافقت فسارع بالسفر . قل لها اني لن أَدْخُل في الأمر . أما اذا سافرت ، فاني أباركك . »

فلما رجعت الى « راجكوت » وقلت الى أمي ما قال عمي ، ترددت ونفرت . فقد قيل لها ان الذين يذهبون الى انجلترا يبيعون الفضائل بالذائل . وقيل لها انهم يأكلون اللحوم ، وانهم لا يستطيعون أن يعيشوا من غير أن يتعاطوا المشروبات الروحية . وسألتني كيف أتصرف ازاء هذا ؟ فقلت لها ، « يا أمي العزيزة ، الا تثقين بي ؟ فاني لن اكذبك شيئا . واني لاقسم لك بأني لن أقرب شيئا من هذه الأشياء . » فقالت استطيع أن اثق بك واعتمد عليك ، ولكن كيف تكون هذه الثقة وانت في بلاد نازحة ، وديار بارحة . اني مرتبكة ولست أدري ماذا أفعل . سوف أسأل « سوامي » — Swami —

وكان « سوامي » بالولد والدم من طائفة « البانيا » كالفانديين . ولكنه انقلب كاهنا من طائفة « الجانيين » — Jani — وكان من مستشاري الأسرة كالبرهمي الذي مر ذكره . فأمدني بمساعدته ، وقال سأخذ عليه المهود الثلاثة وأقيده بالوائيق . وبعدها استطع أن يذهب

حيث شاء . فأقسمت وتعمهت بأن أعيش في إنجلترا عيش الفردية الصرفة ،
وان لا أقرب الخمر أو اللحم . فلما انتهيت من قسمي ، باركتني أمي ،
وسمحت لي بمغادرة بلادى .

وسارعت الى « بومباي » تاركا زوجي ومعهما طفل لا يتجاوز بضعة
أشهر . ولكني لم أصل الى هذا الثغر حتى التف بأخي الأصدقاء ، وقالوا
له ان المحيط الهندي يكون نائراً خلال شهرى يونية ويولية . ولما كانت
هذه سفرى الأولى ، وجب أن أرجى سفرى الى نوفمبر . وقال آخر
بأن باخرة غرقت خلال عاصفة . وكان هذا سببا فى أن يتملأ أخى .
ورفض أن يتحمل مسؤولية السماح لى بالسفر توأ . فتركنى فى بومباي
مع صديق وعاد الى « راجكوت » لىؤدى أعماله ، وترك نفقات السفر
مع أحد اقاربه ، واوصى بى الأصدقاء أن يقدموا الى ما أحتاج اليه من
المساعدات . ومرت بى الأيام والساعات طويلة متشاقة فى « بومباي »
الا انى كنت أحلم بإنجلترا وما فيها .

...

وأخذ رجال طائفتى الدينية يبدون اعتراضاتهم على سفرى الى الخارج ،
بل بلغ بهم الأمر الى اظهار مقتهم وغضبهم ، فانه حتى ساعة عزى على
السفر لم يغادر واحد من طائفتنا شواطئ الهند ، فاذا أقدمت على السفر
وصممت عليه ، وجب أن يحتكموا معى الى الكتاب . فمقدت جمهرة
من رجال الطائفة ودعوني الى الظهور أمامها لأجيب عما يوجه الى من

أُسئلة . ولست أدري كيف استجمعت قدراً كافياً من الشجاعة حملني على الذهاب الى جهرتهم . على أية حال لم أتوان عن الذهاب اليهم . فأخذ رئيس الطائفة ، وكان من اقاربي البعيدين ، ولكنه كان على صفاء مع أبي ، يلقي هذه الكلمات : « من رأى الطائفة ان عزمك على السفر الى انجلترا ، أمر لا يتفق وعقائدنا . ثم ان ديننا يمنعنا عن السفر الى خارج بلادنا بأى حال من الأحوال . وكذلك وصل الى مسامعنا انه من المستحيل أن يعيش الانسان هناك من غير أن يحل محرم ديننا . فان المرء يضطر اضطراراً أن يأكل ويشرب على طريقة الأوربيين » . فكان جوابي « لا أظن مطلقاً أن الذهاب الى انجلترا يكون فيه أى تناقض مع مبادئ ديننا . وغرضي من الذهاب الى هناك أن أكمل دراستي . هذا فضلاً عن أنى وعدت أى أن ابتمد عن ثلاثة أشياء هي أخوف ما تخافون . واني لملئ يقين من أن قسمي سوف يحفظني من السقوط » . قال الرئيس « ولكنى اؤكد لك انك سوف لا يمكنك أن تقوم بفروض الدين هناك . وأنت تعلم علاقتى بأبيك وغيرتى عليك ، ولذا أرغب في أن تسمع نصيحتي وترضخ لارشادي » . فكان جوابي « اني لأعرف علاقتك بأبي ، ولكن لا حيلة لي في الامر . لا نني لا أستطيع أن أرجع عن عزمي على الذهاب لانجلترا . فان أحد أصدقاء أبى ذوي العلم والمعرفة ، وهو برهمي ذو وزن وقيمة ، لا يرى مانعاً يحول دون ذهابي ، وعلى رأيه وافق أخى ووافقت أنى » .

« ولكنك ستخالف نظام الطائفة » .

« لا حيلة لى ولا مخرج . وان الطائفة سوف لا تتدخل فى هذا الشأن » .

ولقد أسكتت هذه الكلمات الرئيس ، فأخذ يمدجنى بنظراته وأنا جالس لا أتحرك ، ثم أعلن ما يأتى : -

« سوف يعامل هذا الغلام على أنه خارج على طائفتنا ، مطرود من حظيرتها منذ اليوم . وكل من يذهب ليوذعه على الرفأ ، سوف يعاقب بغرامة قدرها روبية وأربع آنات » .

فلم يؤثر فى هذا الأمر أقل تأثير ، وتركت حضرة الرئيس تواء . ولكن أشفقت فى أن يكون للامر أثر فى نفس أخى . ومن حسن حظى أن الأمر لم يهزه ولم يغير رأيه ، بل كتب يؤكد لى أنه يأذن لى فى السفر على الرغم من معارضة رئيس الطائفة وأعضائها فى « بومباى » .

...

وبينما كنت فى هذه اللجة المضطربة سمعت ان محامياً من المعروفين سيسافر الى انجلترا على سفينة تغادر الميناء فى اليوم الرابع من شهر سبتمبر . فبادرت الى الأصدقاء الذين اوصاهم بى اخى ، فوافقوا على أن انتهز فرصة السفر مع هذا المحامى . ولم يكن لدى من الوقت ما أسمح بضياعه . فأبرقت الى اخى أستاذته ، فأذن . وسألت قريبي أن يعطينى المال الذى تركه أخى معه . ولكنه استمسك بالامر الذى اصدره رئيس الطائفة ، وقال انه

لا يريد أن يطرد كما طردت . وبعد لآئى استطعت أن أسوى الأمر بعد
الالتجاء الى صديق ، لولاه لما استطعت أن آخذ مالى ، وأحصل على
نفقات سفرى . ووصلت الى « سوئمتون » حوالى آخر شهر سبتمبر
سنة ١٨٨٨ .



الفصل الرابع

في لندن

زار دكتور « مهتا » حجرتي وتفقد محتوياتها ، ثم هز رأسه علامة على عدم الرضا عنها ثم قال : « هذا المكان لا يليق . اننا لانهبط لندن للدرس بقدر ما نهبطها الممارسة الحياة والمعادن الانجليزية . ولهذا يجب عليك أن تعيش في أسرة . ولكن قبل أن تقدم على هذا أظن أنه يحسن بي أن أعهد بك لأحد أصدقائي لتدرس الحياة وتمرن عليها » .

ولقد قبلت هذا الاقتراح بكل شكران ، وانتقلت تواء الى سكن ذلك الصديق . وكان هذا الصديق مثال الرأفة واليقظة ، فعاملني معاملة الأخ واخذ يعلمني أصول السلوك الانجليزي . غير أن غذائي أصبح مسألة معضلة . وكنت لا أستسيغ الخضر السلوقة من غير توابل ، وتنجرت ربة البيت فيما يمكن أن تجهز لي من غذاء . وكنا نتناول عصيدة القرطم للافطار فكانت كافية ، ولكنني كنت أشعر بالجوع في وجيتي الظهر والمساء . وحاول صديقي الذي عهد بي اليه دكتور « مهتا » أن يغرنني على أكل اللحم ، ولكنني كنت أذكر له عهدي الذي عاهدت عليه أمي ، وأظل صامتاً ، أما وجيتنا الظهر والمساء فقد اعتدنا أن نتناول فيها الاسفناخ والخبز والمربي . وكانت شهيتي غالباً ماتقوى ولكنني كنت

أخجل من أن أطلب أكثر من قطعتين أو ثلاث من الخبز ، معتقداً أنه ليس من حسن الذوق أو الأدب في شيء أن أقبل غير هذا . وكنا لا نتناول اللبن في غير الصباح . وامتنع صديقي يوماً من هذه الحال فقال لي بصراحة . « لو كنت أخى اذن لأمرتك بالاسراع في حزم أمتعتك . ماهى قيمة عهد تعاهد عليه أما غير مثقفة جاهلة بمجرى الأحوال هنا . ان عهدك هذا ليس عهداً على الإطلاق ، انه لا يعتبر عهداً صحيحاً أمام محكمة قضائية . وصبرك على الأخذ بمثل هذا الوعد ليس أكثر من خيال ووهم فارغ . وعكوفك عليه لا يعود عليك بأية فائدة هنا . انك اعترفت أنك أكلت اللحم وتذوقته . فعلت هذا في وقت لم يكن أكل اللحم فيه ضرورياً ، وتمتع عنه في وقت تدعوك الحاجة اليه . ولكنى ظلت صلباً ولم تلن فنانى . وكثيراً ما كان يستمر هذا الصديق في سرد براهينه ، ولكن كان عندى قوة سائلة استقرت في نفسى أواجه بها كلما لجج في الكلام والتدليل على صحة رأيه . وكان كلما أمعن في محاوراته ، أهدمت في عنادى . وكنت أصلى لله كل يوم ليحمينى ، فغمانى . ولم يكن عندى أية فكرة يئنة في الله ، بل كان مجرد ايمان أثر أثره . أما هذا الايمان فقد غرسته في نفسى مرييتى .

عثرت خلال تجوالى في المدينة على مطعم للنباتيين في شارع « فرنجدون » . وكان لمجرد وقوع نظرى عليه هزة فرح في نفسى ، كذلك الهزات التى يشعر بها الأطفال لدى عثورهم على شيء تعلقت به

قلوبهم الطاهرة . ورأيت قبل أن ادخل المطعم ومن وراء الزجاج ، كتباً عرضت للبيع، ومن بينها كتاب « صولت » الذى عنوانه « الدعوة إلى الحياة النباتية » فاشتريته بشلن واحد ، ودلفت توأ إلى حجرة الطعام . وهناك تناولت أول وجبة أرضتني منذهبت أرض انجلترا ، وشعرت بأن الله ساعدنى وأخذ ييدى .

قرأت كتاب «صولت» من ألفه إلى يائه . فأنثر فى كل تأثير . ولما قرأته، أصبحت نباتياً بالاختيار ، وإنى لا بارك ذلك اليوم الذى عاهدت فيه أمى ذلك العهد . ولقد كنت أمتنع من قبل عن أكل اللحم احتراماً للصدق وللمهد الذى قطعته لأمى ، ولكنى كنت أرغب من كل قلبى فى ان يصبح كل هندى من أكلة اللحوم . وكنت أطلع إلى حلول الوقت الذى أكون فيه واحداً منهم ، أعالج الأمر بحرية وجهرة، وأدعو غيرى إليه . ولكن اختياري الآن مال بى إلى ناحية الحياة النباتية ، والتبشير بها أضحي كل همى :

وظهر لى ان الملابس التى قدمت بها من « بومباى » لا توافق ذوق المجتمع الانجليزى . فبدلتها بملابس أوصيت عليها فى مخازن الجيش والبحرية . واشتريت قبعة حريرية كلفتني تسعة عشر شلناً . ولم أكتف بهذا فأنفقت عشرة جنيهات على بذلة للسهرة أوصيت عليها فى محل « بيوند ستريت » وكتبت لأخى ليرسل إلى بسلسلة ذهبية . ورأيت انه ليس من حسن النوق أن ألبس رباط رقبة مربوط ، فتعلمت كيف

أربط رباط الرقبة بعد مزانة عليه . ولم اعتد في الهند النظر في المرأة ، بل كانت المرأة من ادوات الترف ، فلا أنظر فيها الا في اليوم الذى يزورنا فيه حلاق الأسرة . أما في لندن فكانت أقضى كل يوم عشر دقائق امام مرآة كبيرة أنظر فيها كيف أعدل رباط رقبتى وأمشط شعرى على طريقة مألوفة ، ولم يكن شعرى ناعماً ، فكانت تقوم في صبيحة كل يوم معركة مع المشط والفرشاة حتى يستقيم وتسفر المعركة عن توليفه بطريقة منتظمة . وكنت في كل فترة أخلع فيها القبعة أو اضعها فوق رأسى ، تمر يدي على شعرى بطريقة أوتوماتيكية لأصلح شعرى واحفظ نظامه .

وكل هذا أيضاً لم يكن كافياً . فبدأت أوجه انتباهى الى تفاصيل أخرى ، فرضت انى اذا عكفت عليها استطعت أن اخرج من نفسى سيداً كريماً (جنتلمان) على الطراز الانجليزى . وقيل لى انه من الضرورى ان ألتقى دروسا في الرقص واللغة الفرنسية وفن الالقاء . فصممت على أن أدرس الرقص في معهد ، ودفعت ثلاثة جنيهات أجراً على دورة لتعلم الرقص مداها ثلاثة أسابيع . وكنت احتاج الى ستة أسابيع . ولكنى وجدت انى عاجز عن أن أقوم بحركات متزنة مؤلفة ، لأننى لم أكن أستطيع ان اتبع توقيع البيانة ، فيستحيل على ان اوفق بين حركة أقدامى وتقسيم التوقيع . ولكن ماذا افعل ؟ تروى أسطورة ان ناسكا احتفظ بهرة في منسكه ليقاوم القران بها ، ثم يبقرة لتغذى الهرة ، ثم برجل ليخدم البقرة ، وهكذا . ولا ريبه في ان مطامعى أخذت تتكاثر

ويتبع بعضها بعضاً ، مثل الناسك . ففكرت ، في أن اتعلم العزف على الكمان ، حتى أعود أذنّي على انغام الموسيقى الغربية وتوقيعاتها . فاشترت كماناً بثلاث جنيهات وأضفت الى الجنيهات الثلاث مبلغاً من المال اجراً لمعلمة ، واخذت ابحث عن معلم ثالث ليعلمني فن الالقاء ، ودفعت له جنيهاً لابتداء درسي ، وأمرني بأن أشتري كتاب « بل - Bell - في فن الالقاء ، فاشتريته غير وان .

غير ان كتاب « بل » كان أول شيء قرع « الناقوس » ^(١) في أذني ، فصحوت من هذه الغفوة النفسية . قلت في نفسي - « انك سوف لا تقضي عمرك في انجلترا ، فما الفائدة من تعلم فن الالقاء ؟ والآن - « هل من الممكن ان أصبح بتعلم الرقص جنتلمانا » ؟ والكمان عجزت عن تعلمها حتى في الهند . وما دمت في طور التلمذة ، فيجب على أن أعكف على دروسي ، فاذا أهلت بي أخلاق لأن تخرج مني « جنتلمانا » فهذا خير من كل ماعداه . وعلى هذا اوجبت على نفسي ان أترك كل هذه الأشياء .

اكتفتني هذه الأفكار ومثيلاتها ، وكتبتها في خطاب ارسلت به الى معلم فن الالقاء ، راجيا ان يعفيني من اتمام دروسي . ثم ارسلت بخطاب آخر الى معلم الرقص ، وذهبت بنفسى الى معلمة الكمان ،

(١) بين كلمة « بل » وهو اسم مؤلف الكتاب ، وكلمة « ناقوس » جناس ، لأن الناقوس في الانجليزية اسمه « بل »

لأعتذر لها بأنها تستطيع أن تتصرف في الآلة الموسيقية بأى ثمن يمكن الحصول عليه ، وكانت مخلصه ودودة . فأخذت اظهر لها كيف انى تبينت أخيراً انى انما اتبع املا خاطئا ، فشجعتنى على أن أتابع ماصممت عليه من تغيير خطى تغييراً كلياً . ولقد استمر ولعى بهذه الأشياء ثلاثة أشهر . أما المحافظة على هندامى فقد استمر سنين عديدة ، ولكنى رجعت على كل حال تلميذاً ، بعد أن تخلّيت عن افتتانى هذا .

وليس من حق أحد ان يظن ان تجاربي في الرقص وامثاله من الأشياء كان طوراً من أطوار الانغماس في الملذات قطعته في حياتى . فانى أثناء ولعى بهذه الأشياء ، كنت مالكا لكل قوى نفسى ، ولم يتحرر طور افتتانى بهذه الخيالات من تأمل عميق كنت أقع صريعة الفينة بعد الفينة . وكنت أقيد حسابى فلا أهمل ذكر المليم والدائق الذى أصرفه ، وبدأت أناقش نفسى في نفقاتى ، فاستبان لى انه من الضروري ان أقتصد . وعلى هذا صممت أن اختزل نفقاتى الى النصف . فقد ظهر لى من مناقشة الحساب أن ابوابا كثيرة تذهب اجورا . ووجدت من جهة أخرى أن معيشتى في وسط أسرة يستدعى ان أدفع حسابى كل أسبوع . فأقلعت عن عادة التجبب الى افراد الأسرة بدعوتهم الى الطعام ، كما رفضت أن اقبل دعواتهم اذا انصرفوا الى الزهة او اللهو . وكل هذا كان يستدعى زيادة في النفقات . فاذا كانت رقيقتك في الزهة سيده ، وجب عليك أن تقوم بكل النفقات . وظهر لى أيضاً أن الأكل خارج المنزل

كان اسرافاً ، لأن كل الوجبات التي لا أتناولها في المنزل لا تنقص من الحساب الاسبوعي شيئاً . ولماذا لا أوفر على نفسي كل هذه الأبواب ؟ صممت على أن أستأجر حجراً مستقلة ، بدلا من أن أعيش في أسرة ، وبذلك أتمكن من الاختلاف من مكان لآخر على مقتضى طبيعة أعمالى . التي أقوم بها ، فأكسب تجربة وعلماً . فانتقيت الغرفة التي أجرتها بحيث كانت تبعد عن محل عملى أكثر من نصف ساعة مشياً على القدم ، وكذلك أخذت أقتصد فى الأجور التي أنفقها . وكنت لا أنتقل من مكان الى آخر الا راكباً ، قائلاً انى أستطيع أن أقتصد من الوقت ما أقضيه فى الزهرة ماشياً . أما النظام الجديد فكان زهرة واقتصاداً ، اذ استطعت أن أقتصد أجور الانتقال وأن أقطع كل يوم ثمانية أو عشرة أميال سعيًا على قدمى . ولقد افادتني عادة المشى فوائد جلى ، حفظتني من الأمراض طيلة مقامى فى إنجلترا ، وأكسبتني قوة فى البدن وشدة فى الأعصاب .

حدث بعد هذا بقليل ان قرأت كتباً فى الحياة البسيطة ، سارعت بعدها الى ترك حجراتى واستأجرت بدلا منها حجرة واحدة مهيأة بمدفأة ، ومضيت أجهز فطورى بنفسى وفى حجرتى ، ولم يكن يشغلنى هذا أكثر من عشرين دقيقة ، اذ لم يكن لى من حظ فى وجبة الصباح أكثر من عصيدة القرطم وماء ساخن للكاكو ، وبهذا استطعت أن أعيش بشلى وثلاثة بنسات فى اليوم . وكان هذا الوقت وقت اكباب

على الدرس وافقتان به . ولقد وفرت على هذه الحياة البسيطة كثيراً من وقتي ، فاجتزت الامتحان . على أن هذا الاقتصاد لم يجعل حياتي جافة كما يخيل الى البعض . بل على الضد من هذا ، أ كسبني التغير الذي أدخلته على نمط حياتي ألفة شملت نفسي وجسمي . بيد أن الطريقة التي اتبعتها كانت تلائم موارد أسرتي ، فضلاً عن أنها كانت أقرب للاستقامة ، فعم نفسي بذلك فرح لا يوصف .

...

منذ أربعين سنة خلون لم يكن في لندن من الطلاب الهنود سوى عدد ضئيل . وكانت العادة أن يعيش هؤلاء عيش الفردية ، ولو كانوا متزوجين ، لأنهم يعتقدون هناك أن حياة الطلب والدرس لا تتفق مع الزواج . وكانت لنا هذه العادة في الهند خلال الأزمان القديمة ، ولكننا استبدلناها في العصور الحديثة بتزاوج الأطفال ، وهي عادة غير معروفة في إنجلترا . وكثيراً ما كانت تعلق حمرة الخجل وجوه شباب الهند عند ما يضطرون الى الاعتراف بأنهم متزوجون . ولقد اخذتني عدوى هذه العادة فقيدت اسمي أعزب ، على الرغم من اني كنت متزوجاً ولي ابن ، ولكنني لم أكن سعيداً بأن أشعر بأني خادعت ورايت . ولكن خجلي وصمتي وتكتمتي ، كل هذه الأشياء حملتني على أن أدلف الى أعماق أشد غوراً .

كنت مرة في صحبة أسرة في « فنتور » أمضى اجازتي . والعادة في

مثل هذه الأمر أن تصحب الفتاة بنت صاحبة البيت ضيوف أهلها
للزهوة والتريض . فاصطحبتهى الفتاة يوماً الى تلال جميلة هادئة تحيط
ببلدة «فنتور» ولست ممن يتدنون فى المشى ، ولكن رفيقى كانت أسرع
منى عدواً ، فجرتنى وراءها وأخذت تثرثر طيلة الوقت ، وكنت أجيب على
ثرثرتها المرة بعد المرة بكلمة « نعم » أو « لا » وفى بعض الأحيان « بنعم ،
ما أجمل هذا أو ذاك » . وكانت كأنها طير يطير ، وظلت أفكر متى
نعود الى المنزل ، بعد أن ضربنا فى السير وبلغنا قمة تل . ولكننا لم نكد
نعتلى القمة حتى أخذت أفكر فى كيف نهبط مرة أخرى . وعلى الرغم
من حداثتها العالى الكعب ، فان هذه السيدة التى كادت تتجاوز من
العمر الخامسة بعد العشرين ، هبطت من فوق التل كأنها سهم زل عن
كبد القوس . أما انا فكنت فى حيرة الخجل اجاهد لأهبط ذلك المرتقى
الوعر . ووقفت هى تبسم وتشجعنى وتعرض على أن نأتى لنجدتى .
وبكل ما يمكن أن يتصور ذهنى من الصعوبة اخذت أعالج الأمر ،
فانساند مرة ، وأزحف على ركبتى أخرى ، حتى استطعت أن أهبط
الى سفح التل ، فصاحت بملء فيها « برافو » . ولكن فخكتها أوقعتنى
فى خجل مرير لا أستطيع وصفه .

غير انى لم استطع أن أفلت من غير اضرار . لأن الله أراد ان يخلصنى
من سرطان الكذب والبهتان .

ذهبت مرة الى « برتين » . وقابلت هناك ارملة عجوزاً معتدلة

الثروة . حدث هذا خلال السنة الأولى من اقامتى فى انجلترا . وكان جدول الطعام فى الفندق مكتوباً بالفرنسية التى لا أعرف منها الا القليل ، وجلست الى المائدة التى جلست اليها هذه الأرملة . وقد لحظت انى غريب وانى مرتبك ، فسارعت الى مساعدتى . بادرتنى قائلة : « يظهر انك غريب وانك مرتبك . لماذا لم تطلب شيئاً » . ! فشكرتها وأبنت لها عن الصعوبة التى تعترضنى لأنى لا أستطيع ان أميز بين ألوان الطعام وايها يتفق وخطة النباتيين لأنى لا أعرف الفرنسية الا جهداً . فقالت : « اسمح لى ان أساعدك . سأوضح لك الألوان وارشدك الى ما تأكل » وكانت هذه بادرة علاقة استحالت الى صداقة استمرت طوال اقامتى فى انجلترا وزمناً طويلاً بعدها . واعطتنى عنوانها فى لندن ودعتنى الى الغداء فى بيتها كل يوم احد . فكانت تحتفى بى وتقدمنى الى فتيات وتحملننى على الاشتباك معهن فى الحديث ، وكان من بينهن على الأخص سيدة فنية كانت تقيم معها ، وكثيراً ما كانت تتركنا معاً فى وحدة شاملة .

شعرت أولاً بأن الأمر شاق متمب . فكنت لا أستطيع أن ابدأ حديثاً . ولا أقدر ان اشترك فى فكاهة . ولكن هذه السيدة الفتية قادتنى الى الطريق ورسمت لى الخطة . وبدأت اتعلم . ومع مرور الزمن بدأت أتشوق الى يوم الأحد من كل أسبوع ، واخذت أميل الى التحدث الى صديقتى الشابة .

وأخذت الأرملة المعجوز تمد أطراف شبا كها يوماً بعد يوم .
فكانت تظهر الاهتمام بمقابلاتنا . وليس من البعيد أنها كانت تخطط من
حولنا خطة تحاول تنفيذها . فتولتني حيرة مزعجة . كيف أقوى على
ان أخبر ربة البيت بأني متزوج ؟ غير أني تمنيت لو اني أخبرتها .
اذن لرأت انه من الصعب عقد خطبة بيننا : ولكن الوقت لم يكن قد
فات بعد . ورأيت أن اعلان الحق كفيلاً بأن يؤثر على تعمساً أكبر من
التعمس الذي أشعر به . وبهذه الفكرة كتبت لربة البيت خطاباً جاء
فيه :

« لقد شملني عطفك منذ أن تقابلنا في « برين » لأول مرة ، حتى
انك عنيت بي كما تعني الام بابنها ، وفكرت في أن اتزوج ، وأخذت
تقدميني لفتيات لأعقد معهن يوماً أو اصر الألفة والصداقة . ولأنني لا
أرغب في ان تنهض الأمور الى أبعد مما وصلت الآن ، أصارحك بأني
لم أكن خليقاً بمطفك هذا . كان من الواجب على ان أعرفك منذ
بدأت زيارتي لمنزلك اني متزوج . فقد عرفت ان طلبة العلم الهنود يخفون
في انجلترا أمر زواجهم ، فتابعتهم في هذا ، وانى لأسف لأنى اضطرت
لأن أخفي عنك الحقيقة طوال هذه المدة . ولكنى الآن معتبط لأن الله
قد أمدنى بشجاعة حملتني على ان اقول الحق وان أصارحك به . فهل لك ان
تغفر لي زلتى ؟ وانى لأؤكد لك بأني لم أتجاوز حد الأدب مع السيدة
التي تفضلت بأن قدمتني اليها . فاني أعرف الحدود التي يجب أن

أقف عندها . أما انت ، فلأنك جاهلة أمر زواجي ، فقد رغبت في أن
تم خطبتنا . ومن أجل اني رغبت في ان لا تتجاوز الأمور حدها الذي
بلغت اليه ، رأيت واجباً على ان أطلعك على الحقيقة »

« أما اذا وصلك هذا وكان شعورك اني كنت غير خليق بأن أوجد
تحت سقفك وفي ضيافتك ، فاني أؤكد لك بأن هذا يسوءني كل
الاساءة . ان لك في عنق دينا لا يوفيه عرفان الجميل والشكران جزاء
ما أظهرت نحوي من العطف والحنو . فان رأيت بعد هذا ان لا تطرحيني
واني جدير بكرمك الذي سوف لا آلو جهداً في ان أجعله من نصيبي ،
فلا شك في اني أكون سعيداً ، واعتبر أن هذه خاطرة أخرى من
خاطرات حنوك وعطفك » .

كتبت هذا الخطاب مرات لأتقحه مرة بعد أخرى . ولكنه على
كل حال أزاح عن كاهلي عبثاً كنت أشعر بثقل وطأته . وفي عودة
البريد تلقيت الرد فكان فيه مايلي :-

« وصلني خطابك الذي عبر عن اخلاصك . ولقد اغتبط كلانا به ،
كما أضحكنا كثيراً . فان الحقيقة التي أخفيتنا عنها ، وتعتقد انك اجرت
في اخفائها ، يمكن العفو عنها . ولكنك أحسنت في انك أوقفتنا على
حقيقة حالك . وان دعوتي لك ما زال جارية كما كانت . انا لفي انتظارك
يوم الأحد المقبل ، وتتشوق لسماع رواية زواجك وانت طفل لعلنا نسر
ونضحك بعض الشيء ، ونسرى عن أنفسنا على حسابك . ولست في

حاجة لأن أؤكد لك أن صداقتي لم تمس من جراء هذا الحادث .
بهذا طهرت نفسي من سرطان الكذب والبهتان . وما ونيت
منذ ذلك الحين أن أتكلم في زواجي ، كما سنحت فرصة للكلام فيه .

...

قبل أن تنتهى السنة الثانية من اقامتي في إنجلترا ، بدأت علاقتي
بأخوين من الآخذين بمبدأ الثيوصوفية - Theosophism - وكان
كلاهما غير متزوج ، وتكلما معى عن اسفار « الغيتا » - The Gita -
وكانا فى ذلك الوقت منكميين على قراءه ترجمة سير « إدوين ارنولد »
لكتابنا المسمى « الأغنية السماوية » ودعياى لأن أقرأ الأصل معهما .
فشعرت بالحجل لأنى لم أكن قرأت « الأغنية السماوية » لافى اللغة
السنسكريتية ولا فى اللغة الكجراتية . فاضطرت لأن أصارحهما بأنى
لم أقرأ « الغيتا » ولكن أقرؤه معهما بسرور ، وان معرفتى بالسنسكريتية
ان كانت « بجة » ناقصة ، فقد أملت أن أفهم الأصل بحيث أستطع أن
أعرف أين عجزت الترجمة عن التعبير عن المعنى . وبهذا بدأت أقرأ
« الغيتا » معهما . ولقد أثر فى جزء من الفصل الثانى تأثيراً لاينسى ، وعلى
الأخص المقطوعة الآتية :-

« اذا عكف الانسان على حاجات البدن ، فهناك يبدأ الميل اليها ،
ومن الميل تتولد الرغبة ، ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفرسة . والشهوة
تولد الطيش والتهور . وبذلك تنفون الانسان الذاكرة فيقضى على

الأغراض النبيلة ، ويتقوض بناء العقل ، فيفنى الغرض والعقل
والانسان».

ولقد ظهر لى أن الكتاب لا يقدر بثمن . وهذه الفكرة التى كونتها
فى أسفار « الغيتا » ما تزال حتى اليوم تنمو وتتطور فى نفسى ، حتى انى
لأعتبرها اليوم أسمى الأسفار التى تعرفنا الحق . ولقد أمدنى هذا الكتاب
بأكبر المساعدات فى أشد ساعات محنتى حلقة . وقرأت بعد ذلك كل
الترجمات الانجليزية التى ظهرت لهذه الأسفار ، فرأيت أن ترجمة سير
« إدوين أرنولد » أحكمها وأصفها . فقد حافظ على الأصل ، بيد أنه
صقلها ، فكانت بعيدة عن روح الترجمة . وعلى الرغم من أنى قرأت
« الغيتا » مع هذين الصديقين ، فاني لن أدعى أنى درستها اذ ذاك .
ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ بدأت أصحب « الغيتا » اذ
جعلته كتابى اليوى .

أرشدانى بعد ذلك الى كتاب آخر بقلم سير « أدوين أرنولد » عنوانه
« نور آسيا » . وكنت لا أعرف أن لسير « أرنولد » كتابا آخر غير
« الأغنية السماوية » . فقرأت ذلك الكتاب بلذة واكباب لم أجدها
حتى فى قراءة « الغيتا » . وما فتحت الكتاب حتى اختلبنى ، فلم أستطع
أن ألقى من يدى ، وصحبتهما بعد ذلك الى محفل « بلافانسكى » وقدمانى
الى مدام « بلافانسكى » ومسز « بزانت » . وكانت مسز « بزانت »
قد انتمت الى الجمعية الشيوصوفية حديثاً ، فتبعت بكل عناية حديث

اعتناقها هذا المذهب . ونصح لى الصديقان أن أتمى للجمعية ، ولكنى رفضت بأدب قائلاً « ان معرفتى بمحقق دينى غير تامة ، ولهذا لا أريد أن أتصل بأية جماعة دينية » وأذكر أنى قرأت بارشادها كتاب مدام « بلافانسكى » - « مفتاح الثيوصوفية » . ولقد كان من أثر قراءتى لهذا الكتاب ما حملنى على أن أقرأ كتباً أخرى عن الهندوكية، خرجت منها بفكرة كاملة فى تحمل المبشرين على الدين الهندوكى ، اذ يزعمون أنه مدخول بالخرافات والأساطير .

وفى ذلك الوقت قابلت نصرانياً مستقيم الفكر فى « مانشستر » فى فندق خاص بالنباتيين . فتكلمنا فى الدين النصرانى . وأطلعته على مائت فى ذهنى من أعمال المبشرين فى راجكوت - فتألم مما سمع وقال - « انى من النباتيين ، ولا أشرب الخمر . وكثير من النصارى يأكلون اللحم ويعاقرون بنت الحان ولكن كلا الأمرين غير مسموح به فى الأناجيل . أرجوك أن تقرأ الكتاب المقدس » . فقبلت نصيحته وأعطانى نسخة . وخيل الى بقدر ما تسمح بذلك ذاكرتى أنه كان يبيع الكتب المقدسة ، وانى اشتريت منه نسخة تحتوى على خرائط وفهارس للكلمات وغير ذلك من وسائل المساعدة على مطالعة الكتاب . وأخذت أطالعه ، ولكنى عجزت عن أن أتم قراءة العهد القديم . وشعرت بهذا المعجز عند ما أتممت قراءة سفر التكوين . أما الفصول التى تتلوه فقد بعث بالنعاس الى جفونى ، فتناقلت ، وأخذنى الاغفاء . غير أنى حملت نفسى على متابعة

القراءة لأستطيع أن أقول انى قرأت الكتاب ، فتصفحت الاسفار
الاخري بصعوبة ، وبأقل ما يمكن أن يتصور من اللذة أو القدرة على
الفهم . وكرهت أن أقرأ سفر العدد .

أما العهد الجديد فقد أثر في نفسى تأثيراً مخالفاً كل المخالفة لهذا ،
وعلى الأخص « موعظة الجبل » فانها وجدت طريقاً مباشراً الى قلبي .
ولقد أخذت أوازن بينها وبين النيتا - وتخلقت بقول عيسى
« لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً .
ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فترك له الرداء » . وكان تأثيره في
نفسى بالغاً لا يقاوم . وزين لى عقلى الصغير أن أوفق بين النيتا ونور
آسيا وموعظة الجبل .

وكان من أثر مطالعتى هذه ان ولعت بقراءة سير أصحاب الأديان
الأخري . وأرشدنى صديق الى كتاب كارليل « الأبطال وعبادة
البطولة » وقرأت الفصل الذى عقده فى « البطل فى صورة نبي »
وعرفت فى نبي الاسلام الفطنة البالغة والشجاعة النادرة . وفى عيسى
التقشف والصلابة .

وماعدا هذه المطالعات التى دارت حول الدين ، لم أقرأ شيئاً ، لأن
ميعاد الامتحان كان قد أوفى وبذلت كل جهدي فى الاكباب على
الدرس . ولكن اتجه فكرى الى ضرورة أن أقرأ عن الدين أكثر
مما قرأت فى كتب الدين ، وان أتم بكل الأديان المعظمى .

وكيف أستطع أن أعرف شيئاً عن الالحاد وانكار وجود الله بجانب هذا ؟ ان كل هندي يعرف اسم « برادلو » - Bradlaugh - والحاده . فقرأت في الالحاد كتاباً نسيت اسمه لأنه لم يترك أى أثر في نفسى ، وكنت اذ ذاك قد اقتحمت مغارة الالحاد ، وكانت مسر « برانت » في ذلك الحين قد انتقلت من الالحاد الى الألوهية ، فقوى هذا الحادث عندى الزهد في الالحاد ، بعد أن قرأت كتابها « كيف أصبحت ثيوصوفية » .

...

في ذلك الحين مات برادلو ^(١) - Bradlaugh - ودفن في مدفن « بروكود » ولقد شهدت الجنازة ، كما شهدها كل هندي مقيم في لندن . وكان فيها قليل من رجال الدين ليقوموا بآخر واجباتهم نحو الراحل . وعند عودتنا اضطررنا أن نتنظر في محطة السكة الحديدية مقدم القطار . فتقدم أحد زعماء الالحاد من أحد رجال الدين وسأله : اتعتقد يا سيدى في وجود الله ؟ فأجابه الرجل « أقبل » مفضياً من صوته . فأجابه الملحد وعلى فمه ابتسامة الواصل من نفسه « أتسلم أيضاً أن محيط كرة الأرض ٢٤,٠٠٠ ميل ؟ أتوسل اليك أن تعرفنى ما هو حجم إلهك ، وأين هو » . ؟

« نعم ، اننا لو عرفناه حقاً ، اذا لعرفنا ان مثواه في قلبينا معاً »

(١) مؤلف من أحرار الفكر ألف كتاباً معروفاً بعنوانه « ما كسبت الانسانية من الالحاد »

(الترجم)

فأجابه المحدث « لا تهزأ بي كما تهزأ بطفل » — ولقد لفظ هذه الكلمات وفي عينيه نظرة المنتصر الظافر . ولكن رجل الدين احتفظ ازاء هذه النظرة بصمت مهيب . وكان لهذا الحديث أثر في نفسى زادنى بفضاً في الاحاد وزهداً فيه .

هبط انجلترا في ذلك الوقت هندی معروف هو « نارايان همشاندرا » وكنت سمعت عنه ككاتب . وكنا أول ما تلاقينا في منزل مس « ماننج » وهي من أعضاء الجمعية الهندية الوطنية . واعتدت أن ألزم الصمت التام كلما زرت بيتها ، فلا أتكلم إلا إذا كلمت . فقدمتني إلى « همشاندرا » ولم يكن يعرف الانجليزية . وكان هندامه عجيباً . بنظرون غليظ صفيق . ومعطف كثير الثنايا متسخ رمادى اللون ، مقصوص على الطريقة الباريسية . ثم انه كان بلا ياقة وبلا رباط رقبة . وعلى رأسه قلنسوة من صوف يتدلى منها زر كبير ، وعلى صدره ترسل لحية كثة طويلة . وكان نحيلاً قصير القامة . وقد شاب وجهه المستدير ندوب الجدري ، واستوى في وسط ذلك الوجه أنف ليس بالدقيق ولا بالغليظ . ومثل هذا الشخص الغريب وملبسه هذا ، كان مرشحاً لأن يزحم في الشوارع جماعات لندن المعروفة بأناتها .

كنا نتقابل كل يوم . واتضح لي أن هناك توافقاً كبيراً بين ما يجول برأسينا من الأفكار وما نعتزم من العمل . وكلانا كان نباتيا . وغالب ما كنا نتعاطى طعام الظهر معاً . وكنت في ذلك الوقت أعيش بسبعة عشر

شلتنا في الأسبوع وأطهو طعامي بنفسى . وكنت أختلف إلى حجرته
آونة بعد أخرى ، كما كان يختلف هو إلى حجرتى . وكنت أطهو على
الطريقة الانكليزية ، ولم يكن يلتذ الا بالطهو على الطريقة الهندية .
كنت أصنع حساء الجزر فكان يرثى لذوقى . وعثر مرة على قليل من
المدس فطبخه وحضر به الى سكنى . فأكلت منه بشوق وشغف ،
ومنذ ذلك اليوم كنا نتبادل ما نطهو . كنت أذهب اليه بألوان طعامى
النادرة ، وكان يحضر الى بألوان طعامه .

كان اسم الكردينال « ماننج » على كل لسان . وكان اعتصاب عمال
أحواض السفن قد قضي عليه بأسرع ما يتصور انسان ، بفضل مساعى
« جون برنز » والكردينال « ماننج » . وحدثت « نارايان همشاندرا »
عن شكر « دزرائيلى » ومدحه بساطة الكردينال : فقال « اذن فلا بد
من أن أرى ذلك الحكيم » .

« انه رجل عظيم القدر ، فكيف تتوقع أن تقابله ؟ »
« ولماذا ؟ انى أعرف كيف يكون ذلك . سأجعلك تكتب له نيابة عنى
فتقول له انى مؤلف وانى أريد أن أهنته شخصياً بعمله الانسانى ، وانى
سأصحبك معى كترجم لآنى لا أعرف الانجليزية » .

فكتبت خطاباً بهذا المعنى . وبعد يومين أو ثلاثة وصلتنا بطاقة من
الكردينال « ماننج » محدداً لنا موعداً . فذهبنا اليه معاً . أما أنا

فارتديت بزة الزيارات. وبقى « نارايان همساندرا » كما هو بمعطفه المعروف
وينظرونه الذى وصفت. وحاولت أن أهرأبه، ولكنه ضحك منى قائلا :-
« أنتم معشر المتمدنين جبناء . ان العطاء لا يعنون بمظاهر الأشخاص
انما ينظرون فى القلوب » -

ودخلنا قصر الكردينال . وما ان أخذنا يجلسنا حتى دخل علينا
« جنتلمان » نحيف طويل القامة وسلم علينا يدأ بيد . وهنا بدأ
« همساندرا » مقالته :

« لا أريد أن أضيع عليك وقتك . فقد سمعت عنك كثيراً وشعرت
واجباً على أن أزورك لأشكرك على ما فعلت من خير للمضربين . ومن
عادنى أن أزور حكماء الدين . ولهذا اضطررت أن أزعجك بزيارتى » . وكان
يتكلم باللغة الكجراتية ، وأنا أترجم الى الانجليزية

فرد عليه الكردينال قائلا :- انى لسرور بزيارتك . وآمل أن
تكون اقامتك فى لندن مواتية ، وأن تتمكن من الاتصال بالقوم هنا .
وليباركك الله . ولما أتم هذه الكلمات وقف وودعنا .

زارنى « همساندرا » مرة فى قميص و « دوقية » ^(١) كما نلبس فى
الهند . ولم تكدرية البيت تفتح له الباب اذ قرعه حتى ارتدت مفروعة
قائلة « رجل به مس يريد ان يراك » .

(١) قطعة طويلة من القماش القطنى ، تطوى حول الوسط وتغطي الجزء
الأسفل من الجسم .

فسارعت الى الباب وكم كانت دهشتي عندما رأيت « همشاندرا » على هذه الصورة وفي هذا الزى ، فأخذت . غير أن وجهه لم ينم عن شيء ، اللهم الا عن تلك الابتسامة الهادئة التي عودناها منه .

« ولكن ألم يهزأ بك الأطفال في الطريق ؟ »

« نعم فعلوا . فلما أهملتهم سكتوا » .

وذهب همشاندرا الى باريس بعد أن أقام في لندن بضعة أشهر . وبدأ يتعلم الفرنسية وحاول أن يترجم منها كتباً . وكنت أعرف من الفرنسية قدرًا مكثني من مراجعة ترجمته ، فأعطانيها لأطالعها . وسرعان ما استبان لي أنها لم تكن ترجمة بل مادة جديدة تماماً .

وأخيرا صمم على أن يزور أمريكا . وبكل صعوبة استطاع أن يحصل على تذكرة سفر في الدرجة الرابعة . ولما كان في أمريكا حوكم لأنه قليل الاحتشام في ملبسه ، لأنه خرج يوماً في قميص ودوقية . وأذكر أنه برى من هذه التهمة .

كان من السهل على أن أزاوّل مهنة المحاماة في إنجلترا . ولكن المراتة كانت غير ميسورة المثال . كنت قد درست القانون كمادة أساسية ، ولكن لم أدرس كيف أتابع الاجراء القانوني . درست مبادئ القانون غير أني لم أدر كيف أطبقها في مزاوله مهنتي .

...

- كانت الشكوك تمزق أحشائي تمزيقاً خلال درس القانون . فأطلعت

بعض أصدقائي على ما أحس من هموم . واقترح أحدهم أن ألبأ إلى « دبابة نايجى » فى طلب العون والنصيحة . وكنت أشعر بأنه ليس من حقى فى شىء أن أزعم مثل هذا الرجل العظيم وأشغله بنفسى ، على الرغم من أنى كنت أحمل إليه كتاب توصية من الهند . وما فاتنى يوماً أن أسمع له خطاباً أجمع القاءه ، بل كنت أذهب إلى المكان وأصغى إليه من ركن فى الحجرة كنت آوى إليه ، ثم أنصرف بعد أن أشبع سمى وبصرى . ومن أجل أن يكون أكثر احتكاكاً بالطلبة أسس جمعية . واعتدت أن أحضر اجتماعاته . وكنت أسر كل السرور بما أرى من اشفاقه على الطلبة ومن احترامهم له . وعلى مدى الزمان استجملت شجاعى وقدمت له كتاب التوصية . فابتدرنى بقوله « يمكنك أن تحضر إلى لتلقى نصائحى فى أى وقت تشاء » ولكنى لم أحاول أن أتنفع قط من وعده هذا بشىء .

ولقد نسيت الآن ان كان صديق هذا بعينه هو الذى قدمنى إلى مستر « فريدريك بنكت » - Mr · Frederiak Pincutt - كان من حزب المحافظين ، ولكن عطفه على الطلبة الهنود كان صافياً من غير شائبة . ولقد سأله الكثيرون من الطلبة النصيح والمساعدة ، وسألته بدورى أن أحظى بموعده ، فلم ييخّل به . ولن أنس ما أعيش هذه المحاورة . فلقد رحب بى كصديق وهزأ بتشاؤمى قائلاً - « كن على

يقين من انه ليس بشيء غير عادى أن يصبح الانسان محامياً ذا مرانة
وحصافة . فالأمانة والعمل ، كافيان لأن يجعلاه يعيش . وليست كل
القضايا مرتبكة الأجزاء كما تتوهم . ولكن عرفنى ماهى معلوماتك
العامة ومطالعائك .

فلما أطلعته على مقدار معرفتى ، وهى ضئيلة ، رأيت انه امتعض .
ولكن امتعاضه لم يدم أكثر من دقيقة ، وسرعان ما أشرق وجهه
بابتسامة مرضية وقال :

« لقد فهمت السر فى اضطرابك . إن معلوماتك العامة ضعيفة .
انك قليل الخبرة بالحياة . والدليل انك لم تقرأ حتى تاريخ بلادك . ان
الحامى يجب أن يدرس الطبيعة البشرية . وواجب على كل هندى أن
يلم بتاريخ الهند . وليس لهذا من علاقة بمزاولة مهنة المحاماة . ولكن
ينبغى لك أن تعرف هذا . واتضح لى انك لم تقرأ شيئاً مما كتب
« كلئى » أو « ملسون » من تاريخ المصيان فى الهند . الجأ الى هذا
فى الحال ، ثم اقرأ كتاباً أو كتابين فى الطبيعة البشرية » .

شعرت بأنى مدين بأ كبير دين لذلك الصديق الذى أمدنى بهنه
المساعدة القيمة . على أن نصيحة « بنكت » ان كانت لم تغدنى فائدة
مباشرة ، فأنى استعصت بصداقته عما خيل الى أن أنال من فائدة بنصحه .
وان وجهه الغمر البسوم ما يزال حياً فى مخيلتى ، وما زلت أعتقد أن

الكفاية العليا ليست ضرورية لكي يكون الانسان محامياً ناجحاً في الحياة . فالأمانة والا كباب على العمل يكفیان . ومذ كان لى فى الحياة نصيب من هاتين الصفتين ، شعرت بأنى حققت قوله . فلما اجتزت الاختبار النهائى فى القانون ، انتهت مدة أقامتى فى المنحلترا .



الفصل الخامس

العودة الى الهند

حان الوقت الذى أغادر فيه إنجلترا ، وحصلت على اجازة بالسفر على الباخرة « آسام » فى شهر يونية ، وكانت الرياح « الموسمية » Monsoon قد أخذت تهب عندما بلغنا بحر العرب وظل الجو عاصفاً طوال سياحتنا الى بومباى ، بعد أن غادرنا ميناء عدن . وأصيب كل من كان على الباخرة بدوار البحر ، غير انى ظلت معافى ، وشعرت بكثير من السرور والمرح اذ كنت أقف على ظهر السفينة أرقب هياج العاصفة وتلاطم الأمواج الثائرة . وكان أكثر المسافرين مصابين بالدوار ، فلم يكن يحضر الى غرفة الطعام للافطار سوى اثنين أو ثلاثة أنا واحد منهم ، ف تقدم لنا عسيده القرطم فى أطباق تتشبت بها فى أحضاننا لثا تفلت منها العسيده وتلوثنا .

كانت العاصفة التى ترسل بأهازيجها فى الخارج ، رمزاً الى العاصفة الثائرة فى نفسى . على أن عاصفة الطبيعة لم تستطع أن تهزنى أو ترتعبنى . وعن هذا عجزت أيضاً العاصفة التى كانت تثور فى نفسى . وكنت أتوقع أن أواجه عاصفة أخرى يثيرها أهل طائفتى . أضف الى ذلك ما كنت أشعر به من عجز عن أن أبدأ حياتى كمحام . ولما كنت بطبعى

مصلحاً ، أخذت اكده نفسى فى التفكير بأية ناحية من نواحي الاصلاح أبدا . ولكن القدر كان يخبألى أكثر مما جال بخاطرى .

حضر أخى الأكبر من « كاثياوار » ليلتقانى على المرفأ . وكان قد تعرف بدكتور « مهتا » وأخيه وزلنا ضيفين فى بيت أخى دكتور « مهتا » بعد أن ألح على أخى إلحاحاً . وبذلك تحولت المعرفة التى بدأت فى انجلترا الى صداقة دائمة بين الأسرتين ، وظللت طوال رحلتى الى وطنى أتطلع الى لقاء أمى . وكنت أجهل أنها لم تعد بعد بين الأحياء لتلتقانى بذراعيها وتضمنى الى صدرها . ولقد ألقى الى أخى بهذا الخبر المحزن ، بعد أن أخفاه عني طوال اقامتى فى انجلترا ، وأراد بذلك أن يكفينى مؤنة الصدمة وأنا فى بلاد أجنبية . والحق أن هذا الخبر كان صدمة عنيفة لى ، ولكنى لم أنطوح مع الحزن والأسى . وكان حزنى على فقد أى أعظم من حزنى على فقد أبى . غير أنى أذكر تماماً أنى لم أتماد فى التعبير عن حزنى الى الحد الذى يخرجنى عن الوقار ، حتى لقد استطعت أن أحبس دموعى ، وأن أمضى فى أعمالى كما لو كنت فى حالتى العادية ، وكان لم يكن فى قلبى حزن عميق .

قدمنى دكتور « مهتا » الى كثير من الأصدقاء ، وكان أحدهم أخاه واسمه « ريفاشنكر جاجثان » وكان تعارفنا مقدمة لصداقة طويلة ظلت طول عمرنا على أحسن حال . ولكنى أريد أن أشير على وجه خاص الى « مقدمة » قدمنى بها دكتور « مهتا » للشاعر ريشاند Raychand

وهو يمت بقرابة الى أخ كبير من اخوة دكتور « مهتا » وأحد المساهمين في اتحاد الصاغة . ولم يكن هذا الشاعر قد تجاوز الخامسة بعد العشرين من عمره . غير أن أول لقاء به أقنعني أنه رجل قويم الأخلاق واسع المعرفة . وكان يلقب « بالعلمة » ^(١) Shalavadhani وحرصني دكتور « مهتا » أن أمتحن قوة ذاكرته ، فأخذت أعيد كلمات مما أعرف من مختلف اللغات الأوربية ، وسألته أن يعيدها ، فأعادها على نفس الترتيب الذي نطقها به . ولقد شعرت بأنى أحسنه على كفايته هذه ، غير أنى لم أؤخذ بها . أما ما أثار إعجابى به بحق ، فسعة معرفته بالكتب المقدسة وأخلاقه العالية ، وتحرقه واشتهاؤه أن يحقق ذاته ويصبح بهامستقلا في أفق جديده . وكان هذا غرضه الذى من أجله يعيش . وكثيراً ما كان يردد « أبياتاً » من شعر « مكتاناد » Muktanad كنت أشعر أنها محفورة على صفحات قلبه : —

« أشعر بأنى فى نعيم عندما « أراه » (الله) فى كل عمل من أعمال يومى . والحق أنه الخيط الذى يضل حياة مكتاناد »
كانت تجارة « ريشاندباى » ^(٢) تقوم بمئات الألوف من الرويات .

(١) الكلمة الهندية Shata - vadhani معناها الشخص الذى يستطيع أن يتذكر أو يعي مائة شئ فى آن واحد ، ويخيل إلى أن كلمة معلية أقرب كلمة عربية يمكن بها التعبير عن هذا المعنى .

(٢) العادة المتبعة فى مقاطعة كوجرات وبعض مقاطعات غيرها فى الهند تقضى بأن يضاف مقطع « باى » أو « بهاي » - Bhai - ومعناه أخ - الى اسم الصديق تكريماً واطهاراً للود .

وكان خبيراً بالآلىء والماس . ولم تكن تعترضه مشكلة من مشاكل العمل الا وتصبح بين يديه سهلة هينة . ولكن كل هذه الأشياء لم تكن المحور الذى تدور من حوله عجلة حياته . أماحياته فكانت تدور عجلتها حول الشهوة فى أن يرى الله وجهاً لوجه . فكنت ترى بين الأشياء الكثيرة المتناثرة على مكتب عمله كتاباً دينياً ويومياته . فكان لدى انتهائه من عمله يتناول الكتاب الدينى أو اليوميات . وأكثر ما نشر من مؤلفات ، لم تخرج عن أنها منتخبات من يومياته . والرجل الذى يستطيع أن يمكف تواً وبمجرد أن يخلص من أعماله التجارية ، على الكتابة فى الأشياء الخفية العميقة فى أغوار النفس ، ليس برجل تاجر على اطلاق القول ، بل رجل يبحث عن الحق بكل معناه . ولقد شهدته مأخوذاً بأبحاثه الروحية وهو مغمور فى لجة عمله التجارى مرات لامرة واحدة . ولم ألاحظ أنه فقد توازنه العقلى فى أى ظرف من الظروف . ولم يكن بيننا أية علاقة دنيوية تربطنا ، ومع هذا فكنت أتبعه اتباع الظل . كنت فى الأكثر محامياً مغموراً . ومع هذا فكنت لا أراه الا ويجرنى الى الكلام فى مسائل ذات صبغة دينية . وعلى الرغم من أنى كنت حتى ذلك الحين ما أزال أتلمس طريق تلمساً ، ولم يكن لى أية لذة فى المناقشات الدينية ، كنت أجد فى حديثه هزة لا أعرف مبعثها . ولقد كان هذا سبباً فى أن أزور الكثيرين من حكماء الدين ، وحاولت أن أقابل الكثيرين من رؤساء الطوائف الدينية . ولكن من غير

أن يترك واحد منهم في نفسى من الأثر ما ترك « ريشانداى » فان كلماته كانت تنفذ رأساً الى أعماق نفسى ، وحازت قوة عقله عندى من الاحترام مالا يقل عن احترامى لجده الأدبى ، وثقتى التى لا يمكن أن يكتنفها شك في أنه سوف لا يغشنى أو يغربنى ، وانه سوف يرشدنى دائماً ويفضى إلى بذات نفسه. ولذا لم أكن أجده غير من ملجأ ، كلما ساورتنى الأزمات الروحية العنيفة

ومع هذا ، وعلى الرغم من عظيم احترامى له ، فانى لم أستطع أن أنزله من قلبى منزلة « النورو » ^(١) - Guru - من نفسى . فان هذه المسكنة ظلت خالية ، وما أزال أبحث عنم يشغلها حتى الآن . على انى أعتقد بصحة النظرية الهندية في « النورو » وقيمته في تحقيق السمو الروحانى . ويخيل الى ان هناك قسطاً عظيماً من الحق في الحكمة القائلة بأن المعرفة الحقيقية غير مستطاعة من غير « غورو » . فان معلماً غير كامل العدة في المسائل الدينية أمر قد يحتمل وقد يتسامح فيه الانسان ، أما في المسائل الروحانية فالأمر على خلاف ذلك . وإن معلماً كاملاً في المسائل الروحانية ، بكل ماتحتمل صفة الكمال من المعانى ، هو دون غيره الذى يصح للانسان أن يتوجه ملكاً على عرش القلب والوجدان . وعلى هذا يجب أن يستمر الانسان يكافح طوال حياته في سبيل بلوغ ذروة

(١) حكيم روحانى . وهو ليس اسم شخص ، بل يطلق على من يتصف بالحكمة الروحانية ويوجه غيره الى الرشد .

الكمال . لأن كل انساب انما يصل الى « الغورو » الذى يستحقه . وكفاحنا فى سبيل الكمال هو حق الانسان الطبيعى . والكمال يحمل فى ثناياه ماينتظر الانسان فى الدنيا من ثواب . أما الباقي بعد ذلك فبين يدي الله . وعلى الرغم من أننى ما استطعت أن أضع « ريشانداى » فى موضع « الغورو » من قلبى ، فانه كان فى كثير من الحالات مساعدى ومرشدى . ان ثلاثة من المحدثين استطاعوا أن يتركوا فى أثرهم الثابت ويختلبونى اختلاباً . ريشانداى بملاقته الشخصية ، وتولستوي بكتابه « ملكوت الله فى نفسك » ^(١) ورسكن بكتابه « حتى هذه النهاية » ^(٢)

عقد أخى على آمالا كباراً . وكانت تحتكم فيه رغبة المال وبعد الصيت وذبوع الاسم . وكان كبير القلب متجاوزاً عن الاخطاء ، وهو فوق ذلك سليم الفطرة ساذجها ، فالتف حوله كثير من الاصدقاء الاوفياء ومن طريقهم حاول أن يزودنى بالقضايا والمنازعات القضائية . وتخيل انى عما قريب سوف أحصل على قدر كاف من المراتة والتقدم فى العمل ، وعلى هذا التقدير أسرف فى نفقات البيت والمعيشة . ومضى يعمل بكل جد ليمهد لى سبيل العمل كمحام أمام المحاكم .

كانت العاصفة التى أثارها زعماء طائفتى قبل سفرى الى انجلترا لازتزال

(1) The kingdom of Gob is within you

(2) Unto this last

ثائرة ، حتى لقد انقسمت الطائفة قسمين ، حكمت احداها توالى رجوعى الى الهند بدخولى مرة أخرى الى حظيرتها ، ومضت الأخرى مستمسكة بقرار فصلى الذى صدر قبل سفرى . فمن أجل أن يرضى أخى الطائفة الأولى ، أخذنى قبل سفرى لراجكوت الى « ناسك » وغسلنى فى النهر المقدس ، ولما وصل الى راجكوت أعد ولية طائفية لتكون بمثابة كفارة عن ذنبى . ولقد كرهت كل هذا وزهدت فيه . ولكن حب أخى لى كان عظيماً ، ولم يكن تعلق به يقل عن حبه لى . لهذا رضيت بأن أعمل كآلة تتحرك كإبريد معبراً أن ارادته قانون على الطاعة له . على أن هذا قد فض اشكال رجوعى الى الطائفة من طريق عملي ، عرف أخى كيف يسلك السبيل اليه .

لم أحاول مطلقاً أن أرجع الى الفريق الذى رفض أن أعود الى الطائفة . وكذلك لم أشعر بأى شعور من الحقد ازاء رؤسائها الذين كانوا سبباً فى اخراجى من حظيرة الطائفة وحالوا دون رجوعى اليها . وفوق هذا ظلمت أحترم قرار الطائفة الذى صدر بفصلى وحرمانى . فقد كان محرماً على أن أتناول الطعام فى بيت أقرب أقاربى حتى أختى وزوجها ، أو أن أتناول شربة ماء فى بيت واحد منهم . وكثيراً ما حاولوا أن يمدوا العدة ليخالفوا ذلك الأمر سراً وعلى غفلة من رجال الطائفة . غير أنى كنت أرفض دائماً أن أعمل فى السر عملاً أخجل من أن آتيه جبهة .

وكان سلوكى واستقامتى سببين فى أن لا يحاول رجال الطائفة ازعاجى بصورة من الصور . بل على الضد من ذلك لم أشهد من كل أفراد الطائفة إلا كل كرم وسخاء ، وعلى الأخص من الفريق الذى ظل على رأيه فى حرمانى وطردى . وزادوا على ذلك أنهم ساعدونى فى عملى من غير أن يتوقعوا منى أية مساعدة أقوم بها من جانبى لصالح الطائفة : ولو أننى حاولت أن أعود الى حظيرة الطائفة وأخذت أدعو الى قبولى مرة أخرى ، أو لو أننى سميت الى شق الطائفة الى شيع وفرق وأن أزيد صدعها اتساعا ، أو هاجت رموس الطائفة وتحديثهم ، فما لا شك فيه أنهم كانوا يثارون منى ويقابلون عملى بمثله . ولو أننى لم أعمل على تهدئة العاصفة ، لو جدت نفسى ، لدى وصولى الى الهند ، فى لجة من التيهيج الطائفى ، كانت بلا ريب تضطرنى أن أتصنع ما ليس فى نفسى ، وأن أنافق وأن أتخذ الرياء قناعاً .

أما علاقتى بزوجى فكانت مازال الى ذلك الحين على غير ما أرغب أن تكون . فان اقامتى فى انجلترا لم تشفى من مرض الغيرة الآكلة . وظللت أبدى شكى فى كل شيء مهما كان تافهاً . وبذلك ظلت كل شهواتى العزيزة على غير مكفية . وصممت على أن تتعلم زوجى القراءة والكتابة وأن أساعدها فى التعليم ، ولكن شهوتى وقفت فى الطريق ، وكان عليها أن تحتمل على غير ارادة منها مسؤولية تقصيرى وكسلى . وحدث مرة أنى تطوحت فى النزق الى حد أنى أرسلتها الى بيت أبيها ، ولم

أقبل أن تعود الى بيتي الا بعد أن أذقتها التعاسة كيف يكون مذاقها ومرارتها . ولقد اقتنعت بعد ذلك بقليل أن هذا كله لم يكن منى الا حقاً واسرافاً .

أخذت أفكر فى اصلاح تعليم الأولاد . فقد كان لاختوتى أولاد ، وكان ابني الذى تركته قبل سفرى الى انجلترا طفلاً قد شب وشارف على الرابعة من عمره . واتجهت رغبتي الى أن أعود هؤلاء الأولاد المكوف على الرياضة الجسمية ليصبحوا أقوياء الأبدان مشدودى الأصلاب قادرين على الاحتمال والصبر ، وأن أتخذ من تجاربى الشخصية اماماً فى تنشئتهم . ولقد شجعتنى على ذلك أخى ، ورجح نجاحى فى هذا الشأن فشلى . على أن عشرة الأولاد كانت من مباحجى التى أسربها ، وما أزال حتى اليوم أعكف على عادة اللعب مع الأولاد والتفكهة بهم ، ومنذ ذلك الحين بدأت أفكر فى أنى ربما أصلح لأن أكون معلماً صالحاً للأولاد .

وظهر لى أن الضرورة تدعو الى اصلاح طرق « التغذية » . وكان الشاى والقهوة كلاهما قد وجد مكاناً فى نظام المنزل . وعمل أخى على أن يكون جواً انجليزياً صرفاً فى البيت استعداداً لقدومى . ولذا أخذت الآنية الخزفية تدخل فى حيز الاستعمال بعد أن كانت تظل محفوظة للمناسبات . وأكملت « اصلاحاتى » ما كان ينقص طريقة استعمال هذه الأشياء من نظام . واستبدلت الشاى والقهوة ، بعصيدة القرطم ومنقوع الكاكو . ولكنهما فى الحقيقة أصبحا اضافيين على الشاى والقهوة .

وكنا نعرف من قبل الأحذية والنعال، وأكملت أنا « التفرنج » باستعمال الأردية الأوروبية .

بدأت النفقات تزيد . وكنا نضيف كل يوم شيئاً جديداً . ولا جرم أننا نجحنا في زيادة النفقات أو كما يقول أهل الهند نجحنا في أن نربط فيلاً أبيض على بابنا ، ولكن كيف يمكن أن نسد نفقاته ؟ وكان البدء بالعمل في الحمامة براجكوت معناه سخرية محققة النتيجة . ذلك لأنني كنت فاقد الخبرة بكل ما يحتاج إليه « الوكيل » ^(١) من المعلومات والاجراءات ، وكنت أطلب عشرة أضعاف الأجر الذي يطلبه « الوكلاء » في الهند . فلم أسقط على صاحب قضية بلغ به النزق ذلك المبلغ الذي يفويه أن يوكلي في دعوى . وحتى لو فرض ووجد ذلك « الانسان » فهل يصح أن أضيف الى جهلي ما يحتمل أن ينتج طغيان النصب والاحتيال من نتائج تضاعف مقدار ديني ومسؤولياتي لهذه الدنيا ؟

ونصحني بعض الأصدقاء أن أهبط « بومباي » عسى أن أحصل على بعض المراتبة العملية أمام المحكمة العليا ، ولأدرس القانون الهندي ولأحصل على ما يمكن أن أحصل عليه من الدعاوى القضائية . فقبلت النصيح وذهبت الى « بومباي » . وفيها استأجرت منزلاً ، وطباخاً لا يقل جهله بالطهو عن جهلي به . وكان « برهانياً » اسمه « رافيشنكر » ولم أكن أعامله معاملة الخادم ، بل كأنه أحد أفراد المنزل . وكان يصب

(١) Vakil - أى المحامي الذي يخرج من مدارس في الحقوق الهند .

الماء على جسمه صبا ، ولكنه لا يستحم أبداً . وكانت ملابسه قدرة على الدوام ، كما كان على جهل مطبق بكل كتب الهند المقدسة . ولكن كيف يتسنى لى أن أحصل على طاه أليق منه ؟ . كنت أقول له : يمكن أن تكون جاهلا بالطهو ، ولكن ألا يصح أن تعرف شيئاً من عبادتك اليومية ؟ فكان يجيبني في بلاهة « عبادتي اليومية ! تذكر ياسيدى ان المحراث هو عبادتنا والنفاس هي مراسمتنا الدينية . اننى انما أعيش اعتماداً على مراحك . فاذا فقدت الأمل فيها فان الزراعة تكون ملجئى وظهيرى » .

هنا بدأت أكون معلماً ألقن « رافيشنكر » ما يحتاج اليه من المعلومات الأولية . وبدأ الوقت يمر بى فى ببطء مسئم ، فأخذت أطهو نصف طعامى . وأجريت الطهو على الطريقة النباتية الانكليزية . فبنيت موقداً ، وبدأت أقوم بخدمة المطبخ مع « رافيشنكر » . وكنت لا أشعر بحاجة الى غذاء بين الوجبات ، وعلى هذا جرى خادى . ولم يبق لى من شكوى أوجهها اليه الا ادمانه القذارة ، حتى انه لم يكن يحفظ الطعام نظيفاً نظافة كافية .

غير اننى لم أستطع المقام فى « بومباى » أكثر من أربعة أشهر أو خمسة لأنه لم يكن عندى من الدخل مايسد النفقات . وبعد أن يئست من أن أحصل على عمل فى « بومباى » غادرتها الى راجكوت ، وعدت الى مكتبى الأول . وهناك بدأت أعمل عملاً معتدل القيمة ، وبلغ متوسط

دخلى ثلاثمائة روية كل شهر ، ولكن هذا لم يكن راجعاً الى مهارتى ، بل الى تأثير أخى . فان شريكه كان ذا خبرة بالأعمال ، فكان يعهد الى بالبسائط ، ويعهد بالشكلات الى كبار المحامين .

وأرى انه من الواجب على أن اعترف اننى بدأت فى ذلك الوقت أفكر فى ضرورة إعادة النظر فى مبدئى الذى جريت عليه من الامتناع عن دفع عمولة (سمسرة) . فقد أنبئت ان الحالة هنا على الضد مما أعهد . والعمولة تدفع فى « بومباى » للسمسرة ، ولكنها فى راجكوت تدفع الى الوكلاء الذين يمونون المحامي بالقضايا . أما القاعدة هنا كما هى فى بومباى ، فتحتم أن يدفع كل المحامين ومن غير استثناء نصيباً مئوياً من أتعابهم سمسرة . أما كلام أخى فى هذا الموضوع فكان مقنعاً . قال لى : « ترى اننى شريك مع وكيل آخر . وانى أميل دائماً أن نعهد اليك بكل القضايا التى نعرف انه فى مقدورك مباشرتها . فاذا رفضت أن تدفع عمولة لشريكى ، فمن المحقق انك تضعنى فى مركز حرج . ولما كنا نشترك معاً فى معيشة واحدة فان أتعابك تعد دخلاً مشتركاً لكلينا ويتالى من ذلك نصيب . ولكن ماذا يكون أمر شريكنا ؟ افرض مثلاً انه عهد بقضية بين يديه الى محام آخر ، فانه ينال منه عمولة » ولقد اقتنعت بهذا الكلام ، وشعرت . بأننى اذا أردت أن أعمل كمحام ، وجب على أن أضحي بمبدئى فى دفع العمولة ، وفى مثل الحالات التى ذكرها أخى على الأقل . هذا ما ساورنى وتردد فى نفسى ، أو بكلام أوضح ، بهذا

خدعت نفسي وغششتها . ولامندوحة لى عن أن أضيف الى هذا اننى لا أذكر انى دفعت عمولة ما فى حالة ما فى غير هذه الحالات التى جرى عليها كلام أخى . وعلى الرغم من أننى جاهدت فى سبيل أن أوفق بين المتقاضين ارضاء لسر مهنتى ، فقد صدمت فى ذلك الحين أول صدمة عنيفة فى حياتى . ولقد سمعت كثيراً من قبل مايعنى الهنود بضابط انجليزى ، ولكنى لم أكن قد وقفت أمام ضابط انكليزى وجهاً لوجه حتى ذلك الحين .

كان أخى سكرتيراً ومستشاراً للمرحوم « راجا بورباندر » وقد عقلت فى عنقه من بعد ذلك تهمة أنه أشار بنصيحة فاسدة لما كان يشغل ذلك المنصب . ووضعت المسألة بين يدى القومسير السياسى ، وكان فى صدره من أخى حفيظة . وكنت أعرف ذلك الضابط لما كنت فى انكلترا ، ومما يمكن أن أصرح به انه كان على صداقة معى . وظن أخى أنه من المستحسن أن ألبأ إلى هذه الصداقة ، فأتى بكلمة طيبة عند الضابط تشفع لأخى بعض الشيء . وظن أخى أنه فى استطاعته أن أوضح حقيقة الأمر للضابط لعل ذلك يخفف من حفيظته نحوه . غير أنى لم أوافق مطلقاً على هذه الفكرة ، لأنى لم أرد أن أجعل لصداقة حصلت مصادفة فى انكلترا ، مدخلا فى مثل هذه الامور . فاذا كان أخى حقيقة قد أخطأ فأنى شيء يفيد تدخلى أو توصيتى ؟ وإذا كان بريئاً ، فما عليه إلا أن يكتب عريضة يشرح فيها حقيقة الامر ويستظر النتيجة . غير أن أخى

لم ترقه هذه النصيحة . وقال لى « انك لا تعرف كاثياوار . وعليك فوق ذلك أن تعرف الدنيا . فليس لشيء هنا قيمة الا الوسائط . ولا يخلق بك وأنت أخى أن تمتنع عن القيام بالواجب ، وأنت قادر على أن تقوه بكلمة طيبة عنى لضابط أنت على صلة به » .

ولقد أصبح من المستحيل على بعد ذلك أن أرفض رأيه ، فذهبت الى الضابط على غير ارادتى وعلى كره منى . وكنت أعرف أنه لا يحق لى أن ألقاه ، ومتحققاً فوق ذلك انى كنت على وشك تمرىض احترامى الشخصى للامتهان . ولكنى على الرغم من هذا ضربت موعداً وذهبت ، وما كدت أذكره بصلتنا فى انكلترا ، حتى أبان لى سريعاً أن « كاثياوار » غير انكلترا ، وان ضابطاً بريطانياً فى اجازته ، غيره وهو قائم بمهام منصبه . ولقد ذكرت الضابط بتلك الصلة التى كانت بيننا ، غير ان تذكيره بها قد جاوز به إلى الخشونة . أما خشونته فكان معناها « انك لم تأت الى هنا اليوم الا لتنتهك هذه الصلة باستغلالها » غير انى رغم ما أدركت من الموقف ، شرحت شكائى . وهنا عيل صبره ، وقال محتدداً — « إن أخاك دسائس ، وانى لا أريد أن أسمع شيئاً فوق ما سمعت . ليس عندى وقت . واذا كان عند أخيك ما يقوله فما عليه الا أن يلجأ الى المراجع المختصة » . وربما كنت أستحق هذا الجواب الحاد . غير ان حب الذات أعمى ، فعدت بعد كل هذا الى روايتى أتمها . وهنا وقف الصاحب وقال لى « يجب أن تذهب الآن » فقلت « ولكن

أرجوك أن تسمع مني . فلم يزد كلامي هذا الا غضباً . فنأدى خادمه وأمره أن يدلني على طريق الباب . وكنت لا أزال متردداً عند ما أقبل الخادم ، ووضع يديه فوق كتفي ودفعني خارج الباب .

وما كدت أستقر في مكاني حتى كتبت مذكرة معناها « انك اهنتني ، وتهجمت على من طريق خادمك . فاذا لم تقم بما يصلح هذا الأمر ، اضطرت أن أرفع أمري الى القضاء »

ولكن سرعان ما تلقيت منه الجواب على يد حاجبه وقد جاء فيه .

« لقد كنت بذيثا معي . فقد أمرتك بالذهاب وأنت امتنعت . فلم يكن لي من بد ازاء امتناعك من أن آمر خادمي بأن يريك طريق الباب . ولما سألك أن تترك مكتبي لم ترد أن تفعل ذلك ، فما كان لديه من وسيلة أخرى الا أن يستعمل معك من القوة قدر ما يكفي لاجراجك . وانك حري أن ترفع أمرك الى أية جهة أردت . »

عدت الى المنزل وفي جيبي هذا الرد ، ذليلاً خافض الرأس ، وقصصت على أخي كل ما حصل ، فغزن . ولكن لم يكن يدري طريقاً يسليني به عما حدث . وكثيراً ما تحدث عن هذا الأمر الى أصدقائه من الوكلاء ، لأنني لم أكن أعرف الطريق الرسمي لقضاة الصاحب ، وحدث أن السر « فيروز شاه مهتا » كان في راجكوت في ذلك الوقت ، وقد قدم من بومباي لمباشرة قضية ما . ولكن كيف السبيل لحام

صغير حديث العهد بالمهنة ، أن يقابله ويحظى بقلياه ؟ ولكن أرسلت إليه أوراق قضيتي من طريق الوكيل الذي دعاه الى راجكوت وسألته الرأي في الموضوع . فقال للوكيل « أفهم غاندى ان مثل هذه الأشياء أمر عادى هنا . انه هبط من إنجلترا قريباً ولا يزال دمه حامياً . وانه لا يعرف الضابط الانجليزى . فاذا كان يربح من مهنته شيئاً هنا ، واذا كان الزمان يؤاتيه بالحاجات ، فقل له ان الأولى به أن يمزق مذكرته وأن يطلع الاهانة . فانه لن يربح شيئاً من مقاضاة الصاحب ، بل على الضد من ذلك تماماً يرجح كثيراً أن يكون في ذلك هدم مستقبله . وعليك أن تعرفه عنى أن عليه أن يعرف من الدنيا أكثر مما عرف حتى الآن » .

كان لهذه النصيحة مرارة السم في فمى ، ولكن لم يكن لى مندوحة من أن أبتلعها ، كما ابتلعت الاهانة ، ولكنى على كل حال انتفعت بها اذ عاهدت نفسى على « أن لا أضعها في مثل هذا الموضع الدقيق مرة أخرى وأن لا أحاول أن أستغل الصداقة هذا الاستغلال ثانية » . ومنذ ذلك الوقت لم أرتكب جريمة الحنث بعهدى والرجوع عن تصميمى بهذا . غير ان هذه الصدمة الأليمة غيرت مجرى حياتى تغييراً كلياً . ولا شبهة مطلقاً فى انى كنت مخطئاً اذ أقدمت على الذهاب الى القومسير السياسى . غير أن حنقه وقلة صبره وغضبه ، جميعها كانت لا تتناسب مع خطئى . ولم يكن فى الأمر ما يوجب طردى . لانى كنت سوف لا أستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق . ولكن

الواقع انه لم يستطع أن يحتمل منى كلاماً في الموضوع . وكان في استطاعه أن يطلب منى في أدب أن أذهب . ولكن القوة الفاشمة أسكرته الى درجة غير كفيلة بالانزان . ولقد علمت فيما بعد أن الصبر أبعد الأشياء عن فضائله .

أما اذا عزمت على أن أزاو مهنتي في ذلك المكان فما لا شك فيه أن أكثر قضايى سوف تنظر أمام محاكمه . وكان مما يخرج عن طوق أن أتوصل الى ترضيته والتفاهم معه ، كما انى لم أكن على استعداد لأن أتلف اليه . ولما كنت قد هددت بأن أقاضيه ، صعب على أن أظل ساكناً . غير انى سرعان ما بدأت أفهم شيئاً من سياسة هذه المقاطعة . فان « كاثياوار » ليست الا كتلة مكونة من ولايات صغيرة . وكانت الدسائس بين الولايات ، والمؤامرات بين الضباط ليرقى كل منهم درجات القوة والسلطان الواسع ، القاعدة العامة في النظام الحكومى . وكان الأمراء تحت رحمة غيرهم . ولم يكن فى وسعهم الا أن يلقوا بسمعهم الى المتزلفين . ولقد شعرت بأن هذا الجو مشبع بالسموم ، وكيف أبقي بعيداً عن التأثير به ؟ كانت هذه مشكلة بذاتها . وما لبثت غير قليل حتى شعرت بأننى مكتئب خائر النفس ولحظ فى أخى هذا الأمر . وشعر كلانا بأننى اذا استطعت أن أجد عملاً بعيداً عن هذا المكان ، استطعت أن أفلت من جو الدسائس والوشايات . ومن غير أن أجا الى وسائل غير شريفة ، لم يكن فى وسعى أن أشغل منصباً ادارياً أو قضائياً .

ناهيك بمشكلكتى مع القومسير السياسى .

كانت « بورباندر » اذ ذاك تحت الادارة الحكومية ، وكنت هبطتها لأسعى فى أن أنال للأمير حقوقا أوسع من الحقوق التى يتمتع بها . وكذلك كنت أرغب فى أن أرى المدير لأناقشه فى مسألة أجور الأراضى وارتفاع القيمة التى تجبى من المستأجرين . غير أنى وجدت هذا الضابط المدير ، ولو انه هندى ، أشنع من صاحب أخلاقا وأشد نزقا . ولقد فشلت فى هذا الأمر فشلا عظيما ، حتى لقد خيل الى أن العدل يمنع عن زبائنى عمداً ، وبذلك أعجز عن أن أصل اليه . وكل ما كان فى مستطاعى أن أعمله لا يتعدى أن أعرض أمري أمام القومسير السياسى أو الحاكم الذى لم يكن من شأنه الا أن يرفض النظر فى شكواى قائلا : « ليس من شأننا أن نتدخل فى الأمر » . أما اذا كان هنالك قانون أو نظام يحدد مثل هذه القرارات ، فلا شك فى أن يكون لنا شأن . ولكن ماذا يكون العمل مادامت ادارة صاحب هى القانون ؟ غير أنى شعرت فى النهاية اننى ساخط مغیظ ، ورغبت كل الرغبة فى أن أبعد عن جو الدسائس جهد ما أستطيع .

فى هذا الوقت كتبت احدى المؤسسات التجارية فى « بورباندر » الى أخى تعرض عليه الآتى :

« لنا أعمال فى جنوب افريقية ، ومؤسسة من أكبر المؤسسات . وقد اشتبكنا فى قضية تبلغ قيمتها أربعين ألفاً من الجنيهات الانجليزية .

ومضى على الدعوى زمن طويل وما تزال منظورة ، واستخدمنا فيها
أمهر الوكلاء وأشهر المحامين . فاذا سمحت بأن ترسل أخاك الى جنوب
افريقية فانه سوف يفيدنا ويفيد نفسه . وسوف يستطيع ، على ما نرى ،
أن يزودنا بنصائح ثمينة ، فضلا عن أنه سيرى بلادا جديدة ويفشى
علاقات مع أشخاص لم يكن يعرفهم » . وبعد مناقشة قبلت العرض
من غير أية مساومة وأخذت أستعد للذهاب الى جنوب افريقية .



الفصل السادس

في ناتال

كان « عبد الله شيث » ينتظرني في « دوربان » Durban ووصلت السفينة الى المرفأ . فلاحظت الناس يصعدون الى الباخرة ليلاقوا أصدقاءهم ، كما لاحظت أن الهنود غير محترمين . ولم يفتنى أن أرى طابعا من الانحطاط والوضاعة ظاهراً في الطريقة التي عومل بها « عبد الله شيث » من الذين كانوا يعرفونه على ظهر الباخرة . غير أن « عبد الله شيث » كان قد ألف هذه المعاملة . والذين لاحظوا وجودى منهم

لم يتعففوا عن أن يرمقوني بنظرات الاحتقار المزوجة بالتمجب والدهشة . فان لباسى كان يميزنى عن بقية الهنود . فقد كنت ألبس بذلة « فروك » وعمامة صغيرة .

وكان « عبد الله شيث » غير مثقف ، ولكنه كان واسع التجربة كبير الخبرة . ويمتاز بعقل حاد مدرك ، وكان يعرف فى نفسه هذه الكفاية . وبخبرته استطاع أن يلتقط من اللغة الانجليزية قدراً يمكنه من التكلم بها . فساعدته هذا فى أعماله ، سواء فى علاقاته الكثيرة بمديرى البنوك والتجار الأوربيين ، أم فى شرح مشاكله لمستشاريه . وكان الهنود يمجّدونه ويحترّمونه ، كما كانت مؤسسته أكبر المؤسسات الهندية ، أو على الأقل من أكبرها . ولكن بجانب كل هذه المزايا كانت فيه نقيصة واحدة . فانه كان بطبعه مرتاباً كثير الشك .

وله بالاسلام شغف يدفعه الى الفخريه ، ويجعله كثير الميل الى المناقشة فى الفلسفة الاسلاميه ، وعلى الرغم من أنه كان جاهلاً باللغة العربية ، كان الملم بالقرآن والأدب الاسلامى على وجه عام لا بأس به . أما الأمثال فكان فيها كنزاً لا ينفى ولا ينضب ، يلجأ الى ذاكرته فتواتيه بها عن غير جهد . ولقد زودتني علاقتي به بكثير من المعلومات العملية عن الاسلام . ولما زادت ألفتنا ، كنا نغضى فى مناقشات طويلة وأبحاث واسعة فى الأمور الدينية .

وفى اليوم الثانى أو الثالث من وصولى صحبنى لأرى محكمة «دوربان» وهناك قدمنى لكثير من الناس وأجلسنى الى جانب محاميه . فظل

الحاكم ينظر الى ويمجدنى بعينيهِ ، ثم أمرنى بأن أخلع عمامتى فرفضت أن أصدع بما أمرت وركت المحكمة فى الحال . ووقع فى روعى أن الجلاد والصراع ينتظرانى حيث حلت أيضاً . ولقد أبان لى « عبد الله شيث » عن السبب الذى من أجله يطلب إلى بعض الهنود أن يخلعوا عمامتهم . فالذين يرتدون الملابس الاسلامية يمكن أن يسمح لهم بوضع عمامتهم ، أما غيرهم فمن الواجب أن يخلعوها اذا دخلوا المحكمة .

ويقضى على الواجب أن أشرح هنا بعض التفاصيل لأظهر السبب فى هذا التفضيل . فى خلال اليومين أو الثلاثة التى قضيتها قبل ذهابى الى المحكمة لاحظت أن الهنود منقسمون الى شيع . احداها شيعة التجار المسلمين ، ويدعون أنفسهم « أعراباً » والثانية شيعة الهندوكيين ، والثالثة شيعة كتاب « البارسى » (Parsi) . أما الكتاب الهندوكيون ، فلم يكونوا الى هؤلاء ولا الى أولئك ، ما لم تتصل مصالحهم « بالاعراب » . أما الكتاب البارسيون ، فيدعون انهم فارسيون أى أعجم . وللشيع الثلاث روابط وعلاقات تصل بينهم . ولكن أكبر شيعة منهم كانت تتكون من رجال التميل Tamil والتيلوجو Telugu وسكان شمالى الهند الذين وفدوا الى جنوبى افريقية بمقتضى عقود حررت معهم والعمال الأحرار أى الذين يشتغلون بغير عقود . أما الذين وفدوا بعقود فقد هبطوا على ناآال يعملون فيها خمس سنوات . أما الشيع الثلاث الآخر فلم يكن لهم من عمل الا من طريق الاتصال بهؤلاء ويدعونهم

الانجليز « الأجراء » Coolie وهي كلمة هندية الأصل ومعناها حال
أوشيال . وقد تنصرف الى الأجير أو العامل ، فصرفها الانجليز الى
الهنود اطلاقاً .

ولما كانت الأغلبية المظلمى من الهنود فى جنوبى افريقية من طائفة
الأجراء ، جرت العادة أن يدعى الهنود جميعاً أجراء - Coolie - أو
« سامى » Sammi بلا تمييز بين الأقدار ولا المهن . وكلمة « سامى »
محرفة عن « سوامى » Swami وهو مقطع يضاف الى نهاية الأسماء
عند قبيلة « التميل » فى الهند .

لهذا عرفت فى جنوبى إفريقيا بأنى محام من الأجراء Coolie
Barrister كما كان يعرف التجار بأنهم تجار الأجراء Coolie
merchants وبهذا نسى المعنى الذى تدل عليه كلمة كولى Coolie
وأطلقت لتكون اسماً عاماً على كل هندى .

أما التجار المسلمون فكانوا يحاولون أن يتخلصوا من شناعة الصفة التى
جرت على الهنود مجرى أسماء الأعلام ، فيقول أحدهم اذا ما دعى بهذا
الاسم « اننى لست أجيراً وإنما انا عربى » أو يقول « اننى غير أجير ،
وإنما أنا تاجر » فإذا كان الرجل الانجليزى الذى بدور معه الحديث فيه
شئ من الأدب أو حسن الذوق ، اعتذر اليه .

ولوضع العمامة على الرأس شأن كبير فى مثل الحالات التى قامت
اذا ذاك فى جنوبى إفريقيا . فان خلع العمامة الهندية من فوق الرأس

ليس له من معنى الا انك تصبر على اهانة أو تبتلع مسبة رميت بها . ولهذا فكرت في أن أودع عمامتي الوداع الأخير وأن ألبس قبعة انجليزية تحميني السب والاهانة ، وتوفر على كثيراً من المنازعات . ولكن « عبد الله شيث » لم يوافق على الفكرة وقال « انك لو أتيت شيئاً من هذا كان له أسوأ الأثر ، لأنك ستتحدى أولئك الذين يدعون إلى لبس العمامة الهندية ويحترمون لبسها . والعمامة تستوى على رأسك جيداً ، فاذا لبست قبعة ظن الناس انك « جرسوناً » (خادم في مشرب) .

كان في هذه النصيحة قدر من الحكمة والوطنية ، ولكن كان فيها ليجانب هذا أيضاً قدر من الجود وضيق الفكر . أما وجه الحكمة فيها فكان ظاهراً . وما كان ليحتم على الاستمرار على لبس العمامة لو لم يدعه الى ذلك داعي الوطنية . أما اشارته الى أن الناس قد يظنونني « جرسوناً » ففيها جود . وكان من بين الهنود ذوى العقود والمتعاقدين على العمل ، هندوكيون ومسلمون ومسيحيون . أما المسيحيون فهم أبناء أولئك الذين اعتنقوا الدين المسيحي . ولقد كان عددهم كبيراً حتى سنة ١٨٩٣ . وكانوا يلبسون الزى الانجليزى ويكسبون عيشهم من العمل « كجرسونات » في الفنادق . ولهذا الطائفة أشار « عبد الله شيث » لما نصحتني بأن أبقى على عمامتي . وكان الهنود يرون أن العمل في الفنادق أمر مبتذل مذموم .

على كل حال اذ عنت لنصيحة «عبد الله شيث». ولكنى كتبت الى الصحف شارحاً ما وقع لى ، ودافعت عن ضرورة لبس العمامة في قاعة المحكمة . ولقد أخذ الأمر شأنًا كبيراً في الصحف وكان مثار مناقشات انتهى الأمر منها بأنى « زائر غير مرغوب فيه » . وكانت هذه الحادثة سبباً في الاعلان عنى فأصبحت معروفاً على غير ما كنت أنتظر في كل نواحي إفريقية الحنوية في خلال بضعة أيام . وانشق الرأى ، وفريق يناصرني ، وفريق ينتقد «نزقى» مر الانتقاد .

في اليوم السابع أو الثامن من مقامى بجنوبى إفريقية ، غادرت « دوربان » . وأخذت تذكرة بالدرجة الأولى لدى السفر . وكانت العادة أن يدفع المسافر في الدرجة الأولى خمسة شلنات اذا أراد أن ينام في عربة النوم . وحتم على عبد الله شيث أن أوجر فراشاً . ولكن عنادى وخيلائى ورغبتي في الاقتصاد ، كل هذه جعلتنى أرفض ما أشار به على . فقال لى « تصور أولاً ان هذه البلاد غير الهند . ولله الحمد لدينا مايكفى نفقاتنا . فأرجوك أن لا تحرم نفسك من شئ أنت في حاجة اليه » .

ووصل القطار الى « مرتزبرج » عاصمة « ناآل » في الساعة التاسعة مساء وكانت حجرات النوم تهيأ في هذه المحطة ، فتقدم خادم وسألنى اذا كنت محتاجاً لفراش ؟ فأجيبته سلبياً ، وانصرف . ولكن هبط على مسافر وأخذ ينظر في طولاً وعرضاً . ورأى اننى من ذوى « الألوان »

Coloured man فأزعجه هذا الأمر ، وخرج ثم عاد ومعه موظف أو موظفان من عمال السكة الحديد . ولكن ظل الكل صابئين هنيهة ، ثم قرب منى أحد الموظفين وقال لى : « قم من هنا . انك يجب أن تذهب الى عربة السبنسة . ^(١) »

« ولكن مى تذكرة فى الدرجة الأولى »

فرد على الموظف الآخر قائلاً : « هذا لا يهم . انى آمرك بأن تذهب الى السبنسة » .

— « لقد سمح لى أن أسافر فى هذا المحل من «دوربان» وأنا مصمم على أن أظل به حتى نهاية سفرى »

— « انك سوف لا تظل به ، بل يجب عليك أن تغادره ، وإلا فاقى سأضطر الى الاستعانة بأحد كونسبتلات البوليس ليخرجك من هنا »
— « لا بأس . افعل . وانى أرفض أن أخرج من هنا مختاراً »

وجاء الكونسبتل ، فأمسك ييدى وجذبني خارج العربا . وأخرج منى أمتعى الى الرصيف . ولكنى رفضت أن أذهب الى حيث أمرت وأزف ميعاد السفر ، وأطلق البخار للقطار العنان . فذهبت الى حجرة الانتظار ، بعد ان أخذت معى حقيبة صغيرة تعودت أن أحملها فى يدى وتركت بقية أمتعى حيث كانت . بعد ان عهدت بها الى موظفى سكة الحديد .

(١) السبنسة كلمة نطقها فى مصر على كلمة - van - وهى عربا تكون فى مؤخرة القطار وفيها عامل يقوم ببعض أعمال ضرورية فى حالات خاصة .

وكنّا في فصل الشتاء، والشتاء في الأماكن المرتفعة في جنوب
افريقية شديد البرد. ومدينة « مرتزيج » على ارتفاع كبير، فكان
البرد زمهريراً. وكان معطفي في الحقيقة الكبيرة، وخشيت بل خفت
أن أسأل عنها لئلا تنالني اهانة أخرى، فجلست اهتز من البرد وفرائصي
ترتعد. ولم يكن في الحجرة نور، بل كانت في ظلام دامس. وفي منتصف
الليل جاء مسافر وحاول أن يشتبك معي في الكلام، ولكنني كنت في
حالة يتعذر على فيها أن أجد من نفسي ميلاً للحديث.

وبدأت أفكر في واجبي في مثل هذا الظرف وتلقاء هذه العاملة. أوجب
على أن أصارع وأجاد في سبيل التمتع بحقوقى، أم أرجع إلى الهند؟ أم
أتابع السفر إلى « بريتوريا » ثم أعود إلى الهند بعد أن أفرغ من قضيتي؟
وكنيت أعتقد أن من الجين أن أرجع إلى الهند قبل أن أقوم بكل
الزماماتي وواجباتي. أما المتاعب التي تعرضت لها حتى الآن فتافهة ولا
قيمة لها. وهي في حقيقتها ليست إلا عرضاً بسيطاً من أعراض ذلك
المرض الذي يدعونه مرض « اللون » فلا بد لي إذن من أن أحاول
استئصال شأفة هذا المرض وأن أقامى في سبيل ذلك المتاعب والآلام.

وعلى هذا صممت أن أركب القطار التالى إلى « بريتوريا ». وفي
الصباح أرسلت برقية مطولة إلى مدير السكك الحديدية العام، وأخرى
إلى « عبد الله شيث » الذى قابل مدير السكة الحديدية بمجرد أن وقعت

البرقية في يده . ولقد برر مدير سكة الحديد مسلك الموظفين ، ولكنه أخبره بأنه أبدى تعليقاته الى ناظر محطة « مرتزرج » بأن ينظر في أمر وصولي الى حيث أريد آمنة . وأرسل عبد الله شيث الى التجار الهنود في مرتزرج وغيرهم من أصدقائه في أما كن أخرى يوصيهم بي خيراً ! وحضر التجار ليلاقوني في المحطة ، وأخذوا يطيبون خاطري ويروون الحوادث التي وقعت لهم ، ويظهرون لي أن ما وقع ليس بشيء غير عادي . وأخبروني أيضاً أن الهنود الذين يسافرون في الدرجتين الأولى والثانية يجب أن يوطنوا النفس على أن يلاقوا من عمال سكة الحديد ومن المسافرين « البيض » مثل هذه المعاملة ، وقضيت اليوم اسمع لثل هذه الروايات المحزنة . وأقبل قطار المساء . فاشتريت في « مرتزرج » تذكرة « النوم » التي رفضتها في « دوربان » . ووصل القطار الى « شارلستون » في الصباح . ولم يكن في تلك الأيام مواصلات بحارية بين « شارلستون » و « جوهنزبرج » بل كانت المواصلات تنحصر في النقل على عربات كبيرة تقضى الليل في بلدة « ستندرتون » أثناء السفر ؛ وكان معنى تذكرة تبيح لي السفر في هذه العربة ، ولم تكن قد ألغيت قانوناً على الرغم من تخلفي يوماً بأكمله في بلدة « مرتزرج » . وفضلاً عن هذا كان « عبد الله شيث » قد أرسل برقية الى متعهد العربات في « شارلستون » ليسهل لي طريق السفر .

غیر أن المتعهد كان يحاول أن يستند الى أية حجة يمنعني بها عن ركوب العربة لما عرف أنني « أجنبي » فقال لي « ان تذكريك ألفتيت » فرددت عليه بما يجب أن يقال في مثل هذه الظروف . ولم يكن السبب في عدم سماحه لي بالسفر في العربة هو عدم وجود الفراغ ، بل كان سبباً آخر يحاول أن يخفيه . والمتبع في مثل هذه الأسفار أن يجلس المسافرون داخل العربة ، ولكني لما كنت معتبراً من « الاجراء » وأني أجنبي ، رأى المراقب الذي يرافق المسافرين « البيض » أن أجلس بجوار السائق . وكانت هناك مقاعد على جانبي العربة من الخارج والواجب على هذا المراقب أن يجلس في أحدها ، ولكنه جلس داخل العربة وأعطاني مقعده . واعتقدت أن هذا مجرد إخلال بالنظام وخروج على العدل ، فضلاً عما فيه من اهانة واذلال . ولكني فضلت أن أذعن ، لأنه لم يكن في استطاعتي أن أقترح طريقاً إلى داخل العربة ، وإذا احتججت سافرت العربة وتركنتي حيث أنا . ومعنى هذا أني أخسر يوماً آخر ، ولا يعلم إلا الله ما كان يحدث في ذلك اليوم . وعلى الرغم مما كنت أشعر به في نفسي من غيظ وحنق ، جلست باحتراس لي جانب السائق .

حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وصلت بنا العربة إلى « برديكوت » وأراد المراقب أن يجلس حيث كنت أجلس لأنه أراد أن يدخن . ولعله كان يشعر أنه في حاجة إلى الهواء الطلق . فأخذ من السائق قطعة قندرة من الخيش وفرشها على المشى وناداني قائلاً ... « أنت يا هذا . اجلس

هنا لأنى أريد أن أجلس إلى جانب السائق . وكانت هذه الالهانة أكثر مما يمكن أن أحتمل ، ولكنى قلت له فى خوف ورعدة - « إنك بنفسك الذى أجلسنى هنا ، على الرغم أن من حق أن أجلس داخل العرببة . غير أنى احتملت هذه الالهانة . والآن لأنك تريد أن تجلس فى الخارج لتدخن ، تريدنى أن أجلس عند قدميك . وانى لأرفض أن أذعن لهذا ما لم آخذ مقعدى داخل العرببة . »

وإذ كنت أجهد نفسى جهداً لأخرج هذه الكلمات ، تقدم الرجل نحوى وبدأ يصفعنى على أذنى صفعاً مؤلماً شديداً ، وأمسك بذراعى وحاول أن يجذبى إليه فتشبثت بأجزاء من العرببة وصممت على أن أظل متشبثاً بها ، حتى ولو كسر راسى ، وكان المسافرون يشهدون هذا المنظر ، والرجل يجذبى اليه ويعمل جهده ليزحزحنى من مكانى ، وأنا متشبث به . وكان قوياً بقدر ما كنت ضعيفاً . وفى النهاية أخذت الرحمة تعمل فى قلوب بعض المسافرين فنادوا الرجل قائلين « اتركه أيها الرجل . انه على حق . فانه إذا لم يستطع أن يجلس حيث أردت ، فاتركه يجلس معنا » فأجابهم المراقب « لا تخافوا » . ولكن الظاهر أنه شعر بأنه هزم ، فامتنع عن ضربى ، وترك ذراعى متجهماً ، وأمر الخادم « الهوتنتوتى » أن يشغل المقعد الذى كان هياً لى ، وأخذ هو مقعده .

وأخذ المسافرون أمكنتهم ، وأعطيت اشارة السير ، وانطلقت العرببة فى مسيرها وكان قلبى يبدق دقات سريعة قوية ، حتى لقد خيل إلى أنه

يكون من العجب إذا أنا وصلت إلى حيث كنت أريد وفي نفس يتردد .
 وكان الرجل يمدحني بنظرة غضب بين آونة وأخرى مشيراً إلى يده
 في تهديد قاتل . « خذ حذرك . فاني إذا وصلت إلى « ستندرتون »
 فسأريك عاقبة عنادك » . ولكن ظلمات صامتة أدعوا الله أن يكون في عوني .
 ولما خيم الظلام كنافي « ستندرتون » ولم أك أدري وجوهاً هندية
 حتى صعدت من أعماق رثتي تهدة طويلة . وبمجرد أن نزلت من العربية
 قال لي هؤلاء الأصدقاء نحن في انتظارك لرافقك إلى محل تجارة
 « عيسى شيث » فقد أرسل إلينا « دادا عبد الله » برقية بهذا المعنى .
 فاجتبطت ورافقتهم إلى محل « شيث عيسى حاجي سومر » والتفت من
 حولى كتاب المحل ، وقصصت عليهم كل ما حدث لي فخرنوا ، ولكنهم
 انطلقوا يمشون على سمى ما وقع لكل منهم من التجارب المريرة .
 وأردت أن أخبر مدير شركة العربات بكل ما وقع لي . فكتبت إليه
 خطاباً ، قصصت فيه كل ما حصل تماماً ، ووجهت انتباهه إلى التهديد
 الذى هددنى به العامل ، وكذلك طلبت منه تأكيده بأن يعطينى مكاناً
 مع بقية المسافرين داخل العربية عند ما تستأنف السفر صبيحة الغد ،
 فكان جواب المدير ما يلي :

« إن العربية التى ستغادر ستندرتون أكبر من العربية الأولى .
 ورجالها غير رجال تلك . والعامل المشكو منه سيكون بعيداً عن العمل
 غداً ، وسيخصص لك محل مع بقية المسافرين فكان فى جوابه

هذا بعض الترضية . ولم يكن لدى أية فكرة في مقاضاة الرجل الذي ضربني وبذلك انتهى الأمر عند هذا الحد .

وفي الصباح رافقني رجال « عيسى شيث » إلى العربية ، وأخذت فيها مكانا لائقا ، ثم وصلت « جوهنز برج » في المساء آمنا .

إن ستندرتون قرية صغيرة ، وجوهنز برج بلدة كبيرة . وكان عبد الله شيث قد أبق إلى « جوهنز برج » أيضا ، وأعطاني اسم « محمد قاسم قر الدين » وعنوان محله التجاري . وحضر إلى خادمه ليتلقاني في موقف العربات . ولكن لم أره ، كما أنه لم يعرفني . فعزمت على الذهاب إلى فندق . وركبت عربية وأمرت السائق أن يذهب بي إلى « الجرانند أوتيل ناسيونال » وقابلت مدير الفندق وسألته عن حجرة . فأخذ ينظر في هنيهة ، وقال في أدب - « متأسف ليس عندنا مكان » فعدت إلى العربية وأمرت السائق أن يذهب إلى محل تجارة محمد قاسم قر الدين . وهناك وجدت عبد الغنى شيث يرتقب وصولي ، فتلقاني بكل ترحاب ، ومضى يضحك مما حدث لي في الفندق قائلا « وهل تنتظر أنه يمكن أن تقبل في الفندق ؟ »

- ولم لا .

- « ستعرف السبب بعد أن تقيم هنا بضعة أيام . اننا لا نستطيع أن نعيش فوق هذه الأرض ما لم نتحمل وتسامح . وفي سبيل جمع المال تتغاضى عن السباب - هكذا نحن هنا »

وأخذ يقص على سمي مختلف أنواع الصواب والمشبقات التي يعانها الهنود في جنوبي أفريقية .

وبعد أن مضى على مقامى زمن قال لى - « إن هذه البلاد ليست بالديار التي تليق بأمثالك . وأنتك سوف تمضي إلى بريتوريا غداً . فعليك أن تسافر في الدرجة الثالثة . فإن مجرى الأحوال في الترنسفال أشنع منه في الناتال . فإن تذاكر الدرجة الأولى والثانية لا تصرف بتاتاً للهنود . وإن كل مجهود في سبيل تغيير هذا النظام يذهب هباء . ولقد أرسلنا مرات عديدة من ينوب عنا للكلام في هذا الشأن ، ولكن رجالنا على وجه عام يكرهون السفر في الدرجتين الأولى والثانية »

فأرسلت في طلب لوائح سكة حديد وقرأتها بعناية . وبعد الدرس وجدت فيها مخرجاً . فإن اللغة القديمة التي كتبت بها اللوائح لم تكن مضبوطة ولا بينة الحدود تماماً . واللغة التي كتبت بها لوائح سكة الحديد كانت أحط من تلك بمراحل .

فقلت لشيث « أريد أن أسافر في الدرجة الأولى . فإذا لم أستطع فاني أفضل أن أركب عربة إلى بريتوريا ، وهي لا تبعد أكثر من سبعة وثلاثين ميلاً »

فأرشدني شيث عبد الغنى عما يقتضى هذا الأمر من ضياع الوقت وزيادة النفقات . ولكنه وافق على أن أسافر في الدرجة الأولى ، وأرسلنا بذلك مذكرة إلى ناظر المحطة ، ذكرت فيها أني محام وأني أسافر

دائماً في الدرجة الأولى ، وأن عملي يقضى على بأن أصل إلى بريتوريا في أقرب فرصة ممكنة . ولم يكن لدى من الوقت ما يسمح بانتظار جوابه ، وفضلت أن ألتقاه منه شخصياً في المحطة ، وكان لي غرض من تلقي جوابه بشخصي خفية عن أصدقائي . فاذا كان ناظر المحطة سيرسل إلى رداً مكتوباً فمن المؤكد أنه سيقول « لا » مادام مقتنعاً بأن الشخص المسافر لا يزيد عن حمام من « الاجراء » فيكون من الأوفق إذن أن أظهر أمامه في بزى الانجليزية ، وأن أتكلم اليه ، فربما أحمله على أن يرضى بصرف تذكرة في الدرجة الأولى . ولذا ذهبت إلى المحطة في بذلة « فروك » ورباط رقبة من الطراز الأول ، وأبرزت جنيتها انجليزياً ليأخذ منه أجرة السفر ، وسألته أن يعطيني تذكرة في الدرجة الأولى .

- فسألني - « هل أرسلت إلى هذه الرقعة ؟ »

- نعم . واني لأكون ممنوناً إذا سمحت لي بتذكرة ، فان واجبي يقضي على أن أصل إلى بريتوريا اليوم .

فتبسم في حنو وقال « إني لست من أهل الترنسفال ، بل هولاندي . ولذا أقدر شعورك وأمنحك عطف . وسأعطيك التذكرة التي تطلبها » ولكن على شرط أنه إذا أراد مراقب القطار أن ينقلك إلى الدرجة الثالثة ، فلا تحملني أية مسؤولية في الأمر . وأعني بذلك أنك لا تقاضى الشركة . وآمل أن تصل سالماً فاني أراك سيداً كريماً » .

وصرف التذكرة ، فشكرته وأكدت له أني سأرعى عهدي معه .

وجاء شيث عبد الغنى ليودعنى على المحطة . ولقد أبدى أقصى الدهشة عندما عرف أنى تحصلت على تذكرة فى الدرجة الأولى ، ولكنه حذرنى قائلاً - « سأكون بلا شك شاكراً للعناية إذا أنت وصلت بريتوريا سالماً . وأخشى أن لا يتركك مراقب القطار آمناً فى الدرجة الأولى . وإذا تركت هو ، فإن المسافرين سوف لا يتركونك » .

وأخذت مكانى فى الدرجة الأولى من العربى وسافر القطار . وفى محطة « جرستون » أتى المراقب ليفحص التذاكر ، فغضب إذ وجدنى فى الدرجة الأولى وأشار إلى بأصبعه آمراً أن أذهب إلى الدرجة الثالثة ، فأبرزت له تذكرتى فقال - « إن هذا لا يهم . يجب أن تذهب إلى الدرجة الثالثة . »

ولم يكن معى فى العين التى أجلس بها إلا رجلاً انجليزياً . فتحدى المراقب قائلاً - « ماذا تعنى بذلك . ومن أجل أى شىء تتعب هذا السيد ؟ ألا ترى أن معه تذكرة فى الدرجة الأولى ؟ أما أنا فلا أشعر بأى تكليف فى أن يرافقنى فى السفر » - ثم نظر إلى وقال - « تفضل واسترح حيث أنت » . فتمتم المراقب قائلاً - « إذا كنت تريد أن ترافق أجيئاً فى السفر فماذا يهمنى ؟ » . ثم انصرف .

وحوالى الساعة الثامنة مساء وصل القطار الى بريتوريا . ولقد رقيت أن يتلقانى فى المحطة شخص من قبل محامى «دادا عبد الله» وكنت قد صممت على أن لا أنزل فى بيت أحد من الهنود ، فكان

من المنتظر أن لا أجد أحداً منهم . غير أنى لم أجد أحداً أيضاً من قبل المجابى . ولقد علمت بعد ذلك أننى وصلت يوم أحد ، ولم يكن فى مستطاعه أن يرسل أى شخص من غير أن يكون فى ذلك شىء من التكليف والامتناع . ولم أكن أعرف إلى أين أذهب ، وخفت أن لا يسمح لى بالمبيت فى فندق من الفنادق .

أما محطة بريوريا سنة ١٨٩٣ فغيرها الآن ، فقد كانت أنوارها ضئيلة وكان المسافرون قليلى العدد . فتأخرت عن الخروج وتركت جميع الركاب يخرجون قبلى ، حتى أستطيع أن أسأل العامل الذى يجمع التذاكر عما اذا كان فى قدرته أن يهدينى الى فندق صغير ، أو الى أى مكان من نوعه أستطيع أن أقضى فيه الليل ، والا فانى أقضى الليلة على رصيف المحطة . ولا بد لى من الاعتراف بأنى خفت أن أسأله هذا السؤال حذرأنا يهيننى أو يشتمنى .

وخلت المحطة من كل المسافرين وسلمت تذكرتى للعامل ثم أخذت ألقى عليه أسئلتى . فأجابنى فى أدب جم ، ولكن اتضح لى أنه لا يستطيع مساعدتى ، وساق الى القدر فى تلك اللحظة عبداً اميركياً ، تدخل فى الأمر واشتبك معنا فى الحديث فقال - « أرى انك غريب . وليس لك هنا أصدقاء ، فاذا سمحت أن ترافقنى هديتك الى فندق صغير يملكه رجل امريكى يعرفنى معرفة أكيدة . وأظن أنه لا يرفض قبولك » .

ولم يحل قبولى مساعدته دون شكوك وريب . غير أنى شكرته وقبلت

اقتراحه ، فاقتراني الى فندق اسمه « أسرة جونستون » وانتحى بالمدير ناحية يكلمه ، فقبل أن أقضي عنده الليلة على شرط أن أتناول غذائي في حجرتي ولا أبرحها . ثم قال لي - « كن على يقين من أنني بعيد عن شعور كراهية اللون . ولكني أجرى على العادات الأوربية هنا . وإذا سمحت لك بأن تتناول طعامك في حجرة الأكل ، فربما امتعض نزلائي أو تركوا الفندق بتاتا » - فأجبت

- أشكرك على أنك قبلتني هذه الليلة . كنت قليل الخبرة بالأحوال هنا ، ولكني أزداد بها علما مع الزمن . والآن أستطيع أن أقدر موقفك ولا يهمني أن أتناول عشاءي في حجرتي ، وآمل أن توفق الى ترتيب أدق في اليوم التالي » .

وذهب بي الى حجرتي ، وظللت بها أنتظر عشاءي وأتسلى بالغناء ، لأنني كنت وحدي . ولم يكن في الفندق كثير من النزلاء . وكنت أنتظر الخادم ليحضر الطعام ، ولكن جاء مستر « جونستون » بنفسه وقال لي - « لقد شعرت بكثير من الحجل اذ طلبت منك أن تتناول طعامك هنا . فتكلمت مع بقية النزلاء بشأنك وسألهم ان كانوا يسمحون لك بتناول الطعام في حجرة الأكل . فأبدوا أن لا اعتراض لهم البتة على ذلك ، بيد أنهم لا يرون أى مانع من أن تظل هنا ماشئت المقام . فتفضل بالنزول الى حجرة الأكل ولك أن تظل بها كيفما شئت » .

فشكرته وذهبت الى حجرة الاكل وتناولت عشاءي مغتبطا وبشبهة عظيمة

الفصل السابع

في بريتوريا

في صبيحة اليوم الثاني ذهبت الى مكتب مستر بيكر المحامي ، وكان عبد الله شيث (صاحب الدعوى) قد زودني ببعض معلومات عنه . ولذا لم يدهشني انه استقبلني بأنس وبشاشة ، وأخذ يسألني عن بعض الأشياء . ثم قال لي — « ليس عندنا من عمل تشغله كمحام لأننا بالفعل قد لجأنا الى أكبر ذوى الرأى والقضية كثيرة الشعب والتفاريع ، بيد انها معقدة . وغاية ما أستطيع أن أنتفع بك فيه هو أن تساعدني بامدادى بالمعلومات الضرورية . وفي مستطاعك أن تجعل علاقتى بموكلى أكثر سهولة ، وستكون أنت المسلك الوحيد الذى به أتمكن من التزود بالمعلومات منه . وهذا على ما أعتقد أمر ذو قيمة . وانك لو اوجد كراهية الجنس واللون قد بلغت حداً خفيفاً في هذه البلاد ، وليس من السهل أن تجد محلا تقيم فيه باطمئنان . ولكن أعرف امرأة فقيرة هي زوجة رجل تاجر رقيق الحال . وغالب ظنى انها تقبل أن تعيش معها وبذلك يمكن أن يزيد دخلها »

فأخذنى الى منزلها وكلما في خلوة بشأنى وقبلت أن أبقى معها لتقاء خمسة وثلاثين شلناً فى الأسبوع نوماً وطعاماً .

أمامستر بيكر فكان من كبلر المبشرين بالدين النصراني ، وأكثرتهم حماسة . ولا يزال حيا الى الآن ، وقد تفرغ للرسالة التبشيرية وترك مهنته الأصلية . وهو متوسط الغنى . ولقد استمر يكتبني ، ولكنه ظل في كل ما يكتب أميناً لمعتقدده . فهو لا يزال يذكر النصرانية ونفامتها وسمو مراميها ، ويزعم انه من المستحيل أن ينعم الانسان بالسلام الأبدي ، بالمعتقد ان عيسى ابن الله ، وانه مخلص النوع الانساني .

ومنذ أول مقابلة استطاع مستر « بيكر » أن يستخلص مني متجهي الديني ، فقلت له : « اني هندوكي مولداً ، ولكني لا أعرف كثيراً عن تفاصيل الدين الهندوكي ، ومعرفتي بالأديان الأخرى أقل من معرفتي بديني الأصلي ، وفي الحقيقة لا أستطيع أن أحدد بالضبط موقفي من الأمور الدينية ، أو أن أحقق ماهو ، أو مايجب أن يكون معتقدي . واني لأميل أن أدرس ديني الأصل بعناية ، وأن أكب على درس الأديان الأخرى ، على قدر ما تسمح ظروفى » .

فاغتبط مستر بيكر إذ سمع مني هذا الكلام وقال : « اني أحد مديري بمشة التبشير العامة في جنوبى افريقية ، وشيدت كنيسة خاصة بمالى لألقى بها مواعظ دينية بانتظام . ولست من أولئك المصابين بمرض الجنس أو اللون . ولى أصدقاء يرون رأيي هذا ، فنجتمع كل يوم حوالى الساعة الأولى بعد الظهر ونكسب على صلاة حارة ندعو الله فيها أن يمنحنا

السلام والنور ، واني لأسر أن توافينا الى هناك لأقدمك الى أترابي ،
الذين سوف يقتبطون بمرآك ، ولا أحجم عن أن أقول انك سوف تسر
بصحبتهم . وكذلك أريد أن أزودك ببعض الكتب الدينية لتقرأها ،
ولو أنك يجب أن تعرف أن أبا الكتب كلها هو الانجيل المقدس ، وهو
الذي اخصك بالنصيحة في أن تجعله سميرك »

فشكرت مستر بيكر ووعده بآني سوف أشهد صلاة الساعة الأولى
بعد الظهر بانتظام على قدر ما أستطيع فقال : « اذن سأنتظرك غداً
حوالى الساعة الأولى لنذهب معا ونصلى » ثم افترقنا بعد التحية
الواجبة .

ولم يكن لدى من الوقت ما يكفي للتفكير والتأمل ، فذهبت تواء الى
الحان الذي كنت أنزل فيه ودفعت حسابي وانتقلت الى مأوى الجديد
حيث تناولت وجبة الظهر ، وكانت سيدة المنزل من الطيبات ، فأعدت
لى غذاء نباتيا . غير انه مضى زمن قبل أن أعود على المعيشة مع الأسرة
وأشعر انى فى منزلى . وبعد ذلك ذهبت لألاقى ذلك الصديق الذى
زودنى « دادا عبد الله » بتوصية له . فعلمت منه أكثر مما كنت أعلم
عن المتاعب التى يعانها الهنود فى جنوبى افريقية ، وأظهر لى تصميمه
على أن أعيش معه فشكرته وعرفته انى أفضل ترتيب حياتى على وجه
يقنعنى ، فاكثرتنى بأن يسألنى أن لأحجم عن أن ألقا اليه فى كل شىء
احتاج اليه .

وخيم الظلام ، فعدت الى المنزل وتناولت عشاءى ثم ذهبت الى حجرتى واستلقيت مغموراً فى لجة عميقة من الأفكار ، ولم يكن لدى من عمل يشغلنى فى ذلك الوقت ، ولكن الذى أثار دهشتى انحصر فى ذلك الاهتمام الذى وجهه الى مستر بيكر . وأخذت أفكر فيما يمكن أن تكون الفائدة التى أجنيتها من العمل مع زملاء انحصر كل همهم فى الدين ؟ وإلى أى حد يجوز لى أن أذهب فى درس النصرانية ؟ وكيف أستطيع أن أفهم النصرانية من غير أن أدرس ديانتى الهندوكية درساً عميقاً مستفيضاً ؟ ولقد خلصت من هذه التأملات بنتيجة واحدة محصلها أن أكب خالى الفكر والغرض على درس كل ما يقع لى وأن أتصرف مع مستر بيكر وجماعته كما يريد الله أن يهدينى ، على أن لا أنطوح الى التفكير فى اعتناق دين آخر قبل أن أعرف ما هو دينى الأصيل . وما وصل بى الفكر الى هذا الحد حتى أغفيت وأخذتني سنوات نوم هادئة طويلة .

وفى اليوم التالى حوالى الساعة الأولى بعد الظهر ذهبت الى ملتقى العبادة الذى أقامه مستر بيكر فقدمنى الى مبنى هاريس ومس جيب ومستر كوتس وغيرهم . وقد ركع الجميع يصلون فرمكت مثلهم . وكانت الصلاة مجرد ابتهال الى الله فى طلب أشياء كثيرة ، كل منهم على حسب حاجته ، ولكن التوسل الدائم كان فى سبيل الدعاء بأن يمر اليوم فى سلام وأن يأمر القادر الأحد بأن تفتح أبواب القلب . ولكن أضيف الى ذلك دعاء توجبهوا به بنحوى بقولهم — « يارب أنز الطريق لأخينا الجديد

الذى هبط جمعيتنا ، وأنعم عليه يارب بما أنعمت به علينا من طمأنينة، وخلصه بحق سيدنا عيسى كما خلصتنا . أجب دعاءنا بحق عيسى عليك « ولم يكن في هذه الاجتماعات ترانيل أو موسيقى وكنا نفترق كل يوم عقب الابتهاال بطلب شيء خاص ، كل منا إلى بيته لتناول الطعام . ولم تكن الصلاة تستغرق أكثر من خمس دقائق .

أما مس هاريس ومس جاب فكاتنا آنستين حطمتا الشباب ودلفتنا إلى الكهولة . وكاتنا تعيشان معاً . فعينتا لي موعداً الساعة الرابعة بعد ظهر كل أحد لا تناول معهما الشاي في بيتهما فاذا اجتمعنا في ذلك الموعد ، أعطيت لستر كوتس يومياتي الدينية التي تعودت أن أدونها خلال الأسبوع وأتناقش معه في الكتب التي كنت أقرأها والآثار التي تخلفها مطبوعة في نفسى . وكانت الآنستان تقصان علينا تجاربيهما اللذيذة وتصوران الطمأنينة والسلام اللذين تحسان بهما في نفسيهما . أمامستر كوتس فكان شاباً مخلص السريرة صريحاً . وكنا نخرج للنزهة ماشيين ، فكان لا يترك فرصة تمر دون أن يقدمنى إلى غيره من الرجال المستقلين بنشر النصرانية . فلما زادت ألفتنا أخذ يعطينى كتباً يختارها لى بنفسه ، حتى أصبح عندى مجموعة كبيرة منها . وبقدر كاف من الايمان الثابت أ كبت على قراءة هذه الكتب ، ولكن لم أترك أمراً فيها من غير أن أقتله بحثاً ومناقشة .

وبقدر ما أهدي إلى من كتب ، قدمنى لأصدقاء من مخلصي النصارى .

وكان من بين هؤلاء أسرة تنتمى إلى جمعية تدعى «إخوان بليموث». غير
أنى لا أنكر أن أكثر الذين قدمنى إليهم مستر كوتس كانوا اختياراً
طيبين . وأبين مظهر لى من اخلاقهم انهم كانوا يخافون الله . ولكن
حدث ذات يوم أن جابهنى أحد أعضاء « إخوان بليموث » بسؤال لم
اكن على استعداد لأن اجيب عليه . قال

«انك لاتستطيع أن تدرك ما فى ديننا من جمال . ويظهر من كل
أقوالك أنك تعكف دائماً على التأمل والتفكير فى خطايانا كل لحظة من
لحظات حياتك ، محاولاً أن تصلح من أمورنا وان تعوضنا عنها كفارة
واستغفاراً . فكيف تتصور ان دورناك حول هذه الدائرة التى لاتنتهى
يمكن أن يحبوك الخلاص الاخرى . انك لن يطمئن لك قلب أو يحل
بصدرك السلام . انك تسلم باننا جميعاً واقعون فى الخطيئة . ولذا يجب
أن تعرف مدى مايصل اليه معتقدنا من الكمال . فان الغرض الذى
تحاول الوصول اليه من طريق التفكير فى ذنوبنا ، انما هو طمع فيما
لامطمع فيه ، ولكننا رغم هذا نتطلع الى الخلاص الاخرى والقضاء
التام . وكيف نستطيع أن نحتمل عبء الخطيئة ؟ اننا لانستطيع أن نلقيه
على كاهل عيسى . فانه وحده ابن الله المحرر عن المعاصى والخطيئات . هو
القائل بأن أولئك الذين يؤمنون به دون غيرهم هم الذين سوف يفوزون
بالخلود الأبدى . وفى هذا سر الرحمة الالهية غير المتناهية . ولما كان إيماننا
(٨ - ٨)

بعمسى كاملا وثقتنا بفقرانه تامه ، اعتقد بجانب هذا ان خطايانا لن
تقيد ضمائرنا . اتنا يجب ان نعصى وان نخطىء . لأن من المستحيل أن
يعيش الانسان في هذه الدنيا منزها عن الخطيئة . ومن أجل هذا تعذب
عيسى وكفر عن كل خطايا النوع الانسانى . والذي يقبل فداء عيسى
ويعتقد به ، هو دون غيره الذى يحظى بالسلام الأبدى . فانظر الآن
وقس الفارق بين القلق الذى تحسه في حياتك ، وبين السلام والطمانينة
التي نلحظها في حياتنا »

غير أن هذا التدليل سقطت عندي حجته سقوطا كاملا ، فأجيبته في
خضوع « إذا كان هذا هو النصرانية ، فانه يستحيل على أن أقبلها .
إننى لا أبحث عن الخلاص والفداء عن كل ما يترتب على خطايائى ، انى
أبحث كيف أخلص من الخطيئة ذاتها ، بل من مجرد التفكير في أن
أخطىء . وحتى أبلغ هذا الغرض ، سأظل مغتبطا بأن أكون حائرا
قلقا » . فرد على محدثى قائلا « إنى أؤكد لك أن محاولتك بائرة . وأرجو
أن تعاود التفكير فيما قلت لك » . ولقد برهن محدثى على أنه يعنى مايقول ،
فانه كان يرتكب الخطايا عمداً وباختياره ، وقال لى مرة ان ارتكابه هذه
الخطايا لا يهيمه ولا يحزنه ولا يقلق باله .

ولكنى كنت علمت قبل أن تكون لى أية علاقة بهؤلاء الصحاب ،
ان ليس النصرانى جميعاً من المؤمنين بهذه النظرية في الخلاص الأخرى .
فلن مستر كوتس كان يخاف الله ويخشاه . وكان صافى القلب ، يعتقد

بحرارة في احتمال أن يصل الانسان الى براءة النفس . أما الآنستان فكانتا من مذهبه . ولقد زاد اقتناعي بهذا مذ وجدت أن بعض الكتب التي أهداها الى كانت تفيض اخلاصاً وتعبداً . فكنت تجد أن مستر كوتس قد اضطرب وقلق من جراء ما حدث معي ، غير أنني استطعت أن أحقق لديه أن معتقداً فائلاً يستقر في نفس أحد « اخوان بليموث » لن يغير من رأيه في حقيقة النصرانية ، وأن الصعاب التي تواجهني انما تقع في نواح أخرى غير هذه . وأبنت له من بعد أن هذه الصعاب تحوم حول الأناجيل والتفاسير المقبولة فيها .

وقبل أن أسوق الكلام في علاقات أخرى مع النصارى ، يجب على أن أمضي في سرد تجارب وقعت لى في ذلك الحين . فقد كان لتاجر يدعى « شيث طيب حاجى خان محمد » في « بريتوريا » نفس المركز الذى يشغله « دادا عبد الله » في ناتال . ولم يكن من المستطاع أن تقوم حركة عامة من غير أن يكون هو المحرك لها . فتعرفت به في أول أسبوع هبطت فيه بريتوريا وأطلعته على رغبتى في أن أتعرف الى كل هندي مقيم فيها . وأول خطوة خطوتها أنى دعوت الى اجتماع شهده تجار « الميان » كما شهده قليل من الهندوكيين ، لأن الهندوكيين في بريتوريا قليلو العدد .

وألقيت في هذا الاجتماع خطبة هي أول خطبة عامة ألقيتها في حياتى . ولقد أحطت بالموضوع بعد تجزيه وانحصر كلامى فيه على الحض على

الأمانة في العمل والتعامل . فقد سمعت من كثير من التجار أن الصدق غير مستطاع في العمل التجارى . فيقولون ان العمل التجارى أمر دنيوى صرف ، والصدق مبدأ دينى . ومعتقدهم أن العمل شئ والدين شئ آخر . فهاجت هذا المعتقد فى خطبى وسفته ، ودعوت التجار الى ايقاظ روح الواجب فى نفوسهم .

ووجدت عادات الهنود فى جنوبى افريقية بعيدة عن أن تتفق مع القواعد الصحية مقيسة بمادات الانجليز الذين يمايشونهم ، فلفت أنظارهم الى هذا الأمر الهام . ثم أهبت بهم أن يتناسوا الخلافات الدينية والطائفية ، وأبنت لهم عن الضرورة التى تدعو الى ذلك . وفى النهاية اقترحت تأسيس جمعية يمكن أن تتصل بالسلطات الحكومية المختصة للنظر فى المصائب التى تمرض حياة الجالية الهندية فى جنوبى افريقية ، وتعهدت بأن أبذل فى سبيل هذه الجمعية من الوقت والخدمات كل مستطاع .

ولقد اغتبطت بنتيجة الاجتماع وقر القرار على أن يعقد اجتماع كل أسبوع على ما أذكر . فكانت تعقد الاجتماعات بانتظام حيناً وبغير انتظام حيناً آخر ، فنناول الرأى وتناقش . فتعرفت بكل الهنود المقيمين فى بريتوريا ، وأحطت بكل أحوالهم خيراً . ثم حولت نظرى الى القومسير الانجليزى فى بريتوريا مستر « جكوبس ده وت » وحاولت أن أتعرف اليه . وكان هذا الرجل يمطف على الهنود ، ولكنه

كان ضعيف النفوذ . غير أنه على كل حال وعد بأن يساعدنا على قدر ما يستطيع ، ودعائى إلى لقياء كلما أردت أو مست الحاجة الى ذلك . ثم اتصلت بعد ذلك بإدارة سكة الحديد وأخبرت المشرفين عليها أنه حتى لدى الخضوع للوائحها ونظاماتها ، فإن الصعاب التى يعانىها الهنود لدى السفر على خطوطها لا يمكن أن يكون لها أى مبرر . فحصلت على رد مفاده أن تذاكر الدرجتين الثانية والثالثة يمكن أن تصرف للهنود الذين يكونون فى هندام لائق . غير أن هذا الرد كان بعيداً عن أن يرضينى لأن الحكم على حسن الهندام أمر متروك لاختيار ناظر المحطة . وكان القومسير البريطانى قد أطلعنى على بمض الأوراق المتعلقة بأحوال الهنود ، كما سلمنى « طيب شيث » أوراقاً أخرى تماثلها . فعرفت منها مقدار القسوة التى عومل بها الهنود لدى طردهم من أرض حكومة « الأورانج الحرة » فكان مقامى فى بريتوريا سيباً فى أن أدرس أحوال الهنود المقيمين فى ناتال وفى حكومة الأورانج الحرة ، ولم أكن أتوقع أن دراستى لأحوالهم سوف تكون ذات قيمة لا تقدر فى المستقبل ، لأننى كنت أفكر فى العودة الى وطنى فى نهاية العام ، ان لم يكن قبل ذلك ، اذا انتهت القضية التى دعيت من أجلها . ولكن الله أراد لى غير ما كنت أتوقع .

ولقد كان مقامى فى بريتوريا سنة كاملة أعظم تجربة وقعت لى فى حياتى . فهناك أتيت لى الفرص لأعرف شيئاً من سر الأعمال العامة ،

وعرفت إلى أية درجة يمكن أن تنتهي كفايتي في مزاولتها . وهناك بدأ الروح الديني يكون قوة حية تحرك نفسى ومشاعرى ، واستطعت أن أحصل على مرانة كافية في الاجراءات القضائية، فعرفت كل الأشياء التى يمكن لحام مبتدىء أن يدرسها فى مكتب محام قديم ، واقتنعت بأنى لن أسقط فى الحياة إذا امتنعت المحاماة ، بعد أن درست سر المهنة وأحطت بالوسائل التى لا مندوحة عنها للنجاح لحام مثلى .

ولم تكن قضية دادا عبد الله من القضايا الصغيرة . فقد كانت قيمتها تقدر بأربعمائة ألفاً من الجنيهات الانجليزية ، وكان سببها عقوداً تجارية ، فكثر شعابها وتمددت نواحيها الفنية والحسابية . كما كان جزء منها يقوم أصلاً على وثائق تعهدية ، وجزء على وعد بارسال وثائق أخرى مثلها . وكان وجه الدفاع الذى يستمسك به خصومه قائماً على الدعوى بأن هذه الوثائق قد أخذت بطريق الفس والخداع . فأخذت أدرس القضية أعمق درس ، وصرفت فيها من العناية جهد مستطاعى . وكان موكلى رجلاً فائق القدرة ، ووضع فى كل ثقته ، فسهل ذلك على مأمورى . ولاحظت أن قدرتى على الترجمة قد تضاعفت من اكبابى على ترجمة الرسائل ، وكان أكثرها فى اللغة الكجراتية . غير انه على الرغم من اهتمامى بالوسائل الدينية والمسائل العامة معاً ، كنت لا اضحى فى سبيلها الا بجزء من وقتى ، اذ لم تكن فى ذلك الحين من أوليات المسائل التى اهتم بها . لأن تحضير الدعوى استغرق كل همى . وقد

استغرق الجزء الأعظم من وقتي الكباري على مراجعة القوانين والاطلاع على القضايا التي تعتبر الأحكام الصادرة فيها ذات مساس بالدعوى . فكانت النتيجة اني أملت بحقائق القضية المأما أرجح انه لم يفز به طرفا الخصوم ، لأن أوراق كل منهما كانت في حيازتي وتحت تصرفي . وهنا تذكرت نصيحة مستر «بنكث» اذ قال لي وأنا في لندن مرة ان الحقائق يتكون منها ثلاثة ارباع الهيكل الذي تقوم عليه الدعوى . ولقد طبق هذه القاعدة فيما بعد محام شهير من محامي جنوبي افريقية هو المرحوم مستر «ليونارد» . ففي احدى القضايا التي كانت تحت اشرافي ، رأيت ان الحق وان كان في جانب موكلتي ، فان القانون حسب ظاهره كان ضده . فلما يئست من الدعوى ذهبت الى مستر «ليونارد» لاستشيريه . فوافق على أن حقائق الدعوى قوية، ولكنه قال لي: «مستر غاندى . لقد تعلمت شيئاً واحداً وهو اننا اذا عطينا بالحقائق فان القانون يعنى بنفسه . فالواجب اذن ان تتعمق في درس حقائق هذه الدعوى الى غور اعظم» . - وأوصاني بأن اكب على درس الدعوى درساً أوفى ، ثم أعود اليه مرة أخرى . فلما مضيت في درس حقائق الدعوى تبينت فيها نواحي كانت غامضة ، وعثرت على دعوى مشابهة لها كانت موضوع مناقشة في محاكم جنوبي افريقية . فسررت بهذه النتيجة وذهبت الى مستر «ليونارد» وأطلعته على كل شيء . فقال «حسناً سترج الدعوى . ولكن يجب ان نجعل للقاضي الذي سوف يدرسها ، تقديرًا في أذهاننا» .

لما كنت احضر قضية « دادا عبد الله » لم اكن قد ادرت بعد ما للحقائق من قيمة وأثر في الدعاوى القضائية. فالحقائق معناها « الحق » واذا لجأنا إلى الحق فان القانون يكون في عوننا بطبيعة الحال، ومن غير احتياج إلى جهد. وقد رأيت أن الحقائق في قضية « دادا عبد الله » قوية كل القوة فأكسبت الدعوى مركزاً ممتازاً ، وان القانون لا بد من أن يؤيده ويكون في جانبه . ولكنني رأيت بجانب هذا ان الخصومة اذا اصر عليها الطرفان سوف تحطم المدعى والمدعى عليه معاً ، فوق انهما كانا من ذوى القربى ومن قطان مدينة واحدة . ولم يكن يعرف أحد الى أى زمن سوف تستمر الخصومة - فاذا تركت للمحاكم فربما استمرت الى غير نهاية، وبغير أن يكون منها أية فائدة لأحدهما، ولذا رغب كلاهما في فض النزاع وشطب الدعوى اذا كان ذلك مستطاعا .

فقابلت « طيب شيث » ونصحته بأن يخضع للتحكيم . ورغبت اليه في أن يقابل مستشاريه وخلصاءه وأشرت اليه بأنه اذا كان من المستطاع تعيين حكم يحوز ثقة الطرفين ، فان الخصومة تنتهي في أقرب وقت . وكانت أتعاب المحامين آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم ، حتى وصلت حداً كادت تستغرق فيه كل مالهيهما من الموارد ، على الرغم من أنهما كانا من كبار التجار كما قلت من قبل . كما أن الدعوى استغرقت كل جهدهما واستحوذت على نشاطهما حتى كان يتعذر على أحدهما أن يجد وقتاً يصرفه في أى عمل آخر . وكنت ألاحظ أن سوء النية أخذ

يستفحل بينهما . وكان كلاهما يندل أقصى جهده ليصل الى النتيجة التي
يرغب فيها . وأخيراً وافق « طيب شيث » على اقتراحى ، وعين
الحكم وعرضت عليه الدعوى بخذافيرها وربحها عبد الله .
غير أن هذا لم يرضنى ، فان موكلى اذا أراد أن ينفذ الحكم تواء ، فان
« طيب شيث » سوف يعجز عن القيام بأداء ما يطلب « دادا عبد الله » .
وهناك عادة اكتسبت قوة الشريعة وان كانت غير مكتوبة ، يفضل
معه رجال « الميان » من أهل « پورباندر » الموت على الافلاس .
وكان يتعذر على « طيب شيث » أن يدفع مبلغاً يوازى سبعة وثلاثين
ألفاً من الجنيهات ونفقات الدعوى . وكان مصمماً على أن يدفع المبلغ كله
غير منقوص درهماً واحداً ، كما كان يفزع من اعلان افلاسه . فلم يكن
لدينا الا طريق واحد ، هو أن يقبل دادا عبد الله أن يحصل على المبلغ
أقساطاً معتدلة . وكان عبد الله رجلاً كريم الأخلاق واسع الثروة ، فقبل
أن يحصل على حقه دفعا موزعة على عدد طويل من السنين . ولم تكن مهمتى
فى تسوية الدفع على أقساط بأقل مشقة من سعى فى سبيل التحكيم .
غير أنهما اغتبطا بالنتيجة ، كما رفع تسامحهما من مقامهما فى أعين الناس .
أما فرحى فكان عظيماً ، فقد فقهت مسائل القانون العملية ، وأعنى بها
أن أستحوذ على الناحية الشريفة من الطبيعة الانسانية ، وأن أفتح
قلوب الناس للخير . وعرفت أن مهنة المحامى الحقيقية تنحصر فى
التقريب بين الأطراف التى فصلتها المصالح والمطامع . ولقد كان لهذا

الدرس العملي أثر في نفسى حتى انى في خلال العشرين عاماً التى قضيتها
معامياً ، عملت على اتمام الصلح بين المتخاصمين في مئات من القضايا التى
عرضت على لأبشرها . ولم أخسر شيئاً من جراء مبدئى هذا . لم أفقد
شيئاً من المال ، بله نفسى وروحى .

...

في ذلك الوقت الذى قضيته في « بريتوريا » كنت غالباً ما أرافق
مستر كوتس في زهات ليلية ، وكنا قلما نرجع الى المنزل قبل الساعة
العاشرة . ولكن كان هنالك قانون تتناول أحكامه « ذوى الألوان »
القيمين في الترنسفال ، وكان يحظر على الهنود الشئ على الأرصفة أو البقاء
خارج المنازل إلى ما بعد الساعة التاسعة مساء من غير اجازة خاصة . فإذا
سوف يحدث لو أن البوليس اعتقلنى ؟ وكان اهتمام مستر كوتس بالأمر
أكثر من اهتمامى به . وكان من عادته أن يحصل على اجازات لخدمه
السود . ولكن كيف يستطيع أن يعطينى احدى هذه الاجازات ؟
وللسيد وحده حق الحصول على اجازة لخدمه . فإذا طلب اجازة ، أو
فرض وكان مستر كوتس مستعداً لأن يزودنى بواحدة منها ، فانه يكون
في خطر من أن يستكشف الأمر ويتم بالفش والخذاع .

لهذا صحبنى مستر كوتس أوأحد أصدقائه ، ولست أذكر من صحبى
منهما بالضبط ، الى أفوكاتو الحكومة دكتور « كروز » وظهر أننا من
خريجى مدرسة واحدة . فلما علم بأنى أريد الحصول على اجازة تبيع لى

البقاء خارج المنزل الى ما بعد الساعة التاسعة ، أبدى أسفه وتأثر كل التأثر ، وعطف على كل العطف . ولم يكتف بأن يزودنى بالاجازة ، بل أعطانى خطاباً يبيح لى البقاء خارج المنزل فى أى وقت أشاء من غير أن يتدخل البوليس فى أمرى . ولذا كنت أصحب هذا الخطاب كلما برحت المنزل . أما أنى لم أحتج إلى إبرازه فى حادث من الحوادث ، فكان مجرد مصادفة لم تتكرر مع غيرى .

أما النتائج التى كانت تترتب على نظام المشى على الأرصفة ، فكانت معضلة . فقد تعودت أن أخترق شارع « پرزنت » إلى سهل فسيح يقع لدى نهايته . وكان بيت الرئيس « كروجر » فى ذلك الشارع ، وهو عبارة عن بناء يستوفى كمال الذوق غير ذى اتساع وليس له حديقة ، ولا يمكن بحال تمييزه عن بقية المنازل القائمة حفاى الشارع . وكانت منازل بعض الأغنياء فى بريتوريا أكثر فخامة من منزل الرئيس كروجر وكلها محاطة بمحاذيق غناء . والحقيقة ان ما اتصف به الرئيس كروجر من البساطة كان مضرب الأمثال . ولولا رجل البوليس الواقف أمام الباب ، لما استطعت أن تعرف أن المنزل مملوك لأحد كبار موظفى الحكومة . وكنت أمر على الرصيف وأتجاوز الشرطى كل يوم من غير أن يعترضنى أحد أو يقع لى حادث .

وكانت العادة أن يبدل رجل البوليس الواقف لدى الباب من آن لآخر . فحدث مرة أن أحدهم ، ومن غير أن يأمرنى بترك الرصيف (المشى)

دفعني بكل قوته وركلني برجله إلى وسط الشارع . والحق أني فرغت ، وقبل أن يكون لدى من الوقت ما يسمح لي بأن أسأله عن سبب فعلته ، ناداني مستر كوتس ، وقد اتفق أن كان ماراً بنفس المكان على ظهر جواده قائلاً :

« غاندى - لقد رأيت كل شيء . واني أسر أن أكون شاهدك اذا أردت أن تقاضى هذا الرجل : واني لحزين لأنك هوجمت بشراسة وقلة أدب » فقلت له

« ليس بك من حاجة لأن تحزن . ماذا يمكن أن يعرف هذا الرجل المسكين فان كل « ذوى الألوان » لديه سواء في هذه البلاد . والقاعدة التي وضعتها لسلوكي تقضى بأن لا أبدأ إلى القضاء اذا نالني أى أذى يتناول شخصي ، فليس اذن في نيتي أن أقاضيه » فقال لي - « انك لجدير بذلك . ولكن فكر في الأمر مرة أخرى . فان

الواجب أن نعطي مثل هذا الشخص درساً ينفعه » ثم تكلم مع الشرطى وعنفه . ولم أستطع أن أعي ما قالاً لأنهما كانا يتكلمان باللغة الدانمركية ، لأن الرجل كان من البوير ، ولكنه اعتذر لى ، من غير أن تكون بي حاجة إلى الاعتذار . لأنني كنت ساعته بالفعل .

غير أني لم أخترق هذا الشارع مرة أخرى : فقد يتفق أن يأتي غيره ممن هم جاهلون بمحادثتي معه ، وقد يعاملونني بمثل ما عاملني . ولماذا

أحمل جسمى ركلة ثانية من غير ضرورة ؟ لهذا أخذت طريقاً آخر
لنزهتى .

بيد أن هذه الحادثة لم تذهب من غير أن تترك فى نفسى أثراً عميقاً
جعلنى أرثى لحال الجالية الهندية ، فأخذت أناقشهم فى أن تقوم بتجربة ،
إذا كان من الضروري أن نلجأ الى ذلك ، بعد أن أقابل القوم سير
الانجليزى وأكلمه فى أمر هذه الانظمة الجائرة .

فأكبت على درس الحالة السيئة التى وصلت اليها الجالية الهندية ،
ولجأت الى التجارب الشخصية ، فضلاً عن قراءة كل ما كتب فيها
وسماع كل ما يمكن أن يستمع منها . وصرعان ما اتضح لى أن جنوبى
افريقية ليست بالمكان الذى يستطيع هندى يحترم نفسه أن يقيم فيه ،
وأخذ عقلى يشتغل ليل نهار فى التفكير فيما يمكن أن تكون الطريقة
التى يلجأ اليها لمعالجة هذه الحالة وتحسينها

وظفق مستر « باكر » يشفق على مستقبلى فاصطحبني إلى جمعية تدعى
« جمعية ولنجتون » وكان من عادة البروتستانت من النصارى أن
يعقدوا مثل هذه الاجتماعات كل عدد من السنين ليزدادوا بالدين نوراً ،
وبالايمان صفاء . وقد ندعو عملهم هذا « بالاحياء الدينى » . وكانت
جمعية ولنجتون من هذا الطراز ، ويرأسها رجل دينى معروف هو المحترم
« اندرو موراي » . وقد تخيل مستر باكر أن عبير السمو الدينى وحماسة
أعضاء الجمعية وتفانيهم فى الدين قد يحملنى على أن أعتنق النصرانية .

غير أن ملجأ الأخير كان ينحصر في الصلاة والأدعية . لأن ثقته بالصلاة كانت لا تنتهي عند حد . بل كان يعتقد أن الله لن يخيّب سؤال إنسان يصلّي اليه ويدعوه بحرارة الإيمان . وكان يستشهد على ذلك بتصرف رجال من أمثال جورج موللرفي بريستول ، وكان يتوسل بالصلاة الحارة حتى في سبيل قضاء مصالحه الدنيوية . فكنت أستمع إلى كلامه في تأخير الصلوات من غير كثير انتباه ، وجعلته يعتقد أن ما من شيء يمنعني عن اعتناق النصرانية إذا أنا استمعت الدعوة إليها . ولم أتردد في أن أعده بهذا الوعد لأنني كنت قد وطنت نفسي على أن أستجيب دائماً لداعى الصوت الخفي الخارج من أعماق وجداني . ولذا اغتبطت لأنني ألقيت بنفسي في حماه . أما أن أعمل على غير ما يدعوني إليه ، فإن ذلك يكون من آلم الأشياء إلى نفسي .

وذهبنا إلى مدينة ولنجتون ، ولقد لاقى مستر باكر بعض الصعاب لأنه يصطحب رجلاً مثلي من ذوى الألوان . وكان قد قاسى الأمرين مراراً عديدة من قبل بسببي واضطربنا أن نقف السفر يوماً بأ كمله ، لأن يوم الأحد أدر كنا خلال سفرتنا ، ومن عادة مستر كوتس وصحبه أن لا يكسروا السبت . وبعد أخذ ورد طويلاً قبل مدير فندق المحطة أن يقبلني كنزيل ، ولكنه لم يسمح لي مطلقاً بأن أذهب إلى حجرة الطعام . وكان مستر « باكر » ممن لا ينهزمون بسهولة . فاستمسك بالحقوق التي يجب أن يتمتع بها نزلاء الفنادق . ولكن أدركت الصعوبة

التي تترصده . وكذلك كان الأمر في ولنجتون . فاني نزلت حيث نزل
مستر باكر . وفضلا عن أنه كان يحاول أن يخفي عنى المتاعب التي سببتها
له ، كنت أقف على الكثير منها ، على غير إرادة منه في أن أعرفها .

وكان مقر هذه الجمعية عبارة عن حجرة يلتئم فيها عدد من غلاة
النصارى . فأمرني ما رأيت فيهم من حرارة الايمان . وقابلت هنالك
مستر « اندرو موراي » وأدركت أن كثيرا منهم كانوا يصلون من أجل ،
وأحببت الاستماع إلى بعض ترانيلهم ، فقد كان فيها حلاوة ورنه جميلة .
واستمر الاجتماع ثلاثة أيام . واطلمت على مقدار ما بلغ الايمان بأفراد
الجمهرة ، ولكني لم أر شيئا يحملني على أن أتبدل بمعتقدى بمعتقد آخر .
وتمنر على أن أعتقد أن من الممكن أن أصعد إلى السماء أو أن أمنح
الخلاص بمجرد أن أصبح نصرانياً . ولما أطلعت بعض أصدقائى من
الأعضاء على فكرى ، أسفوا وكأنهم صدموا وصدوا دون البلوغ الى
أمنية عزيزة لديهم . ولكن لم يكن في مستطاعى أن أفعل غير هذا ،
فان المشكلات التي اعترضتنى كانت قد حلت في مكان من نفسى أبعد
من هذا غورا . رأيت بعيداً على عقلى أن يعتقد أن عيسى وحده دون
غيره كان ابن الله المتجسد ، وأنه لا خلود الا لمن يعتقد في صحة رسالته
واذا كان من الممكن أن يكون لله أولاد ، فكلنا أولاده . واذا كان
عيسى مثل الله أو أنه الله بنفسه ، اذن فكل الناس يكونون كمثل الله
أو يكونون الله بنفسه . ولم يتسع عقلى لاعتقاد أن عيسى بميته وبدمه

بقد فدى الانسانية وطهرها من خطاياها . على أنه قد يكون في ذلك شيء
 لمن الحق ، ولكن مجازاً . ثم لم ينب غنى أنه على المعتقد النصراني ،
 ليس من شيء في الدنيا له روح إلا الانسان ، وليس كذلك بقية
 المخلوقات ، التي يعتبر موتها فناء تاماً . وكنت أعتقد ما يخالف ذلك ، ويمكنني
 أن أعتبر عيسى شهيداً ، وأنه رمز التضحية الجسم ومعلم روحاني إلهي .
 ولكنه ليس أكل انسان أخرجه البطون الى ظاهر الأرض . أما موته
 فوق الصليب فأروع مثال يمكن أن يقدم للانسانية . ولكن القول بأن
 صلبه قد تضمن أسراراً ومعجزات ، فذلك ما لم يكن في مستطاعى الايمان
 به أو تصديقه . وكذلك لم تزودنى حياة المؤمنين من النصارى بما لم
 تزودنى به حياة غيرهم من المؤمنين بأديان أخرى . ورأيت في حياة غير
 النصارى من صالح العمل والتفانى في الإصلاح ، مثل ما رأيت في
 النصارى تماماً . أما من الناحية الفلسفية فلم أدرك شيئاً خارقاً للعادة
 في المبادئ النصرانية ، فمن ناحية التضحية أرى أن الهنود يفوقون
 النصارى بمراحل واسعة . ولهذا تعذر على أن أعترف بأن النصرانية
 دين كامل ، أو أنها أكل الأديان .

ولقد أفضيت بفكرتى هذه لكثير من أصدقائى النصارى ، ولكن
 أجوبتهم لم تكف لإقناعى ، وبقيت كما أنا . فلم أستطع أن أقبل مبدأ
 أن النصرانية كاملة ، ولا أنها أعظم الأديان . وكذلك كان معتقدى في
 الدين الهندوكى حينذاك . فان النقائص التى تعتور الدين الهندوكى

كانت مكشوفة لى . وأخص ما كان يعتور ذهنى فى ذلك الوقت مبدأ
معاملة « الأنجاس » . أما اعتبار هذا المبدأ جزءاً مكوناً فى الدين
الهندوكى ، فاعتقدت دائماً أنه بدعة دخلت على الدين ، لا مبدأ أصيلاً
فيه . ولم أستطع أن أفقه معنى لتعدد الطوائف والمذاهب أو ما المعنى فى
قول الذين يقولون بأن أسفار « الفيدا » هى كلمات الله المنزلة . فإذا كانت
هذه الأسفار منزلة ، فلماذا لا تكون الأنجيل ، ولماذا لا يكون
القرآن ؟

وبقدر ما رغب أسدقائى من النصارى فى أن أعتنق النصرانية ،
رغب المسلمون فى أن أعتنق الاسلام . ولقد شغلنى « عبد الله شيث »
بدرس مبادئ الاسلام ، وكان لديه ما يقول فى وصف جماله والتفنى
بمحاسنه .

فكتبت إلى « ريشاند باى » أفضى اليه بمشكلاتى القليلة ، كما كتبت
إلى غيره من رؤساء الدين ، وتلقيت منهم أجوبة . ولقد غمرنى رد
« ريشاند باى » بطمأنينة ، إذ نصحنى بأن أكون صبوراً ، وأن
أتمعق فى درس الهندوكية . وانى أذكر جملة مما كتب إذ قال -
« اعتقد ، من غير أن يكون اعتقادى هذا متأثراً بميولى النفسية ، ان
ديناً آخر غير الهندوكية لا يمكن أن يحوز ما فيها من كمال الوضع أو
عمق الفكرة أو سعة النظر فى دقائق النفس أو حب الاحسان » .

واشترت ترجمة « صال » للقرآن وأخذت في قراءتها ، كما حصلت على كتب أخرى تتعلق بالاسلام . وفضلا عن هذا اتصلت بكثير من أصدقائي النصارى في إنجلترا . فقدمنى أحدهم إلى « ادورد ملند » فشرعت أكتبه . فأرسل إلى كتاب « الطريق القويم » وهو كتاب ألفه بالاشتراك مع « أنا كنجسفورد » كما أرسل الى كتابا آخر هو « التفسير الجديد للاناجيل » فاشتغلت بكليهما ، بعد أن ظهر لى أنهما يؤيدان الهندوكية . أما الكتاب الذى اختلبنى بحق فكتاب تولوستوى « مملكة الله فى نفسك » فان ما خلف هذا الكتاب فى نفسى من الأثر باق لا يزول . وأمام ما فى هذا الكتاب من استقلال الفكر وسمو الآداب والأمانة والصدق ، تضاءلت كل الكتب التى أعطانيها مستر كوتس حتى أنها لم تعد شيئا مذكورا .

وجدت نفسى فى ذلك الوقت أكثر اكبابا على خدمة مصالح الجالية الهندية ، وإن ذلك الأمر أخذ يستهوينى شيئا فشيئا .

أما الدافع الذى دفعنى على أن أحصر همى فى ذلك فكان سعى التواصل فى سبيل أن « أحقق ذاتى » واستقل بها عن كل الأشياء وعن كل الأوهام . واعتقدت أن الدين الحقيقى انما ينحصر فى « العمل » ، لأننى شعرت إذ ذاك بأن الله لا يمكن أن يتحقق فى نفسى إلا من طريق العمل . والعمل عندى قد انحصر فى خدمة « الهند » لأن الهند كانت الهدف الذى استهوانى بالفطرة ، ومن غير أن أحاول أن أخلق فى نفسى

ميلا إليه يدفعني إلى خدمة مصالحه . ولكني لم أهبط جنوبى افريقية إلا هرباً من دسائس « كاثياوار » وفراراً من مكايدها ، وسعيّاً في سبيل الحصول على رزقى وقوتى . غير أنى ، كما قلت من قبل ، وجدت نفسى مغموراً في سبيل العثور على الله والعمل على « تحقيق ذاتى » والاستقلال بها عن كل ما يحيط بى في الوجود من أشياء .

ولقد عرف فى أصدقائى من النصارى تمطشى إلى المعرفة ، حتى لقد بلغ بى التعطش إليها حد الرغبة الملحة . ولكنهم كانوا لا يتركوننى فى سلام ، ولو أظهرت لهم عدم اكتراثى واستهتارى . فلما كنت فى « دوربان » استكشفتنى مستر « والتون » رئيس بعثة المبشرين فى جنوبى افريقية ، وربطت بيننا أواصر الصداقة حتى أصبحت كأنى أحد أفراد أسرته . وكان السبب فى هذه الصداقة علاقتى بمسد من النصارى فى بريتوريا . وكان لمستر والتون نزعة خصيصة به ، فانى لم أذكر أبداً أنه دعانى إلى اعتناق النصرانية . بل اكتفى بأن يشرح لى حياته ويعرضها أمامى ككتاب مفتوح لأستخلص منها ما أريد ولا أكون على علم بتفاصيلها . أما مسز والتون فكانت سيدة ذات آداب ، سامية المدارك ، واسعة العقل . ولقد اختلبنى ما فى حياة هذين الزوجين من نظام واتساق . وكان كل منا يعرف تماماً ما يختلف فيه عن الآخر من وجهات النظر . وقد عجزت المناقشات الطويلة عن أن تقرب من نواحي الاختلاف ، ولكن ظهر لى أن اختلاف وجهات النظر ومناقضة الآراء يصبح ذا

قيمة كبيرة من حيث الوقوف على الحقائق ، على شرط أن يعاون الاختلاف روح التسامح والاحسان وحب الحقيقة . ولقد تملكنى الإعجاب بما رأيت في مستر ومسر والتون من التواضع والصبر والاحتمال والاكباب على العمل ، فكنت آنس بصحبتهما وأسعى لأن أصرف معهما من الوقت ما أقصد من أعمالى الأخرى .

وكان لصادقهما أثر كبير في أن أحفظ بالاهتمام بالدين والروح الدينية حية في قرارة نفسى . ولكن لم أجد في نفسى من حب الاكباب على البحث الدينى في ذلك الوقت ما كنت أجد من قبل في بريتوريا ، غير أن ما كنت أنفق من وقت في الدرس الدينى ، وان كان ضئيلا ، لم يكن يخلو من فائدة وريح: بيد أنى لم أقطع مراسلاتى في الابحاث الدينية، فقد استمر « ريشاند باي » يهدينى ويزودنى بالحقائق . وأرسل لى صديق كتاب « نارمادا شنكر » المسمى « ذرمافيشان » فانتفعت بمقدمته . وكنت قد سمعت بالحياة البوهيمية التى قضاهـا ذلك الشاعر ، ولكن مقدمة الكتاب أوقفتنى على التطور الانقلابى العظيم الذى طرأ على حياته من درس المبادئ الدينية ، فكان لذلك أثر فى نفسى اختلبنى اختلاباً .

وأخذت أحب الكتاب . فقرأته من ألفه الى يائه بكل عناية وانتباه ، وقرأت باهتمام كتاب العلامة « مكس مولر » وعنوانه « الهند - وما تتعلم منها » ، كما قرأت ترجمة « أسفار اليوباناشاد » التى

نشرتها الجمعية الثيوصوفية ، وكان هذا سبباً في أن أوجه عنايتي إلى الهندوكية ، وأخذ ما فيها من جمال وجلال يظهر لي جلياً واضحاً . غير أن هذه النزعة لم تولد في نفسي أرقاً من التحامل على الأديان الأخرى . ثم قرأت كتاب « حياة محمد وخلفائه » تأليف « واشنجتون ارفنج » والفصل الذي كتبه كارليل في البطل في صورة نبي ، وكان هذا سبباً في أن تسمو منزلة محمد في نفسي إلى حد الاجلال العظيم والتقدير السامى . وقرأت أيضاً كتاباً عنوانه « كلمات زرادشت »

ومن هذه السبيل استطعت أن اوسع معلوماتي عن الديانات المختلفة . وقوى في هذا الدرس نزعة النظر الذاتي والعمل على أن أضع موضع التنفيذ ما يستهويني من المبادئ التي أدرسها خلال مطالعاتي . فجعلت ازاول بعض التجارب « اليوجية » كما استطعت أن أدرك هذا المذهب في الكتب الهندية التي وقعت لي . ولكن لم استطع أن أقدم فيها ، وصممت على أن أعاود مزاولتها بارشاد ممرن خبير عند ما أعود الى الهند . ولكن لم أشبع في نفسي هذه الرغبة حتى الآن .

وأخذت ادرس تولستوى درساً عميقاً واسعاً حتى استوعبته . فكان لكثير من كتبه آثار في نفسي لن تزول . ومن هذه الآثار اعتقاد ان الحب المتبادل بين شعوب العالم ممكن التحقيق ، وان لتحقيقه ممكنات كثيرة يمكن اللجوء اليها في سبيل جعله عاماً بين الناس أجمعين . في ذلك الوقت بدأت علاقتي بأسرة نصرانية اخرى . وتحت تأثير

هذه العلاقة أخذت أشهد اجتماعات « كنيسة ويزلى » كل أحد، وكنا ننصرف من الكنيسة الى الغداء في بيتهم . غير ان الكنيسة لم تترك في نفسى أى أثر . ولم أكن أرى في الاجتماع من الروح الدينية شيئاً . فاني لم أشهد في المجتمعين روح التوجه الدينى والغمرة القدسية التى تشمل النفوس المتجهة الى الله . وكنت أرى في المصلين جمعاً من الناس بهظتهم المطامع الدنيوية ، وانهم لا يذهبون الى الكنيسة الا للتسلية أو بحكم العادة . فكنت اغنى في بعض الاحيان ويهوم برأى الناس ، فانتبه خجلاً ، ولكن كثيراً ما كنت أرى غيرى من النصارى قد اخذتهم الغفوة . فلم استطع الاستمرار طويلاً على هذه الحال ، فامتنعت عن الذهاب الى الكنيسة .

غير ان امتناعى عن الذهاب الى الكنيسة كان سبباً في أن تنقطع علاقتى توأماً بالاسرة التى كنت ازورها كل أحد . واستطيع أن اقول بأنى حسرت من أن أزورها . وإليك ما وقع . فان مضيقتى كانت سيئة طيبة السريرة صافية النفس ، ولكنها كانت ضيقة العقل ، وكنا كثيراً ما نتناول بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكنت في ذلك الوقت اعيد قراءة كتاب « ارنولد » نور آسيا . فاخذنا مرة تقارن بين حياة عيسى وحياة بوذا ، فقلت لها مرة انظرى الى رحمة « غوتاما » . انها لم تقتصر على النوع البشرى وحده ، بل تناولت كل الاحياء . ألا ترى ان الانسان يفيض قلبه بالحب اذ يفكر في حمل وديع مسكين يحمله فوق كتفيه ؟

وان الانسان ليعجز عن أن يجد مثل هذا الحب الشامل لكل الاحياء في حياة عيسى » - غير أن هذه المقارنة آلت السيدة الطيبة القلب كل ألم . واستطعت ان أدرك شيئاً من مشاعرها . فكففت عن الكلام وذهبت الى قاعة الطعام وكان لها ابن لم يتجاوز الخامسة حضر مناقشتنا . ومن طبعى ان أسر بعشرة الأطفال ، وكنت وهذا الطفل صديقين حميمين - فأخذت أدم قطعة اللحم التي كانت في صحنه وأمدح التفاحة التي كانت أمامي - فتأثر الطفل وأخذ يمدح الفواكه ويدم اللحوم .

ولكن الأم استنكرت هذا . فحذرتني أن أعود اليه . فغيرت موضوع الكلام مستقوياً على نفسي . وفي الأسبوع التالي ذهبت لزيارة الأسرة ولكن لحظت شيئاً جديداً من الامتناع . غير أني لم أفكر في الانقطاع عن الزيارة . غير أن السيدة سهلت لي الطريق فقالت لي - « يامستر غاندى . أرجو أن لا تمتنع إذا أنا صارحتك بأن طفلي لا ينتفع بصداقتك . لقد أخذ يتوانى في أكل اللحوم ويطلب الفواكه وذلك يذكرنى دائماً بمناقشاتك . وهذا كثير احتمال . فانه إذا امتنع عن أكل اللحوم يضعف ، وربما يمرض . فكيف أحتمل هذا . فأرجو أن تحصر مناقشاتك معنا نحن الكبار . لأننى متأكدة أن مناقشاتك هذه لها أثر سيء على الأطفال » . فأجبتها - « انى آسف . فانى أقدر شعورك كوالدة ، لأننى أيضاً لى أطفال . ومن الممكن أن تقف هذه الحال

عند حد ، ويجب إذن أن أمتنع عن هذه الزيارات ، دون أن يكون لذلك
أى تأثير على صداقتنا » . فشكرتنى بسرور ظاهر .
وعلى الرغم من أنى اقتحمت طريقاً لم يرده لى أصدقائى النصارى ،
فانى أشعر بأنى مدين لهم بما غرسوا فى من نزعة البحث الدينى .
وسأذكر على الدوام علاقتى بهم مقتبطين مسروراً . غير أن الأيام كانت
تجبالى من أمثال هذه العلاقات النفسية المقدسة ، كنوزاً أكبر مما
زودتنى به فى ذلك الحين .



الفصل الثامن

عنف الغوغاء في دوربان

في منتصف سنة ١٨٩٦ عدت الى الهند . ولما كان الحصول على بواخر من الناتال تقصد رأساً الى كالكوتا اسر من الحصول على بواخر تقصد الى بومباي ، سافرت على باخرة تقصد الثغر الأول . ذلك لأن الاجراء المتعاقدين كانوا يحرون الى جنوبي افريقية أما من كالكوتا أو من مدراس . وبينما كنت اقطع الطريق بين كالكوتا وبومباي ، تخلفت عن القطار فقضيت يوماً في « الله آباد » وهناك بدأت مهمتي في شرح الحالة في جنوبي افريقية . فزرت مستر تشسني - Chesniy - محرر جريدة البيونير « Pioneer » أى « الرائد » . فكلمني بأدب وعرفني بصراحة أن ميوله تتجه الى العطف على المستعمرين . ولكنه على الرغم من هذا وعدنى بأن يقرأ أى شئ أكتبه ويشير إليه في جريدته . وبهذا اكتفيت .

وفي أثناء اقامتي في الهند كتبت رسالة شرحت فيها حالة الهنود في جنوبي افريقية . فأشارت اليها كل الجرائد على وجه التقريب وطبعت مرتين . ووزع منها خمسة آلاف نسخة في كثير من أنحاء الهند

وفي أثناء هذه الزيارة أتيج لي أن أرى زعماء الهند ، وهيئت لي
الفرص العديدة التي أُلقيت فيها خطابات عامة في بومباي وپونا
ومدراس . وليس من قصدي أن أشرح هذه الأشياء باطناب ولكن
حسبى أن أذكر أنه بينما كنت في اجتماع عام في كالكوتا، وصلني تلغراف
من ناتال يسألني فيه مرسوله أن أعود إلى الناتال توجاً ، فقصر هذا الحادث
أمد زيارتي للهند . لأنني أدركت من هذا التلغراف أنه لا بد أن تكون
قد قامت حركة معادية للهنود ، فتركت عملي الذي بدأت في كالكوتا
غير كامل وذهبت إلى بومباي ، وركبت أول باخرة ومعى أمرتي . وكان
بيت « دادا عبد الله » قد اشترى الباخرة « كورلاندا » - Courland -
وبذلك أضاف هذا البيت إلى أعماله التجارية مخاطرة جديدة ، بأن
يكون له فوق البحار باخرة تمنخرها بين « پوربندار » وناتال . وتبعث
هذه الباخرة باخرة أخرى تدعى « ناديري » - Naderi - مملوكة لشركة
بواخر خليج المعجم ميممة شطر الناتال . فكان ركاب الباخرتين
يناهزون التمانعاة مسافر .

وكانت الدعوة التي نشرتها في الهند قد نالت من الاهتمام قدراً جعل
الجرائد الهندية تهتم بها وتفسح لها من أعمدتها وجعل روتر يرسل
اشارات برقية عنها إلى انجلترا . وهذا لم أعرفه إلا عندما وصلت الناتال .
وكان وكيل روتر في انجلترا قد أرسل برقيات إلى جنوبي افريقية لخص
فيها خطاباتي في الهند تلخيصاً مبالغاً فيه . ولم يكن هذا الأمر حديداً

I have made up my mind
to run the boldest risk
I have arrived at. This
is finite conversion is a
new life of deep & perpetual
thinking. I have revealed
it all to me. The nature of
the action is not yet clear
to me. It has to be civil
disobedience. Now it is to be
undertaken & begun in London
besides me. I have not yet
seen quite clearly. But
something comes that over-
lays one truth is coming
day by day & with fresh
force.

I hardly wanted to write
this when I began this letter.
But there you are.

Guerrilla passed delightful
time with me. He has
aged considerably. We came

أو غير عادى ، كما أن المبالغة فى تحويل الأخبار لا تكون مقصودة فى كل الأحوال . قالت الذين تثقلهم الأشغال والمسؤوليات ، يتعودون دائماً أن يقرأوا الأخبار قراءة سطحية وكثيراً ما تطنى عليهم ميولهم الشخصية وما يكون قد ثبت فى أنفسهم من أثر التحامل ، فاذا كتبوا ملخصاً لما يقرأون كان فيه أثر من مجمل هذا ، فيصبح جزء منه تتاجاً للوهم ولجرد التصور . ولا ننسى بجانب هذا أن الملخص يفسر تفسيراً مختلفاً باختلاف الأشخاص والأماكن . وبذلك يقع التشويه والتحريف من غير أن يقصد أحداً . وهذا هو المأزق الأكبر الذى يعتور الأعمال العامة . كما أنه السبب الذى يقيدها ويحددها فى أكثر الظروف .

لما كنت فى الهند وجهت إلى الأوروبيين فى ناغال انتقادات مرة . وتكلمت بجرأة ضد قانون ضريبة الجنيئات الثلاثة التى كانت تجبى من الأجراء المتعاقدين . وضربت مثلاً بما عانى أحد الأجراء المتعاقدين من الآلام وما لقي من القسوة ، وكان يدعى « سبراهنيام » تعدى عليه مؤجره اعتداء كبيراً . ولقد رأيت جراحه بعينى وكانت قضيته بين يدى أعنى بها أمام المحاكم . فلما قرأ الأوروبيون فى ناغال الملخص المشوه الذى نقله روتر عن خطبى ، سخطوا على وغضبوا منى أشد الغضب . فى حين أنى كنت كثيراً ما أكتب فى مثل ما كتبت فيه عندما كنت فى ناغال موجهاً انتقادات أمر مع ذكر أمثال أطول وأقطع من تلك التى ذكرتها فى خطاباتى فى كالكووتا . والحقيقة التى أشعر بها أن خطاباتى

في الهند كانت محوطة بروح الاحتياط حذر البالغة والتفريط . ولما كنت أعرف بالتجربة أن شرح حادثة لشخص غريب عنها قد يحدث فيه من الأثر أكثر مما نقصد أن ننقل إلى ذهنه منها ، عملت جهدي في أن أصف الموقف في جنوبي افريقية لاخواني الهنود بروح أكثر هوادة مما تجيز الحقائق الواقعة . ولكن قليلا من الأوروبيين كانوا يقرءون ما أكتب في نأال ، والذين كانوا يهتمون بها أقل من الذين يقرءونها . ولا شك في أن الحالة كانت تختلف اختلافا ظاهرا بين هذا وبين الأثر الذي أحدثته خطاباتي وكتاباتي في الهند . فان آلافا من الأوروبيين قرأوا بريات روتر التي لخص فيها أقوالى . وتجد من جهة أخرى أن موضوعا له من التقدير والاهمية أن تتناقله البرقيات ، تصيبه لأول وهلة حمى الاهتمام به لا أكثر مما يستحق . وظن الأوروبيون في نأال أن عملى في الهند له من الاهمية ما قدروه له في أنفسهم ، وان من المحتمل أن يلغى نظام الحصول على أجراء بالتعاقد معهم على العمل ، فيتأثر بالفسادة ماث من المزارعين الأوروبيين من جراء ذلك . فضلا عن هذا فانهم شعروا بأن أهل الهند أصبحوا ينظرون اليهم بمنظار أسود . وبينما كان الأوروبيون في نأال على ما وصفت من اضطراب العقل ، وصلتهم أخبار عودتى إلى نأال على ظهر الباخرة « كورلاند » ومعى ثلاثمائة أو أربعمائة مسافر من الهنود ، وان الباخرة « ناديرى » كانت على وشك الوصول في الوقت ذاته وعليها عدد لا يقل عن هذا ، فألهبهم

هذه الأخبار وزادتهم هياجاً ، وانفجرت براكين الشعور إلى أقصى حدودها . وعقد أوريو ناتال اجتماعات كبيرة ، حضرها في الغالب أكثر شخصياتهم ظهوراً ومنزلة . وكان المسافرون الهنود على وجه عام ، وأنا على وجه خاص ، موضع نقد مرير ، حتى لقد صور وصول الباخرتين كورلاند وناديرى إلى الناتال بمثابة « غزوة » هندية لتلك البلاد . وقال خطباؤهم انى أنا الذى أحضرت هؤلاء الثمانمائة من المسافرين إلى الناتال ، وان هذه هي الخطوة الاولى فى سبيل خطة مرسومة محصلها أنى أرى إلى اغراق الناتال بسيل عرم من مهاجرى الهنود الاحرار . وترتب على هذا أن يصدر المجتمعون قرارات يقضون فيها بأن لا يسمح للمسافرين ، وأنا أولهم ، بأن ينزلوا إلى الناتال ، وأنه فى حالة ما اذا عجزت الحكومة عن أن تمنع المسافرين عن النزول ، فان اللجنة التى كونت من الأوروبيين يكون لها الحق فى أن تنصح لأعضائها بأن يخرقوا القوانين ويمنعوا المسافرين عن هبوط أرض ناتال بالقوة . ووصلت الباخرتان إلى ناتال فى نفس اليوم الذى صدرت فيه هذه القرارات .

كان أول مظهر الطاعون الدملى فى الهند سنة ١٨٩٦ . فأخذ الأوربيون هذه الحقيقة ذريعة يتذرعون بها ليمنعوا عن الهبوط الى بر الناتال . ولقد ووجهت الحكومة بكثير من الصعاب القانونية . ذلك لأن قانون تحديد الهجرة لم يكن قد عمل به بعد . فى حين ان ميول الحكام

كانت كلها مع لجنة الأوربيين : يدلك على هذا ان مستر « اسكومب » Mr Escombe - وهو عضو ظاهر من أعضاء الحكومة قد اخذ بضلع كبير في الاجتماعات التي عقدتها هذه اللجنة . وهنالك قاعدة مقررة معترف بها في كل الثغور بأنه في حالة حدوث إصابة بمرض معد بين ركاب باخرة ، أو اذا كانت الباخرة آتية من ثغر موبوء ، فرض عليها أن تبقى تحت الحجر الصحي عدداً من الأيام . على أن هذا الخطر لا يمكن أن يفرض إلا على أساس صحي فقط ، وعلى مقتضى أوامر يصدرها الضابط الصحي في الثغر . غير أن حكومة ناتال أساءت استعمال سلطتها بأن فرضت هذا الخطر لأسباب سياسية . فعلى الرغم من انه لم تحصل إصابة بمرض معد ، حُجر على الباخرتين صحياً ، وظلتا تحت هذا الحجر مدة أطول مما يلزم إذ بقيتا على هذه الحال ثلاثة وعشرين يوماً . وفي أثناء هذه المدة كانت لجنة الأوربيين لاتى نشطة عاملة . حتى لقد نال الشركاء « دادا عبد الله » أصحاب الباخرة « كورلاند » ووكلاء شركة بواخر خليج العجم التي كانت تملك الباخرة « ناديرى » ، كثير من عنثهم وغطرستهم . ولقد استعملت مع أصحاب الباخرتين كل الرغبات لكي يقتنعوا بأن تعود الباخرتان بمن عليهما من المسافرين من حيث أتينا ، ثم هددوا بالمقاطعة والعطل عن العمل إذا هم لم يصدعوا بما طلب اليهم أو رفضوا ما عرض عليهم . ولكن الشركاء « دادا عبد الله » كانوا على جانب عظيم من الشجاعة . حتى لقد أجابوا بأنهم لا يبالون

إذا نزل بهم الخراب وحل بهم اللمار ، وانهم سوف يخوضون غمار المعركة حتى نهايتها المرة ، ولكنهم لا يقبلون أن يجبروا على ارتكاب جريمة شنعاء بأن تعود الباخرة بمن عليها من المسافرين الأبرياء في حالة لا معين لهم فيها . ولقد أظهروا بموقفهم هذا أن الوطنية لا تنقصهم . ولا أنسى أن أذكر أن محامي هذه المؤسسة وهو المستر « لوتون » كان رجلاً شجاعاً مقداماً .

وشاء الحظ أن يصل الى افريقية في ذلك الوقت هندي ذو مكانة هو السير « منشو هلال هيرالال نازار » وابن عم المرحوم « ناتابهاى هاريداس » القاضى المعروف . ولم يكن لى به من صلة ، كما أنى لم أكن أعرف أنه ذاهب إلى جنوبي افريقية . ولا حاجة لى لأن أذكر أنه لم يكن لى من يد فى احضار المسافرين الذين غصت بهم الباخرتان كورلاند وناديرى . فالكثيرون منهم كانوا من سكان جنوبي افريقية الأقدمين . كما كان الكثيرون منهم ذاهبين رأساً الى الترنسفال . ولقد أرسلت مذكرات تهديدية أرسلتها لجنة الأوروبين إلى هؤلاء أيضاً ، فقرأها عليهم قباطنة الباخرتين . وجاء فى هذه المذكرات صراحة أن الاوروبين الذين يقطنون ناتال كانوا فى هياج خطير وحالة خلقية مريئة ، فاذا حاول المسافرون الهنود على الرغم من هذا التحذير أن ينزلوا إلى البر ، فان رجال اللجنة الاوروبية سيكونون على المرفأ مستعدين لأن يلقوا كل من تمس قدماء منهم أرض ناتال إلى البحر .

فخرجت هذه المذكرة للمسافرين على ظهر الباخرة كورلاندا . وترجها لركاب الباخرة ناديري رجل هندي يعرف اللغة الانجليزية . وكانت النتيجة أن رفض ركاب الباخرتين العودة ، وأضافوا إلى ذلك أن الكثيرين منهم كانوا ذاهبين إلى الترنسفال ، وأن بعضهم من قطان ناتال المقيمين بها ، وأن لكل منهم الحق المطلق في أن ينزل إلى البر ، ولذا فانهم على الرغم من تهديدات لجنة الأوروبيين ، قد صمموا على النزول إلى البر ليعرفوا إن كان لهم الحق في ذلك ، أم أنهم حرموا قانوناً هذه الحقوق . ولقد بلغت حكومة ناتال آخر حدود الصبر على مثل هذه الحال الشاذة . فالى أى حد يمكن أن تسمح باستمرار مثل هذا الخطر غير القانوني ؟ كان قد مضى ثلاثة وعشرون يوماً ، من غير أن يلين الشركاء « دادا عبد الله » ومن غير أن ينكص السافرون أو تهزم شجاعتهم . ورفع الحجر الصحي بعد ثلاثة وعشرين يوماً وسمح للباخرتين أن تقلعا إلى المرفأ . وكان مستر « اسكومب » قد استطاع في هذه الأثناء أن يهدئ شيئاً من نائرة أعضاء اللجنة الأوروبية . فقال في إحدى الاجتماعات - « ان الأوروبيين في دوربان قد أظهروا من الاتحاد والشجاعة ما هو جدير بالثناء ، لقد فعلتم أقصى ما في استطاعتكم ، وساعدتكم الحكومة ، فحجز على الهنود ثلاثاً وعشرين يوماً ، استطعتم في أثناءها أن تعبوا عن شعوركم وعواطفكم وتظهروا رأيكم العام .

(م - ١٠)

ولا شك في أن هذا سيكون له أثره في حكومة الامبراطورية ، كما أنه جعل الطريق الذي سوف تسير فيه حكومة الناتال سهلاً معبداً . فلذا منعتهم بعد ذلك هنديا واحداً عن النزول إلى البر ، أضررتهم بمصالحكم ووضعتم الحكومة في موضع عسير ، وأوقفتموها في أخرج موقف . وحتى بهذا سوف لا يمكنكم أن تمنعوا هندياً واحداً من النزول إلى ناتال . فليس المسافرون جميعاً ممن يحق لنا أن نفضب عليهم أو نتقم منهم . وبينهم نساء وأطفال . ولما سافروا من بومباي لم يكن لديهم من علم بحقيقة شعوركم . فنصيحتي الخالصة لكم أن تفرقوا وأن لا تعلقوا هؤلاء الناس عن مغادرة الباخرتين . واني أؤكد لكم أن حكومة ناتال سوف تنال من المجلس التشريعي القوة الكافية التي تستطيع بها أن تقيد الهجرة إلى هذه البلاد » وليس هذا غير تلخيص لما قال مستر « اسكومب » . ولقد امتعض سامعوه ، ولكنه كان ذا نفوذ واسع على الأوروبيين في ناتال ، ففرقوا احتراماً لنصحه ودخلت الباخرتان إلى الميناء وألقتا مراسيهما على المرفأ .

وصلتني رقعة من المستر اسكومب ينصح لي فيها بأن لا أغادر الباخرة مع بقية المسافرين ، وأن أنتظر إلى المساء ، حتى يرسل إلى مراقب بوليس الميناء ليذهب معي إلى البيت ، وأضاف إلى ذلك أن أسرتي حرة في أن تنزل إلى البر في أي وقت تشاء . ولم يكن هذا بمثابة أمر بمقتضى القانون ، بل كان من باب النصيحة للقيطان لكي لا يسمح لي

بالنزول من الباخرة، وليعرفني الخطر الذي يعتورنى ولم يكن لدى القبطان من السلطة ما يجعله يعنى بالقوة من مغادرة السفينة ، ولكنى صممت على أن أقبل مقترحاته . فأرسلت أسرتى إلى بيت صديقى القديم وموكلى « پارسى رستوجى » وأخبرتهم بأنى سوف ألاقيهم هنالك . ولما نزل المسافرون من الباخرة حضر مستر « لوتون » مستشار دادا عبد الله وصديقى الشخصى لمقابلتى ، وسألنى لماذا لم أغادر السفينة ؟ فأخبرته بأمر ما كان من خطاب مستر اسكومب . فقال لى بأنه يحقت فكرة بقائى الى المساء وأن أدخل المدينة دخول لص أو خصيم . وأنى اذا لم أكن خائفاً ، أستطيع أن أرافقه فتسير إلى المدينة كما لو لم يكن قد حصل أى شىء . فأجبت به بأن الأمر لم يكن عن خوف من ناحيتى بل كان عن مراعاة اللياقة . والأدب فى أن أرفض أو أقبل مقترح مستر اسكومب . فابتسم مستر لوتون وقال - « ماذا فعل لك مستر اسكومب حتى تهتم بمقترحه ؟ وأى سبب يحملك على أن تظن أنه انما اقترح ما اقترح شفقة عليك ورحمة بك ، وليس الباعث عليه غرضاً آخر ؟ انى أعرف أكثر منك دقائق ما حصل بالمدينة وما كان من أثر مستر اسكومب فى الحوادث التى وقعت » . ولكنى قطعت عليه الحديث بإيماءة

غير أن مستر لوتون عقب على ذلك بقوله : « يمكننا أن نفرض أن مستر اسكومب قد كتب رقعة اليك مدفوعاً بأسمى البواعث ، ولكنك اذا وافقت على مقترحه أهنت نفسك . ولذا أنصح اليك ، اذا كنت

على استعداد ، أن تراقبني الآن . فالقبطان من رجالنا ، ومسؤوليته مسؤوليتنا . وهو غير مسؤول إلا أمام « دادا عبد الله » . واني لأعرف ما سوف يفكرون فيه ازاء هذا الأمر ، لأنهم أظهروا في هذا الصراع شجاعة يندر مثالها . - فأجبت- « دعنا نذهب اذن . وليس عندي تمهيدات أقوم بها . وكل ما على أن أضع عمامتي على رأسي . فلنخبر القبطان أولاً ثم نغادر الباخرة ؟ » . واستأذنا القبطان فأذن .

كان مستر لوتون محامياً قديماً واسع الشهرة في دوربان . وكنت قد عرفته وتوثقت بيننا عرى الصداقة . وكان من عادتي أن أستشيريه في القضايا التي آنس فيها صعوبة أو أوكله عني باعتباره أقدم مني بالمهنة عهداً وأوسع تجربة . وكان رجلاً شجاعاً قوى البنية مقتول العضل . أما طريقنا فكان يخرق الشارع الرئيسي في دوربان . ووافت الساعة منتصف الخامسة من المساء ، عند ما بدأنا في السير . وكانت السماء يكسوها غيم خفيف وكانت الشمس قد انحدرت نحو المغيب فلم تكن ترى . ولما شئى على قدميه أن يمضي ساعة بزمته حتى يصل الى بيت « پارسى رستوجى » . وكان الناس الواقفون على أرصفة المرفأ ليسوا أكثر عدداً من المعتاد . ولكننا بمجرد أن نزلنا من الباخرة لمحنا بعض الصبية . ولما كنت الهندي الوحيد الذى يلبس عمامة ذات طابع معين ، فسرعان ما عرفت ، وبدأ الصبية يصيحون « ها هو غاندى ! هنا غاندى ! حطموها غاندى ! أحيطوا بغاندى ! » وأقبلوا نحوى . وبدأ بعضهم يلقى

على الحجارة . وشاركهم بعد قليل أوريون أسن منهم ، وأخذت جماعة
الغوغاء المفتونين تزداد تدرجاً . وفكر مستر لوتون أن هناك خطراً
عديداً بنا إذا مضينا نسير على الأقدام ، فنأدى عربة يد لتقلنا . وحتى
الساعة لم أكن قد ركب عربة يد لأنى كنت أستعجن أن أستقل
عربة يجرها واحد من بنى آدم . ولكنى شعرت بأن واجبى أن أستخدم
عربة اليد لأول مرة . ولقد عالجت فى حياتى خمس أو ست حالات ،
وان شئت فقل تجارب ، استبنت منها ان الشخص الذى يريد الله له
النجاة لن يصيبه الضر ولو ألقى بنفسه فيه . وعلى الرغم من أنى نجوت
هذه المرة أيضاً ، فأنى ما شككت فى أن نجأتى لم تكن من عند نفسى
ولا بمهارتى . وكان الذى يجز العربة رجل من « الزولو » - Zulus -
فهده الصبيان والرجال الأورويون بأنه إذا سمح لى بأن أستقل عربته
فعقابه الضرب المبرح وتحطيم عربته . وسمنا من هذا « الزولى » كلمة
« خا » أى « لا » وذهب بعيداً عنا . فحمدت الله لأنى لم أحمل على أن
أخجل نفسى بأن أركب عربة يجرها فرد من أبناء آدم .

لم يصبح أماننا من مفر فى أن نمضى مشياً على الأقدام إلى حيث قصدنا .
وتبعنا الغوغاء . ولم نكن ننتقل خطوة حتى يزداد الغوغاء فى العدد .
وبما وصلنا شارع « وست » - West - حتى أصبح عدد المتظاهرين
مريماً . وتقدم رجل قوى الأعصاب من مستر لوتون وفرق بينه وبينى .
فأصبح فى موقف لا يستطيع فيه الدنومنى . وبدأ الغوغاء يسيئوننى

ويلقون على الحجارة ، بل وكل ما تصل اليه أيديهم . ورموا بعماتي إلى الأرض . ثم تقدم منى شخص بدين كثير الصياح وصفعى على وجهى وركبى بقدمه . وكنت على وشك أن أسقط على الأرض مغشياً على ، عندما أمسكت بحداثد منزل قريب منى . واستطعت أن أتففس برهة ، ولما ذهبت عنى نوبة الانغماء بدأت أسير فى طريق . وفى ذلك الوقت فقدت كل أمل فى أن أصل المنزل حياً . على انى أذكر جيداً انى حتى فى تلك الحالة لم أشعر فى قلبى بأية حفيظة نحو الذين يؤذونى .

بينما كنت أسير يبطء متهادياً مترنحاً فى طريقى ، كانت مسز « الكسندر » زوجة مراقب بوليس دوربان مقبلة فى الناحية الأخرى . وكانت بيننا معرفة وثيقة ، والحق أنها سيدة فيها شجاعة واقدام . فعلى الرغم من أن السماء كانت غائمة وقد انحدرت الشمس للمغيب ، فانها نشرت شمسيتهما لتقيني بها ومشيت الى جانبى . ومن عادة الاوروبيين ان لا يهينوا سيدة ، وعلى الأخص زوجة مراقب البوليس ، وهو رجل متقدم فى السن معروف عند الناس حق المعرفة محبوب لليسهم ، فكيف يفكرون فى ايذائها ؟ وكان لابد من ان تؤذى اذا هم صوبوا نحوى . لذلك أشعر بأن المضار التى لحقتنى بعد صحبتها كانت غير ذات بال . وكان مراقب البوليس قد عرف بأن الغوغاء تهاجمنى فأرسل بعض رجاله لحمايتى . وأحاط بى رجال البوليس . وكان مركز البوليس فى طريقنا . فلما وصلنا وجدت ان مراقب البوليس كان واقفا ينتظر قدومنا ، وعرض

على أن أحتفى بمرکز البوليس فرفضت وشكرته قائلاً . « لا بد لي من أن أصل الى حيث أقصد . واني لؤمن بعث أهل دوربان ايماناً بقداسة قضيتي . فشكراً لك على اهتمامك وارسالك رجال البوليس لمحايتي . واني لأشكر مسز الكسندر لانها ساهمت بأكثر من الواجب في سبيل سلامتي .

ووصلت بيت « رستوجي » من غير حادث آخر . وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله عندما وصلت . وأخذ طبيب الباخرة كورلاند يتمحن جروحي لأنه كان هنالك . فلم يجد في كثير من الجراح . ولكن كدماً كبيراً كان يؤلني أشد الألم . غير أني فضلاً عن هذا لم أترك لاستريح . فان آلافاً من الاوروبيين تجمهروا أمام منزل « رستوجي شيت » . ولما خيم الظلام شاركهم في تجمهرهم عدد من « الفتوات » ، وأرسلوا الى رستوجي شيت كلمة يقولون فيها بانه اذا لم يسلمني اليهم أحرقوا المنزل بمن فيه وأنا معهم . على ان رستوجي شيت كان هندياً من الذين لاتلين قناتهم . ولما علم مستر الكسندر مراقب البوليس بالحالة اختلط بالغوغاء ومعه عدد من البوليس السرى . واستحضر منصة ووقف عليها . ثم خدع الغوغاء بأنه سوف يتكلم فيهم ، وبهذه الخدعة استطاع أن يحتل باب منزل رستوجي حتى لا يستطيع أحد أن يفتحه ويدخل الى البيت ، وكان قد أوقف رجالاً من البوليس السرى في الأماكن الضرورية . وبمجرد أن وصل أمر أحد أتباعه أن يستخفي في زى تاجر

هندي بأن يلبس ملابس هندية ويصبغ وجهه ، حتى يستطيع أن يقابلني
وأن يحمل الى الرسالة الآتية: « اذا كنت تريد أن تنقذ صاحبك وضيوفه
وماله ، واسرتك شخصياً ، فاني أنصحك بأن تستخفي في زى كونستابل
هندي وتخرج من باب بيت رستوجي الخلفي ثم تندس مع رجل هذا
في الجمع الحاشد حول المنزل وتتسلل الى مركز البوليس . ان عربة
تنتظرك في منعطف الشارع . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع
بها أن أنقذك وأنقذ غيرك . ان الفوغاء في هياج حتى انه ليعتذر على أن
أحكم أهواءهم . فاذا كنت متردداً في اتباع مشورتي ، فاني أخشى أن
يهدم الفوغاء بيت رستوجي من أساسه . وهناك لا أستطيع أن اقدر
كم من الارواح سوف تزهق وكم من الاموال سوف تبعد . ولقد
أدركت الموقف بسرعة فاستخفيت في زى كونستابل وغادرت منزل
رستوجي . ووصلت أنا والضابط مركز البوليس في أمان . وفي ذلك
الوقت كان مستر الكسندر يماجن الفوغاء ويفنيهم أغنيات يستدعيها
الموقف حيناً ، ويتكلم فيهم حيناً آخر . فلما علم أنني بلغت مركز
البوليس ، انقلبت مجاته جداً وسأل :

- « ماذا تريدون ؟ »

- « نريد غاندى » .

- « ماذا تريدون أن تفعلوا به ؟ »

- « نحرقه » .

- « أى ضرر أحدث لكم ؟ »
- « لقد سود وجوهنا فى الهند ويريد أن يفرق الناتال بسيل من
الاجراء . »
- « وماذا سوف تعملون لو انه لم يخرج ؟ »
- « اذن نحرق المنزل . »
- « ان زوجه وأولاده هنا أيضاً . وهناك رجال ونساء غيرهم .
أفلا تنجّلون من أن تحرقوا نساء وأطفالا ؟ »
- « ان مسؤولية ذلك تقع عليك . اننا لا نريد أن تؤذى أى شخص آخر
ولذا نطلب اليك أن تسلمنا غاندى . »
- وهنا ابتسم مراقب البوليس فى هدوء وأخبر الغوغاء بأنى غادرت
منزل رستوجى ومررت فى وسطهم ووصلت إلى مأمن آخر . فصاحوا
معا . « هذا كذب ! هذا كذب ! » فأجابهم
- « اذا كنتم لا تصدقون مراقب بوليسكم المعجوز ، فأرجو أن
تنتخبوا لجنة من بينكم مكونة من ثلاثة أو أربعة أفراد . على أن يتعهد
الباقون أن لا يقتحموا المنزل ، فاذا لم تجد هذه اللجنة غاندى فى المنزل
عدتم بسلام الى منازلكم . انكم مهتاجون اليوم ، ولا تريدون أن
تطيعوا البوليس . وهذا مما يضعف الثقة بكم ، لا بالبوليس . لهذا تحايل
البوليس عليكم ، فأخرج فريستكم من وسطكم فخرتم الصقعة .
ولا شك فى أنكم لا تلومون البوليس على هذا . ان البوليس الذى

أقمتهم ليحافظ على النظام قد قام بواجبه .
ولقد خاطب مراقب البوليس الفوغاء بلباقة وقوة حتى استل منهم
الوعد الذى أراد . وعينت لجنة . وفحصت بيت رستويجى فحسباً
دقيقاً ، وأخبروا الفوغاء بأن مراقب البوليس صادق وأنه كسب منهم
الصفقة . وهنا امتعض الفوغاء . ولكنهم نفذوا عهدهم وانصرفوا من
غير أن يرتكبوا عبثاً . وكان وقوع هذا الحادث فى يوم ١٣ من يناير
سنة ١٨٩٧ .

...

فى صبيحة اليوم الذى رفع فيه الحجر الصخى عن الباخرتين ، قابلنى
مكاتب احدى صحف دوربان على ظهر السفينة . وسألنى عن كل شيء
وكان من السهل على أن أتصل من التهم التى وجهت الى وأن أقيم له
الدليل على ذلك بما أَرْضاه . ولقد أثبت له بأسهاب أنى لم أتورط فى أية
مخاللة ، وانى لم أفعل الا ما أعتقد أنه واجب على . وانى اذا توانيت
عن أن أظهر ما أظهرت ، فانى لا أكون جديراً بأن أسمى رجلاً . وظهر
هذا كله على صفحات الجرائد فى اليوم التالى . ولقد اعترف ذوو النهى
من الأوروبيين بخطئهم . وعبرت الصحف عن ميولها وعواطفها نحو
الأوروبيين وموقفهم فى ناتال ، ولكنها بجانب هذا دافعت عن موقفى
وعملى . وكان من وراء ذلك أن ازداد صيتى ذيوماً ، واكتسب الهنود
احتراماً ، حتى لقد ظهر أن الهنود ، ولو أنهم فقراء معذمين ، ليسوا

جبناء ، وأن التجار الهنود على استعداد لأن يجاهدوا ليحافظوا على احترامهم ومن أجل وطنهم ، من غير تقدير لما سوف ينزل بهم من خسائر . وعلى الرغم من أن الجالية الهندية كانت سوف تقاسى الآلام ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي نزلت ببيت « دادا عبد الله » ، فإن النتيجة اجمالاً كانت مفيدة . فإن الجالية الهندية استطاعت أن تتمتعن قوتها ، وبذلك زادت ثقتها بنفسها . وأنا شخصياً قد استفدت من هذه التجربة ، حتى أنى ما فكرت في ذلك اليوم إلا وشعرت بأن الله كان يهيئني لأن أضع « الستياجراها » موضع التنفيذ . ولقد كان لحوادث ناتال هذه صدى تردد في انجلترا ، فإن مستر تشامبرلين وزير المستعمرات أبرق الى حكومة ناتال يسألها أن تحاكم الذين آذوني وأن يأخذ العدل مجراه في مسألتى .

وكان مستر اسكومب مدعياً عمومياً في حكومة ناتال فاستدعاني اليه وأطلعني على برقية مستر تشمبرلين . وأظهر أسفه لما نالني من الايذاء ، كما أبدى سروره من أن نتائج مطاردتي لم تكن أشد مما كانت . وأضاف الى ذلك - « انى أوكد لك بأنه لم يكن من قصدى أن تؤذى أو يؤذى أى شخص من أفراد جاليتكم . ولأنى خفت من أن ينالك الأذى ، أرسلت اليك رقعتى ناصحاً بأن لا تغادر السفينة الا مساء . فلم تحب أن تأخذ باقتراحى . وليس من قصدي أن أوجه اليك أى لوم في أنك أخذت بنصيحة مستر لوتون . فإن من حقك أن تعمل كل ما تراه صواباً .

وحكومة ناتال تقبل كل طلبات مستر تشامبرلين بمخافيرها ، وترغب في أن يقف مهاجوك موقف الاتهام . فهل يمكنك أن تستدل على أى شخص من الذين هاجوك ؟

فأجبت بآنه ربما كان في امكانى أن اعين شخصاً أو اثنين منهم ، ولكنى صممت تصميماً قاطعاً على أن لا أشكو أحداً . فان كل المعلومات التى تلقاها مهاجى انما تلقوها من رؤسائهم وزعمائهم ، وانه لكثير أن يطلب الانسان من غوغاء أن يحكموا فيما اذا كانوا على صواب أو على خطأ . فاذا كان كل ماسمعوا عنى صحيحاً ، فمن الطبيعى أن يهتاجوا وأن يرتكبوا شيئاً من الخطأ في ثورة من الغضب . وان الجماهير المستاءة الصاخبة كثيراً ما حاولت أن تنفذ العدالة بهذه الكيفية . واذا كان لى أن ألوم احداً فاني انما ألوم لجنة الاوروبيين . وربما يكون روتر قد نقل أخباراً مشوهة . ولكن زعماء الاوروبيين لما علموا بقدمى الى ناتال ، كان من الواجب عليهم وعلى اللجنة أن تسألنى في الشكوك التى ساورتهم من جراء أعمالى في الهند .

فأجبنى مبستر اسكومب قائلاً : « انى أفهم ماتقول حق الفهم ، وانى لاحترم أقوالك وأقدرها . انى لم أكن مستعداً لأن أسمع منك انك لا تريد أن تحاكم الذين آذوك وهاجوك . وانى ما كنت لاشعر بأية غضاضة من أن تطلب محاکمتهم . ولكن بما أنك أبديت تصميمك على أنك لا تريد أن تحاكمهم ، فاني لا أتردد في أن أقول لك بأنك لم

تصل الى رأى الصائب فى الموضوع لاغير ، بل أقول لك بصراحة بانك بهذا سوف تقدم لجاليتك خدمات أكبر مما قدمت لها، بما تبدى من القدرة على ضبط النفس . وكذلك يجب على أن أصرح فى الوقت ذاته بان رفضك أن تحاكم الذين آذوك سينقذ حكومة ناتال من أن تقف موقفاً من أسوأ ماتصور . ولو أردت أن تحاكمهم، فاذن تضطر الحكومة الى القبض عليهم ، ولكن لاينحى عليك أن الاوربيين سوف يحتاجون لهذا العمل وسوف يكون سيئاً فى قيام عاصفة من النقد المرير لا يمكن لاية حكومة أن تواجهها. ولكنك اذا كنت قد صممت نهائياً على أن لا تحاكمهم ، فعليك اذن أن تكتب لى مذكرة تفيد ذلك . على انى لا أستطيع أن أدافع عن حكومتى بأن أرسل الى مستر تشامبرلين ملخصاً عن حديثك هذا . فانى سوف أرق له ملخصاً من مذكرتك التى سوف تكتبها . على أننى لا أطلب منك أن تكتب لى هذه المذكرة الآن ، فالأوفق أن تستشير أصدقاءك . وخذ رأى مستر لوتون . واذا رأيت انك بعد استشارتك هذه لاتزال مصمماً على ما ترى الآن، فاكتب الى . ولكن يجب أن تبين فى مذكرتك بجلاء بأنك ترفض تحت مسؤوليتك الشخصية أن تحاكم الذين هاجموك . فى هذه الحالة فقط أستطيع أن اتفع بما تكتب » .

فقلت له - « لم يكن عندى أية فكرة فى أنك أرسلت الى لتخاطبني

في هذا الشأن . ولم أستشر أى انسان في هذا الموضوع ، ولا أريد أن
أستشير أى شخص الآن . فانى لما صممت على أن أبارح الباخرة وأسير
مع مستر لوتون ، كنت قد هiyأت نفسى على أن لا أحزن أو أمتعض
إذا نالنى أذى . فاعتبر اذن أن محاكمة الذين آذونى أمر خارج عن
موضوع المناقشة . ان هذا عقيدة دينية ثابتة فى نفسى . »

وبعد أن فهِت بهذه الكلمات تناولت ورقة بيضاء وكتبت له
ما أراد وسلمتها اليه .



الفصل التاسع

حرب البوير

لما قامت حرب البوير في سنة ١٨٩٩ واجه الهنود في جنوب افريقية حالة دقيقة، بل مشكلة نشأت عن التساؤل في الجانب العملي الذي يقومون به ازاء الحرب . أما البويريون فقد اشتبك كل الذكور منهم في الحرب وحملوا السلاح . فترك المحامون مكاتبهم والمزارعون حقولهم والتجار متاجرهم والخدم وظائفهم - أما الانجليز فلم يشترك رجالهم في الحرب بالنسبة التي اشترك بها رجال البوير . غير أن عدداً كبيراً من غير رجال الحرب في مستعمرة الكاب والناثال ورودريشيا تقدموا متطوعين لخوض غمار الحرب . وتبعهم في ذلك كثير من المحامين ذوى المكانة والتجار ذوى الأموال والسمعة الحسنة . وكانت احدى التهم الموجهة الى الهنود أنهم لم يهبطوا جنوب افريقية إلا ليلتروا الأموال وأنهم عبء ثقيل وكمية ميتة يحملها الانجليز على أكتافهم . بل شبهوا بالديدان التي تعيش في جوف الخشب لتأكل منه اللباب، وأنهم لا يعنون من مصالح جنوب افريقية بشيء الا تعمير جيوبهم . بل انهم لا يقومون بأية توضحية حتى ولو غزيت البلاد أو هوجمت منازلهم وانتهكت حرمانتها . وفي هذه

الحالة لا تصبح مهمة الانجليز قاصرة على الدفاع عن أنفسهم ، بل يتلو ذلك أنهم يضطرون الى حماية الهنود . ولقد بدأنا نفكر في هذه الاعتبارات ، وشعرنا جميعاً بأن هذه فرصة سانحة يمكننا أن نبرهن فيها أن هذه التهم لأساس لها ، ولكن انتهينا من التفكير في الأمر بالنتائج الآتية :

« ان الانجليز يستبدون بنا ويضطهدوننا بقدر ما يفعل البوير . واذا كنا نتعرض الى صعاب ومتاعب في الترنسفال ، فإن حالنا في الناتال ليس بأقل منها في تلك ، أوفى مستعمرة الكاب ، صعوبة وقسوة والفرق ، ان كان هنالك فرق ، فانه يتناول الدرجة ، ولا يتناول الصفة . وفضلا عن هذا فاننا لسنا بأكثر من جالية من الارقاء . وبما اننا نعرف ان البوير ، وهى أمة صغيرة ، انما تحارب دفاعا عن حريتها ، فلماذا نشترك في حرب تمجّل بدمارها ؟ وفوق كل هذا لا يمكن لأحد أن يتكهن بأن البوير سوف يهزمون . واذا انتصروا فلا شك في أنهم سوف ينتقمون » وكان من بين الهنود جماعة قوية تؤيد هذه النظرية بحماسة . وكنت أفهمها جيداً وأزنها الوزن الكافى . ولكن مع ذلك لم اقتنع فرفضت الأخذ بها وأثبتت للجالية رأى كالآتى :

« ان وجودنا في جنوب افريقية يتوقف على أننا من رعايا بريطانيا . وما علينا لنعمل تحت هذا العنوان في كثير من الظروف لنحقق هذا الأمر عملياً . وكنا نفخر دائماً برعويتنا البريطانية ، وألقينا في روع رجال الحكومة ، كما أقنعنا انفسنا ، بأن من دواعى الاغتياب ان نشعر

بهذه الفخرة . وان قليلا من الامتيازات التي تتمتع بها انما تتمتع بها تحت عنوان اننا بريطانيون . وانه لمن أنكى مايصيب كرامتنا باعتبارنا أمة ، ان نقف مكتوفى الأيدي ننظر بجمود الى الخطر الداهم يواجه الانجليز ويواجهنا معهم ، لأنهم يسيئون معاملتنا . وهذا الموقف السلبي الاجرامى ، من شأنه أن يضاعف متاعبنا . فاذا فاقتنا هذه الفرصة التي جاءتنا عرضاً ، لنبرهن من طريقها على فساد التهم التي نعتقد نحن انها غير صحيحة ولا أساس لها ، فاننا انما نقف بذلك موقف من يقدم نفسه للاتهام وييده وثيقة الاثبات . ولا عجب بعد هذا اذا أمعن الانجليز في اساءتنا وفي النظر اليها نظر الاحتقار والامتهان أكثر مما يفعلون . اننا لاشك نكون مخطئين . أما قولنا بأن التهم التي توجه اليها لا أساس لها وفاسدة لدى الواقع وانها لم يقم عليها برهان واحد ، فليس له من معنى الا اننا نخدع أنفسنا . قد يكون في القول بأننا في الامبراطورية لانزيد عن اننا عبيد لآراء قوة ، غير اننا عملنا حتى الآن على أن نحسن مركزنا ، وظللنا عاملين لهذا ونحن في حضن الامبراطورية . ولقد كانت هذه سياسة زعمائنا في الهند دائماً ، كما هي سياستنا . أما اذا رغبتا رغبة حقيقية في أن ننال حريتنا وأن تتمتع بتحسين أحوالنا وتزيد رفاهتنا كأعضاء في الامبراطورية ، فها هي أمامنا الفرصة الذهبية نتهمزها بأن نساعد الانجليز في الحرب بكل الوسائل التي تصل يدنا اليها . وعلى الرغم من أنه يجب

علينا أن نذعن الى الاعتقاد بحقيقة أن العدل يؤيد البوير ، فان بجانب هذا يجب أن نفكر في أنه ليس من حق كل فرد يتمتع برعوية دولته ان يفرض عليها الأخذ برأيه في كل الحالات . ان السلطات لا يمكن أن تكون دائما على صواب ، ولكن مادام أن الرعايا يدينون بالطاعة للحكوماتهم ، فان واجبهم على وجه عام يقضى عليهم بأن يعاونوا الحكومة بأنفسهم ، وان يدعونا لوجهة نظرها .

« وفضلاً عن هذا كله فاني أرى انه اذا رأيت طائفة من الرعية ان عمل حكومتها لا يتفق وآداب الدين ، فهناك يجب عليهم ، قبل أن يتقدموا بمساعدتها أو معاندتها، ان يحاولوا اقناع رجال الحكم بالاقلاع عن خطيئتهم ولو تعرضت حياتهم للخطر. على اننا لم نقم بعمل كهذا. بيد اننا لا نشعر بمثل هذا الجرح النفسى في الحالة القائمة الآن ، وليس لأحد منا أن يقول اننا انما نرغب في الاعتماد عن الاشتراك في هذه الحرب لمثل هذا السبب الاجماعى . فواجبنا الطبيعى باعتبارنا أعضاء فى الامبراطورية ، ان لا نناقش فى احتمالات الحرب وتقديراتها ، بعد أن نشبت الحرب فعلا ، بل ان نشترك فيها ونساعد بقدر ما يصل جهدنا. واذا فرضنا أخيراً انه فى حالة انتصار البوير وانتصار البوير فى حدود الاحتمال الآن- تكون حالتنا فى النهاية اسوأ منها فى الابتداء، وان البوير سوف يزلون بنا اقسى، الانتقام، ونكون بهذا قد ظلمنا البوير الشجعان وظلمنا أنفسنا. واني لأرى أن التفكير فى مثل هذا ضياع ، ولا يكون له من معنى الا التعبير عن

خنوثتنا وضعفنا وانهاماً لولائنا . وهل يفكر انجليزى واحد الآن فيما
يحتمل أن يحدث فيما لو خسرت انجلترا الحرب ؟ وان رجلاً على وشك
الاشتباك فى حرب دامية ، لا يمكن ان يفكر فى مثل هذه الوجوه ،
إلا ويكون خائفاً لرجولته . »

ولقد قبل الكثيرون وجهة نظرى غير أن المسألة العملية بدأت
تواجهنا . فمن ذا الذى سوف يلقى بسمعه لصوت الهنود الضعفاء فى
وسط هذه الجلبة الدامية التى تبعثها هذه الحرب الشواء ؟ ولم يكن أحد
منا قد استعمل من قبل سلاحاً من أسلحة الحرب . وحتى الأعمال التى
يمكن أن يقوم بها غير المحاربين تحتاج إلى مرانة وتدريب . وليس منا
من يعرف كيف يسير بنظام حربى . كما أنه ليس من السهل الهين أن
يمشى الانسان مسافات بعيدة واحماله على ظهره . وقد يعاملنا البيض
باعتبارنا « اجراء » - Coolies - أو يسبوننا أو ينظرون إلينا نظرة
احتقار . فكيف يمكن احتمال هذا كله ؟ وإذا تطوعنا للخدمة ، فما هى
الطريقة التى تقنع بها الحكومة على أن تقبل منا هذا العرض ؟ وبعد
نقاش انتهينا إلى رأى الأخير . ومحصله اننا إذا كانت لدينا الارادة ،
فان الله سوف يهبنا القدرة على أن نخدم فى الحرب ، وإنه لا يلزمنا أن
نعتب أنفسنا بالتفكير فى كيفية القيام بما يعهد إلينا من الأعمال ، بل
يجب علينا أن ندرب أنفسنا على القيام به إلى الغاية التى تصل إليها
استطاعتنا ، واننا مادامنا قد صممنا على أن نخدم فى الحرب ، فالواجب

أن نمسك عن النظر في تفضيل أى من الأعمال التى يعهد إلينا بها ،
وأن نفضى حتى عن السباب إذا وجه إلينا .

ولقد واجهتنا صعوبات شديدة فى سبيل أن يقبل طلبنا من جانب
الحكومة . وقصتنا فى هذه الناحية طلية مسلية ، ولكن ليس هنا
موضع سردها . ويكفى أن أشير هنا إلى أن زعماءنا تدبروا على العناية
بالجرحى وتمريض المرضى ، وحصلوا على شهادات طبية بصلاحياتهم
للعمل وأرسلوا خطابا للحكومة بذلك . ولقد أحدث هذا الخطاب كما
أحدثت رغبتنا الأكيدة فى خدمة أغراض الحرب فى أية ناحية تريد
الحكومة أن توجهنا فيها ، أثراً عميقاً . فشكرتنا الحكومة فى خطاب
رسمى ، ولكنها رفضت ما عرضنا عليها مبقية على ذلك إلى حين . غير
أن البوير قد استمروا فى تقديمهم كما لو كانوا سيلا محتاجا ، وخيف أن
يلغوا دروبان . وتكدس الجرحى والقتلى فى كل مكان . وكنا نجد
ملتصنا حيناً بعد حين ، وفى النهاية سمحت الحكومة أن نكون ماسمى
فما بعد « فرقة الأسعاف الهندية » . وكنا أبدينا رغبتنا فى أن نقوم
بعمل النظافة فى المستشفيات ونتمهدها بالكس و نقل الأوساخ . فلا
عجب أن يكون تكوين فرقة اسعاف منا فكرة تقابل بكل ارتياح .
واقترحنا أن ينضم إلينا الهنود الأجراء ذوى العقود . ولما كانت
الحكومة فى احتياج اذ ذاك الى أكبر عدد ممكن من الرجال ، اتصل
رجالها بالذين لديهم أجراء من ذوى العقود ، كى يسمحوا لرجالهم

بالتطوع . وبذلك استطعنا أن نكون فرقة للأسعاف عظمية القدر مكونة من ١١٠٠ هندي غادرت دوربان الى خطوط النار . ولما عزمنا على المسير تلقينا من مستر اسكومب - الذى يعرفه القارىء من قبل - رسالة يبلغنا فيها تحياته وتبريكاته ، وكان اذ ذاك رئيس التطوعين الأوروبيين فى ناتال .

وكان عملنا هذا مادة متجددة تغذى جرائد جنوبى افريقية، بل كان رسالة جديدة من الهنود لأهل تلك البلاد ، لأنه لم يكن يتوقع أحد أن الهنود سوف يشتركون فى هذه الحرب بأى عمل مهما كان نوعه . وكنا فى البدء قد تلقينا دروسنا الأولية فى الأسعاف الوقتى على الدكتور « بوذ » فرافقنا الى الميدان باعتباره مراقباً صحياً . وكان من رجال الدين الأتقياء، وعلى الرغم من أن عمله كان قاصراً على الاختلاط بالمسيحيين من الهنود ، فإنه أخذ يخاطب الهنود جميعاً من كل نخلة ودين . وكان فى الميدان فرقة اسعاف أوربية بجانب الفرقة الهندية ، وعمل كلاهما معاً فى مكان واحد .

وسرعان ما تراكت علينا الأعمال ، وكانت أعمالاً أشق مما تصورنا . فان حمل الجرحى من الميدان سبعة أو ثمانية أميال كان جزءاً من عملنا اليومى . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن نضطر الى حمل جنود وضباط بالغة جراحهم ، مسافات بعيدة قد تبلغ بعض الأحيان خمساً وعشرين ميلاً . وقد نبدأ بالسير الساعة الثامنة صباحاً ، ونعنى

خلال الطريق باعطاء الجرحى جرعات من العقاقير ، ونواصل السير فلا نصل الى المستشفى الا في حدود الخامسة مساء . فلا شك اذن في أن العمل كان شاقاً مضنياً . وحدث مرة أن اضطررنا أن نحمل جرحى على أكتافنا ونسير بهم خمساً وعشرين ميلاً في يوم واحد . أضف الى ذلك أن الجيش البريطاني أصيب بفشل تلو فشل في بداءة الحرب ، وجرح منه الكثيرون . ولهذا كان من رأي الضباط أنه من الضروري أن يقلعوا عن فكرة عدم دخولنا الى خطوط النار . ولكن يجب أن أقرر هنا أنه عندما قامت مثل هذه الضرورة ، أخبرنا أن عقود التطوع تنص على أن نكون في حمى من مثل هذا الخطر ، فلم يكن لدى الجنرال « بولر » - Buller - فكرة أن يجبرنا على أن نعمل في خطوط النار ما لم نكن على استعداد لأن نقبل العمل في مثل هذا المأزق باختيارنا ، واذ ذاك يكون قبولنا أمراً يقابل بمنتهى الشكران والحمد . وكنا جميعاً في توق لأن ندخل منطقة الخطر ، ولم نرغب في أن نعمل خارجها منذ بدء عملنا . ولهذا سررنا بالفرصة السانحة . ولحسن الحظ لم يصب أحداً بجرح سواء أمن الرصاص أم من أى شيء آخر . وعلى الرغم من أن فرقنا كثيراً ما كانت تتصل باعضاء فرق الاسعاف المؤقتة المكونة من الأوربيين أو تحتك بالجنود الاوربية ، فلم يشعر واحد منا أن الاوربيين أساءوا معاملته أو تصرفوا معه بشيء من الشذوذ . وكانت فرق الاسعاف المؤقتة مكونة من الأوربيين المقيمين في جنوبي افريقية ، وكلهم من الذين

أخذوا بضلع في الدعوة التي قامت ضد الهنود قبل الحرب . فلما عرفوا أن الهنود نسوا هذه الاساءات ، وانهم هبوا للعمل الى جانبهم في وقت الحاجة ، شعروا من أعماق قلوبهم بالمعطف والمحبة . ولقد نوه الجنرال « بول » بأعمالنا في بلاغاته ، ونال السبعة والثلاثون رئيساً الذين كانوا يقودون الفرق مداليات حربية اعترافاً بفضلهم .

ولما تمت أعمال الجنرال « بول » في انقاذ بلدة « لادى سميث » حلت فرقنا كما حلت الفرق الأوروبية . ولقد استمرت الحرب طويلاً بعد ذلك . وظللنا على استعداد لأن نشترك فيها ، حتى لقد ذكر في أمر تسريح الفرق ان الحكومة لا تني عن دعوتنا للعمل إذا وقع ما يستدعي القيام بأعمال واسعة النطاق .

وأرى من الواجب أن أذكر حادثة ذات شأن في هذا الموطن . فقد كان في « لادى سميث » عندما حصرها البوير وهددوها عدد قليل من الهنود ، فضلاً عن كان بها من الأوروبيين . وكان بعضهم يتعاطى التجارة ، بينما كان الآخرون من الأجراء ذوى العقود يعملون في مد السكك الحديدية أو كخدم لبعض الانجليز . ومن بينهم من يدعى « باربوسنغ » وكان يكنى دائماً بالأجير - Coolie - وبالقرب من بلدة « لادى سميث » وضع البوير على تل مدفعا من مدافع الميدان ، هدد المدينة بالدمار ، واستطاع أن يهدم بعض المباني ويذهب ببعض الأرواح . وكان لابد من أن تمر دقيقة أو دقيقتان قبل أن تصل كرة هذا المدفع إلى هدف

سددت اليه . فاذا أمكن أن ينذر السكان بان المدفع أطلق قبل أن تصل كرتة إلى حيث سددت ، أمكن للآهليين أن يحتموا ، وبذلك يدرون عن أنفسهم الخطر . فكان « باربوسنغ » يجثم على شجرة قريبة من البلدة طيلة الوقت الذي كان يستعمل فيه المدفع لتهديدها ، وعيناه تنظران إلى التل ، ويقرع جرساً في اللحظة التي يلمح فيها نار المدفع . فاذا سمع السكان الجرس احتموا حالا ونجوا بأنفسهم من كرة المدفع التي ينذرهم « الأجير » بأنها أطلقت لتحصد أرواحهم .

ولقد نوه الضابط الذي كان معهودا اليه أمر الدفاع عن « لادى سميث » بأعمال « باربوسنغ » فقال انه كان يقوم بعمله بكل نشاط وحماسة ، حتى انه لم يخطئ مرة في أن يقرع الناقوس كلما أطلق المدفع . ولا حاجة بي الى القول بأن حياته كانت دائما في خطر طيلة عمله هذا .



الفصل العاشر

الطاعون الأسود

فى «جوها نسبرج» ، حيث أقمت بعد أن وضعت حرب البوير أوزارها ، أخذت أعمالى القضائية ترداد وتتضاعف . وذات مرة كان عندى أربعة كتبة من الهنود ، ليس من الصعب على أن أقول أنهم كانوا أقرب لأن اعتبرهم كأولادى منهم ككتبة مأجورين . ومع هذا فإنهم لم يكفوا للقيام بالعمل .

وبلغ بى الجهد منهاء . فترا كمت على الأعمال ، حتى خيل الى انه من الصعب على مهما جهدت نفسى ، ان أقوم بأعمال مهنتى وأعمالى العامة . وشعرت انى أميل الى استخدام كاتب أوروبى . ولكنى لم أكن على ثقة بأن أجد رجلا أو امرأة أوروبية تخدم رجلا من ذوى الألوان مثلى . غير إنى صممت على أن ابحث . فانصلت برجل مهنته أن يقدم الكاتبين على الآلة الكاتبة لمن يطلب أحداً منهم . وكنت أعرفه من قبل ، وسألته أن يبحث لى عن كاتب يعرف الاختزال اذا كان ذلك فى مستطاعة . وكان لديه عدد منهم ووعدنى بأنه يجتهد فى أن يجعل أحدهم يقبل العمل معى . ووقع على فتاة إيقوسيه تدعى مس «دك» - Miss Dick . كانت قد وصلت من ايقوسيا فى تلك الآونة . ولم تكن تأنف من أن

تحصل على عيشها بطريق شريف اينما وجد العمل ، وكانت في حاجة .
فأرسلها المتعهد الى وبأسرع مما كنت اتصور استطاعت أن تملكني
- « انك لاتأفنين من أن تخدعي رجلا هندياً . »

فأجابتنى بحزم « أبداً »

- « ماذا تطلبين أجرا على عملك . »

- « هل تظن ان سبعة عشر جنيهاً ونصفاً يكون مرتباً كبيراً جداً ؟ »

- « لا أعتبر انه كبير جداً اذا كنت تستطيعين أن تؤدى ما أطلب

من الأعمال . ومتى تبدئين ؟ »

- « الآن اذا أردت . »

فسررت من أجوبتها ، وبدأت املئ عليها خطابات . وقبل ان يمضي

زمن طويل بدأت أشعر بأنها أصبحت في منزلة ابنة أو أخت لى أكثر

من كاتبة . وقبلما كنت اجد أى خطأ يستحق الملاحظة على عملها

معى . وكنت أعهد إليها غالباً بمراقبة الحسابات وكانت تبلغ بضعة آلاف

من الجنيهات ، كما جعلتها أمينة على دفاتر الحساب . ولقد نالت ثقتى

الثامة ، وزادت العلاقة بأن جعلت تطلعنى على أفكارها وميولها .

واستشارتنى فى مسألة اختيار زوج لها ، فأخليت سبيلها مغتبطاً لتزوج .

وبعجود ان أصبحت مس « دك » مسز « مكدونالد » تركت العمل

معى . ولكن كثيراً ما كانت تلبى كل ما أطلب منها اذا اضطررتنى

الظروف أن ألجأ اليها .

وكانت لدى ضرورة في أن تحمل محلها كاتبة أخرى ، وساعدنى الحظ في أن أجد فتاة أخرى تدعى مس «شلسين» - Miss Schelsin - قدمها إلى مستر «كلنباخ» . وهى الآن رئيسة مدرسة البنات فى الترنسفال ولم تكن تتجاوز السابعة عشرة عندما قدمت إلى . على أن بعض ميولها وزعاتها كانت أكثر مما يمكن أن أحتمله أو يحتمله مستر «كلنباخ» . وقد أخذت تعمل لتتعلّم أكثر مما تؤدي عملاً . غير أنها لم تكن مصابة بمرض اللون . ولم تكن لتقيم أى اعتبار لا للسن ولا لتجارب الحياة . قائمها لا تتأخر عن أن تهين أى رجل وأن تصارحه برأيها فيه . وكثيراً ما كانت توقعنى بهورها واندفاعها فى مآزق حرجة ، ولكن كان فى مزاجها من الصلوق والاخلاص ما يكفى لأن يذهب بكل أثر قد يخلقه تصرفها .

وكانت تضحيتها كبيرة . فقد ظلت زمناً طويلاً لا تتناول أكثر من ستة جنيهات كل شهر ، ورفضت أن تأخذ أكثر من عشرة جنيهات . ولما أردت أن أحملها على أن تأخذ أزيد من هذا المبلغ كانت تردنى دائماً قائلة - « انى لم أوجد هنا لآخذ مرتباً منك . انى انما أعمل معك لأنى أحب أن أعمل معك وأحب مثلك السامية لا أكثر » . وكانت شجاعته لا تقل عن تضحيتها . أنها من النساء القلائل اللاتى عرفهن ففرفت فيهن خلقاً أنقى من البلور وشجاعة تتضاءل بجانبها شجاعة الفرسان . ولقد أصبحت الآن امرأة متقدمة فى السن . ولست أعرف

من أفكارها الآن بقدر ما كانت تعمل معي ، ولكني لا أتوانى عن القول بأن صلتى بهذه السيدة ستظل من الذكريات المقدسة عندي . ولهذا أعتقد انى انما أكون خائفا للحق اذا أنا حاولت أن أخفى شيئا مما أعرف عنها . لم تكن تفرق بين الليل والنهار فى العمل للغرض الذى أخدمه . كانت تخاطر بالخروج فى جنح الظلام لتأدية بعض الخدمات وحيدة وترفض بفضب أن يخرج معها أحد لحراستها . وتطلع اليها ألوف من الهنود الاشداء والشجعان يستوحونها النصيح والهداية . وفى أثناء القيام بحركة « الستيا جراها » Satyagraha سجن جميع الزعماء على وجه التقريب فقادت هى الحركة بمفردها ومن غير معين . فكانت تقود الألوف وترد على عدد عظيم من المراسلات وتقوم بشؤون جريده « الرأى الهندى » - Indian Opinion - وتحمل كل هذا على أكتافها من غير أن تشكو نصبا أو تشعر بملل .

وكان « جوكهال » - أحد زعماء الهند - يعرف كل الذين يتصلون بى فى العمل ويشاركوننى فيه . ولقد امتدح الكثيرين منهم وقدر أعمالهم . ولكنه أعطى المقام الاول لمس « شلسين » وفضلها على كل الذين كانوا يعملون معى من أوروبيين وهنود . فقال لى « قلما وقعت على مثل التضحية أو الشجاعة أو الزهد الذى رأيت فى مس « شلسين » . انها تستحق المقام الأول بين كل الذين يعملون معك » . وفى ذلك الوقت تقدم إلى السيد « مدنجيت » بفكرة إصدار

« الرأى الهندى » وأراد أن أشير عليه فى الأمر . وكانت فى يده مطبعة يديرها فوافقت على مقترحه ، وصدرت الجريدة فى سنة ١٩٠٤ وعلى رئاسة تحريرها السيد « منشو خلال نازار » . ولكن كان على أن أحمل عبء العمل كله ، لأنى كنت أغلب الاحيان أتقدم بحمل المسؤولية عن كل ما يتعلق بالجريدة . ولم يكن هذا لأن السيد « منشو خلال » لم يكن قادراً على القيام بأعبائها ، فانه كان يقوم بعمل صحفى واسع النطاق فى الهند ، بل لأنه لم يكن يتقدم للكتابة فى المسائل المتعلقة بجنوب افريقية مادمت موجوداً . وكان له الثقة التامة بقدرتى على الحكم فى الأشياء ، ولذلك أتقى على كاهلى عبء القيام بتحرير الجزء الصادر من قلم التحرير ومباشرته .

و بعد أن مضت كل هذه الأعوام على صدور هذه الجريدة أستطيع أن أحكم على أنها خدمت الجالية الهندية فى جنوب افريقية أجل خدمة . فأننا لم نفكر مطلقاً فى أن نجعل هذه الجريدة عملاً تجارياً . وفى خلال المدة التى ظلت هذه الجريدة تحت اشرافى ، لم يصبها من تغير فى الاتجاه الا وكان سببه تغير عميق يصيبنى فى حياتى . فالرأى الهندى وجريدة الهند الفتاة و نافاجيفان Navajivan وهى الجريدة الاسبوعية الكجراتية التى أصدرها ، كلها بمثابة مرآة ينعكس عليها جزء من حياتى . فكنت افرغ فى أعمدة هذه الجريدة اسبوعاً بعد آخر عصارة ذهنى وخلاصة روحي ، وأخذت افسر مبادئ « الستيا خراها » وعملياتها . ففى خلال

عشرة أعوام ، أى من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤ ، ماعدا العطلة
الاجبارية التى كنت أفضيها فى السجن ، لم يصدر عدد منها من غير
أن يكون لى فيه مقالة الا فى النادر القليل . ولا أذكر انى خطت كلمة
واحدة فى هذه المقالات قبل ان اقبلها بحثاً وتمحيصاً ، أو كلمة حاولت
فيها أن أبالغ مختاراً ، أو أى شىء قصدت منه مجرد ارضاء الناس . وبالحق
ان اصدار هذه الجريدة كان لى بمثابة تدريب علمى كيف أضبط نفسى ،
كما كانت لاصداقائى بيئة حسنة يتصلون من طريقها بأفكارى . وكان
المنتقدون قلما يقومون على شىء يستحق أن يوجه النقد اليه . وفى الواقع
اعلم أن النعمة التى كنت احرر بها مقالاتى فى « الرأى الهندى » كانت
تضطر النقاد الى أن يلجموا أقلامهم . ولا شك فى أن القيام بحركة
« الستيا جراها » كانت مستحيلة بدون هذه الصحيفة . أما بالنسبة
الى فقد أصبحت مدرسة أدرس فيها الطبع البشرى فى كل حالاته وعلى
مختلف ألوانه . ولما كان همى أن احدث رابطة نقية صافية بين المحرر
وقرائه ، غمرنى سيل من المراسلات اعتاد كاتبوها أن يصارحونى بما
فى قلوبهم . فكان بعضهم أخوياً مشجعاً وبعضها انتقادياً أو هجومياً على
مقتضى مزاج الذين يكتبونها . فكانت هذه المراسلات مدرسة واسعة
أقرأ فيها ما يصلنى منها وأهضمه هضم كافياً ثم أجيّب عليه . حتى لقد
خيل الى أن الجالية كانت تشعر أن من واجبها أن تكاتبني . وهنا
أدركت قيمة المسؤولية التى تلقى على كاهل الصحفي ، كما كانت السيطرة

التي أصبحت لى على الجالية من طريق هذه الصحيفة، سبباً فى أن نكمل حملتى المقبلة بالنجاح وأن تصبح محترمة الجانب قوية لا تقاوم .

عند ما بدأت باصدار هذه الجريدة ، وفى أول شهر من عمرها ، استبنت بجلاء أن أول واجب الصحافة ينحصر فى الخدمة العامة . فان الصحافة قوة عظيمة . وكما ان السيل الجارف الذى لا يصدّه عن جريانه شئ ، قد يفرق البلاد ويذهب بالحرث والنسل ، كذلك يكون شأن القلم الجامح فانه لن يخلق إلا دماراً . أما اذا كان السلطان الذى يحكم القلم مستمداً من عوامل خارجية ، فان الأثر يكون أشد تسمياً للأفكار وأمعن تهديماً من الحاجة الى الهوادة والتريث . ولن يكون للقلم من أثر تبجنى فوائده ، إلا اذا كان السلطان الذى يحكمه مستمداً من ضمير الكاتب ووجدانه .

كتب على بعض الطوائف التى تؤدى إلينا أعظم الخدمات وأجلها ، وهم الذين اخترنا نحن الهنود أن ندعوهم انجاساً أو منبوذين ، ان يعزلوا فى أما كن بعيدة عن جنبات المدائن والقرى . وكذلك كان الحال فى أوربا النصرانية ، فقد مر على اليهود عصر كانوا فيه أنجاس أوربا ، حتى لقد أطلق على الإحياء التى كانوا يسكنونها اسم بفيض ممقوت - Shetto - وعلى نفس هذه القاعدة أصبحنا أنجاس جنوب افريقية .

كان قدماء اليهود يعتقدون انهم شعب الله المختار ، ويخرجون عن هذا الاختيار كل الشعوب والأمم الأخرى . فكانت النتيجة أن تقع على اخلافهم لعنة شديدة وعقاب مخيف تلقاء خيالاتهم . وكذلك نحدث

مع الهنود فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم « آرياس » - Aryas - متمدين ، مع اعتبار جزء من ابناء عمومتهم ومن يمتون اليهم بصلة الدم ، انجاساً مبنوذين ، فكانت النتيجة أن يحل بهم انتقام الهى لا ينال الهنود النازلين بجنوبى افريقية وحدهم بل يحل بالمسلمين والبارسين ومعهم أولئك الذين يندوهم وسعوهم أنجاساً من أهل وطنهم ومن لهم جلود لا تختلف في اللون عن جلودهم .

ففى جنوبى افريقية أطلق علينا ذلك الاسم البغوض الميّن « أجراء » Coolies - وهذه الكلمة فى الهند تدل على « الحمال » ، ولكنها فى جنوبى افريقية تدل على معنى حقير دنس ، وتنقل الى ذهن الأوروبي نفس المعنى الذى ينقله اسم الأنجاس فى الهند ، حتى لقد سميت الأحياء التى خصصت للأجراء باسم « حظائر الأجراء » . وكان فى جوهانسبرج حظيرة من هذه الحظائر . فكان الهنود يكبدسون فيها تكديساً ، لأن الحظيرة لم تكن لتتسع فى المساحة بنسبة ازدياد ساكنيها . فضلاً عن أن البلدية لم تكن لتعنى بتنظيف المراحيض الاتفاقاً ، فانها أهملت أن تتخذ أى اجراء صحى ، فضلاً عن ترك الطرق وسخة غير معبدة ولا مبنية . وكانت بعيدة عن أن تفكر فى صحة الذين يحلون بهذه الحظائر . والهنود الذين يعيشون فيها ، كانوا على جهل تام بالقواعد الصحية ، ولم يكونوا يقوموا بشئ من هذا القبيل مالم ترشدهم البلدية اليه .

ان ذلك الترك الاجرامى الذى تعمده البلدية ، وجهل التزلاء الهنود ،

تضافرا على أن يجعلوا من هذه الحظائر موئلا للأمراض . فالبلدية على أنها كانت بعيدة عن أن تعمل أى عمل من شأنه أن يحسن الحالة ، مع أن هذا كان من واجبها ، اتخذت هذه الحالة التى نشأت عن إهمالها بالذات ذريعة لأن تأمر بهدم المحلة التى يسكنها الأجراء ، واستصدرت أمراً بنزع ملكيتها من الذين يملكونها .

وبينا كان الهنود مذعورين فزعين من هذه الحال تفشى وباء الطاعون الأسود ، ويدعى الطاعون النيومونى أى الرئوى ، وهو أنكى وأشد وطأة من الطاعون الدملى . ومن حسن الحظ أن محلة الهنود لم تكن مصدر الوباء ، بل إن الوباء تفشى فى منجم من مناجم الذهب بالقرب من جوها نسبرج . وكان أكثر العمال فى هذا المنجم من العبيد ، الذين لم يكن ليسأل عن نظافتهم وصحتهم إلا مؤاجروهم من البيض . وكان من بين العمال الذين يعملون هناك عدد قليل من الهنود ، أصيب ثلاثة وعشرون منهم بهذا الوباء ، وعادوا ذات ليلة الى حظائرهم يحملون معهم جراثيم هذا المرض الخبيث . واتفق أنه كان هناك السيد « مدنجيت » يسمى لاجتلاب مشتركين لجرادة « الرأى الهندى » . وكان رجلا لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه . فتأثر كل التأثر من مرأى هؤلاء الفرائس يقتلهم المرض ويقصر آجالهم الوباء ، فأرسل إلى مذكرة كتبها بالقلم الرصاص فيها ما لى :

« حدث وباء فجائى بالطاعون الأسود . والواجب عليك أن تحضر
توّاً لتتخذ الاجراءات الضرورية ، والا فاننا لابد من أن نحتمل المسؤولية.
أرجوك أن تحضر بسرعة » .

وكان السيد « مدنحيت » قد اقتحم باب منزل خال ووضع فيه كل
المصابين . فركبت دراجتى الى المحلة مسرعاً وأرسلت مذكرة الى كاتب
المدينة أخطره بالحالة . وأسرع الدكتور « وليم جدفري » الذى كان
يزاول مهنته فى جوها نسبرج الى النجدة بمجرد أن علم بهذه الأخبار ،
وأخذ يقوم بمهمة الطبيب والممرض معاً للمصابين . ويقينى الذى يقوم
على تجاربى أن قلب الانسان ما دام طاهراً نقياً ، فان السكوارث تجر
معها الرجال والمعدات لمقاومتها . وكان فى مكتبى أربعة من الهنود هم
كاليانداس ومنكلال واثنان لا أذكر اسميهما . لقد جاء لى بكاليانداس
أبوه لأقوم على تهذيبه . وانى لأصرح بأنى قلما التقيت بهندى فى جنوبى
افريقية أطوع منه أو أكثر جاذبية . وكان لحسن الحظ غير متزوج
لذ ذاك ، ولذا لم أتوان فى أن أعهد اليه بمهمات يستدعى القيام بها أن
يجتاز المرء ما زق مهما كانت حرجة . أما منكلال فقد استخدمته فى
جوها نسبرج . وكان أيضاً غير متزوج على ما أستطيع أن أذكر .
وصممت على أن أضحي بأربعتهم . ولك أن تسميهم بما شئت ، فادعهم
كتبتي أو زملائي أو أولادى . ولم يكن لى من حاجة لأن أستشير
كاليانداس . فى حين أن الآخرين أظهروا استعدادهم التام للخدمة بمجرد

أن عرضت عليهم الأمر ، بل قالوا « حيثما تذهب نذهب » ، فكان
لجوابهم على اختصاره رنة حلوة لن أنساها .

وكانت ليلة ليلاء . تلك الليلة التي قنا في خلالها بالتمريض مسهدين .
وكنت قد قمت من قبل بتمريض كثير من المرضى ، ولكن لم أمرض
مصاباً بالطاعون الأسود . ولكن اتضح لى أنب جراءة الدكتور
« جدفري » وجسارته ، معدية تطغى على من حوله . ولم يكن هناك من
حاجة للقيام بمهمات كثيرة . فان واجبنا انحصر فى أن نعطى للمرضى
جرعاتهم بنظام ، وأن تقوم بتلبية طلباتهم ، وأن نحفظهم وبفراشهم فى
حالة نظافة تامة . ولقد اغتبطت كل الاغتياب بما رأيت فى فتيانى من
النشاط فى العمل وعدم الاكتراث بالتعاب والبعد عن الخوف . وأما
تقدير الشجاعة التى أبدأها دكتور « جدفري » ورجل محنك مثل
« مدنجيت » فما لا يقوى قلمى على وصفه . وكما كانت الروح التى
أبدأها الفتيان نبيلة سامية .

ولقد شكرنى كاتب البلدة على أنى استعملت البيت الخالى كمستشفى .
واعترف لى فوق ذلك بأن مجلس البلدة لم يكن لديه المؤهلات التى يمكنه
بها أن يقاوم مثل هذه المفاجأة ، ولكنه مستعد لأن يقوم بكل المساعدة
التي فى قدرته . وكذلك كان شأن البلدية فانها لم تكذب تستيقظ
وتشعر بمسؤوليتها ، حتى أخذت تعمل ما فى استطاعها بكل الوسائل
الممكنة .

وفي اليوم التالي وضعت البلدية تحت تصرفى مظلة ، واقترحت أن ينقل المرضى إليها . ولكن البلدية لم تقم بتنظيفها . فانها كانت مهيمة . وغير نظيفة . فقمنا بتنظيفها ، وحصلنا على بعض الأسرة من محسنى الهنود ، ونسقنا مستشفى مؤقتا . وأرسلت إلينا البلدية ممرضة، ولكن دكتور « جدفري » ظل يواصل العمل .

وكانت الممرضة سيدة رحيمة القلب ، فأخذت تعنى بالمرضى عناية الممرضات العارفات بالواجب ، ولكننا منعناها عن أن تمسهم ، حتى لا تنتقل العدوى إليها .

ومات عشرون عندما كنا فى المظلة . وفى هذه الآونة كانت البلدية مشغولة فى اتخاذ اجراءآت أخرى . وكانت هنالك مصحة للأمراض المعدية تبعد عن جوها نسبرج سبعة أميال تقريباً . فنقل الثلاثة الباقون إلى خيام بالقرب منها ، وعملت الترتيبات اللازمة لإرسال الاصابات الجديدة إليها . وفى خلال بضعة أيام سمعنا أن الممرضة الرحيمة أصيبت بالمرض وقضت نحبها .

وكنت لما انتشر الوباء قد أرسلت إلى الجرائد مقالا ملتهباً . أنهم فيه البلدية بالاهمال وأحملها مسؤولية التغاضى عن القيام بواجبها نحو محلة الهنود بعد أن أصبحت من ممتلكاتها ، وأعزو إليها السبب فى انتشار الوباء . فكان من أثر هذا المقال أن انضم إلى « مستر » هنرى بولاك « ، كما كان سيباً فى صداقتى بالمحترم « يوسف دوك » .

الفصل الحادى عشر

« حتى هذه النهاية »

قلت فى فصل سابق إنى اعتدت أن أتناول وجباتى فى مطعم نباتى .
وهناك التقيت بمستر « البرت وست » . وكنا نلتقى هناك كل مساء
ثم نخرج للنزهة بعد العشاء . فقرأ مقال فى الصحف عن تفشى
الطاعون ، ولما لم يجدنى فى المطعم ساورته الوسوس فى أمرى .

وكنى والمشتغلون معى قد أخذنا نخفف من أغذيتنا منذ أن تفشى
الوباء ، لأنى كنت من قبل قد اتبعت قاعدة التخفيف من الأغذية
عند انتشار الأوبئة . وكان هذا سبباً فى أن أمتنع عن تناول وجبة
المساء كلية . وكنى أعرف صاحب المطعم معرفة أكيدة ، فعرفته بأنى
أعنى بأمر المصابين بالطاعون ، ولذلك أرغب فى أن أتفادى الاتصال
بالمترددين على المطعم جهد المستطاع ، فأنتهى من وجبتى قبل أن يصل
غيرى إلى المكان .

ولما لم يجدنى فى المطعم يومين أو ثلاثة على التوالى ، زارنى مستر
« وست » فى منزلى ذات يوم فى الصباح الباكر ، وكنى أنهياً
للخروج للنزهة . ولما فتحت له الباب بادرنى بقوله - « لم أجذك فى المطعم

وخفت أن يكون قد أصابك مكروه . ففكرت في أن أحضر منذ الصباح لأكون على ثقة من أن أجذك في البيت . والآن تجدني تحت أمرك . اني على استعداد أن أخدم المرضى . وأنت تعرف أني ليس ورائي من يحتاج إلى » .

فعبرت له عن شكري وامتناني ومن غير أن أفكر لحظة واحدة أجيته - « اني سوف لا أشغلك كممرض . وإذا لم تقع إصابات أخرى ، فانا سوف نفرغ من عملنا في التمريض بعد يوم أو اثنين . ولكن لدى مع هذا أمر آخر » .

- « ما هو »

- « هل تستطيع أن تعني بمطبعة « الرأي الهندي » في دوربان ؟
- « انك تعلم أن عندي مطبعة . والراجح أني سأذهب ، ولكن هل تسمح أن أعطيك رأيي الأخير في المساء ؟ فأبقى الكلام في هذا الأمر إلى نزهتنا في الليل . »

فاغتبطت بهذا . وفي أثناء تريضنا في المساء أخبرني أنه عزم على الذهاب . ولم يكن المرنب بأمر ذي بال عنده ، لأن المال لم يكن من مغرياته . ولكن اتفقنا على أن يكون مرتبه عشرة جنيهات انجليزية وجزءاً من الربح . وفي اليوم التالي سافر متر « وست » الى دوربان مع بريد المساء . ومنذ ذلك الوقت حتى الساعة التي فارقت فيها شواطئ جنوبي افريقية ظل مستر « وست » يشاطرني الأفراح والآراح .

كان مستر « وست » من أسرة مهنتها الزراعة في مدينة « لوث »
 — Louth — وكان تعليمه قاصراً علي ما يمكن تحصيله من مدرسة عادية ،
 ولكن مدرسة التجارب علمته كثيراً ، كما استطاع أن يعلم نفسه بنفسه .
 ولقد عرفته فعرفت أنه كان دائماً رجلاً انجليزياً من ذلك الطابع النقي
 القلب المزن الذي يخاف الله ويحب الانسانية .

وعلى الرغم من أنى والمشتغلين معى قد أعطينا من عملنا فى تـمريض
 المصابين بالوباء ، فقد كان أمامنا كثير من الأعمال التى ترتبت على
 نفشى الوباء ، تتطلب الانجاز . وكنت قد فرغت من مسألة اهمال البلدية
 للحى الهندى . ولكن البلدية لم تمن من الأمر بأكثر مما كان يهمها
 من صحة السكان الاوروبيين . فأخذت تنثر الأموال ثراً وتبدها
 تبديداً لتقاوم الطاعون . وعلى الرغم من الحوادث الاجرامية التى
 عدتها وألقيت مسؤوليتها على البلدية من اهمال الهندود وانكار وجودهم
 كأحياء بشرية ، لم يسعنى إلا أن أشكر لها اهتمامها وجزعها على حماية
 أرواح الاوروبيين ، حتى انى لم أتوان عن أن أمد لها يدى بكل مساعدة
 ممكنة لتخفيف الحمل عنها فى مهمتها الشاقة . ولقد شعرت بأنى اذا
 أمسكت عن أن أمد يد المعاونة ، فان مهمة البلدية ستكون أ أكثر
 صعوبة مما لو عاوتتها ، ولم تكن تتوانى من ناحيتها عن استعمال القوى
 المسلحة ، وتفعل أشنع ما يتصور من الحوادث . ولكن سلطات
 البلدية كانت مغتعبة بسلوك الهندود ، حتى ان كل الاعمال التى اتصلت

فيا بعد بمقاومة الطاعون قد سهلت وعبدت سبيلها . ولقد استعملت كل نفوذى لدى الهنود كي أجعلهم يخضعون لما تأمر به البلدية ويؤدون لها ما تحتاج اليه . وكان من الصعب على الهنود أن يذهبوا هذا المذهب حتى النهاية ، ولكنى أتذكر أنه لم يخالف واحد منهم نصيحة أبديتها .

ووضعت محلة الهنود تحت حراسة يقظة قوية ، حتى ان الدخول اليها والخروج منها كان مستحيلا بغير أمر خاص . غير أنى والمشتغلين معى كان مننا ترخيص حريبيح لنا الدخول والخروج كيفما نشاء . وكان الفرض من هذا أن يغلى السكان هذه المحلة ويعيشوا فى خيام تضرب لهم فى سهل متسع يبعد عن جوها نسبرج ثلاثة عشر ميلا لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم تحرق المحلة حتى تدمرها النار تدميراً . وكان ترتيب العيش فى الخيام ، وما يقتضى لذلك من حمل الزاد والحاجيات الأخرى يحتاج الى زمن ما ، وفى خلال هذا الزمن ، ضربت الحراسة على المحلة . ولكن الناس كانوا وجلين مشفقين . غير أن وجودى معهم كان يسليهم ويطمئنه .

وأشعلت النيران فى المحلة بعد اخلائها مباشرة . ولهذا السبب وفى الوقت نفسه أحرقت البلدية كل الاخشاب التى كانت تملكها فى السوق ، وتحملت خسارة تبلغ عشرة آلاف من الجنيهات . أما السبب الذى حملها على حرق أخشابها ، فلا أنها اكتشفت بعض فئران ميتة بين

الأخشاب . وبهذا كان من الواجب أن تمضى البلدية فى تحمل نفقات باهظة ، ولكنها بذلك نجحت فى التغلب على انتشار الطاعون وتنفست المدينة الصعداء مرة أخرى .

وكان الطاعون سبباً فى أن يعظم قدرى ويرتفع شأنى بين الهنود الفقراء ، وازداد عملى وتضاعفت واجباتى فازدادت مسؤولياتى . كانت اتصالاتى الجديدة بالأوروبيين وازديادها توثيقاً، سبباً فى أن تتكاثر التزاماتى الأدبية تلقاء الجميع .

وفى ذلك الوقت تعرفت بمستر « هنرى بولاك » فى نفس المطعم النباقى الذى تعرفت فيه بمستر « وست » . فذات ليلة أرسل إلى شاب كان يأكل على مائدة بعيدة عنى بطاقته، مبدياً رغبته فى أن يقابلنى . فسألته أن يشاركنى الجلوس على مائدتى ، ففعل .

— « أنا سكرتير تحرير « الناقد » - Critic - ولما قرأت مقالك فى الصحف عن تفشى الطاعون شعرت برغبة ملحة فى أن أراك . وانى لسعيد بهذه الفرصة . »

ولقد ملكنى مستر « بولاك » منذ أول مقابلة اذ آنست فيه الصراحة والاخلاص . ومنذ أول لقاء توثقت علاقتنا ، وظهر أن آراءنا ومبادئنا تتفق فى كل المسائل الجوهرية . كان محباً للحياة البسيطة ، وفيه كفاية نادرة تمكنه من أن ينفذ كل الأشياء التى تلائم عقله ويخرجها الى حيز العمل ، حتى ان بعض الانقلابات التى أحدثها فى حياته كانت

موقوتة وبنت ساعتها فضلا عن التطرف والمغالاة فيها .

وكانت « الرأى الهندى » تزيد أعباؤها ونفقاتها المالية يوما بعد يوم . وأول تقرير تسلمته من مستر « وست » عن حالتها كان مرعجاً . قال فى تقريره - « انى لا أنتظر من العمل ذلك الربح الذى توقعته . بل أخشى أن تنالنا خسارة . فالكتب ليست مرتبة ، وهناك متأخرات يجب تحصيلها - ولكن الانسان لا يستطيع أن يقف لها على أول يعرف أو آخر يوصف . وهناك حاجة ماسة للقيام بعارة واسعة النطاق فى كل أطراف العمل . غير أن هذا كله لا يجب أن يزعجك . فانى سأجتهد فى أن أصلح الأحوال على قدر ما أستطيع . وسأبقى سواء أحصلت على ربح أم لم أحصل » .

وكان من الممكن أن يترك مستر « وست » العمل بمجرد أن رأى أن أمله فى الربح مفقود ، ولم يكن لى وجه أن ألومه . والواقع أنه كان من حقه أن يقاضينى ، لأنى أوهمته بأن العمل مربح من غير أن يكون بين يدى برهان قاطع على ذلك . ولكنه لم يتفوه يوماً بكلمة يشتم منها ربح الشكوى أو التملل . غير أنى شعرت بأن هذا الأمر جعل مستر « وست » يظن بأنى غير ساذج .

لما تلقيت كتاب مستر « وست » سافرت تواء إلى ناتال . وكنت قد وثقت فى مستر « بولاك » الثقة كلها ، وقد حضر ليودعنى على المحطة وترك معى كتاباً لأقرأه خلال الطريق ، وأكد لى أنى سوف أشغف به .

أما هذا الكتاب فكان كتاب « رسكن » الذى عنوانه « حتى هذه النهاية » - Unto This Last .

لم أستطع أن ألقى الكتاب من يدى منذ فتحته . لقد اختلبنى . ومسافة السفر من جوها نسبرج إلى ناتال أربعة وعشرون ساعة . فوصل القطار إلى دوربان فى المساء . ولكن لم أستطع أن أنام تلك الليلة ، فأتى كنت قد صممت أن أغير خطى فى الحياة مستهدياً بالضوء الذى استمدته من الكتاب . ولم أكن قد قرأت كتاباً من تأليف « رسكن » قبل ذلك الوقت . ففى حياتى الدراسية ندر أن قرأت كتاباً خارجاً عن المتون المدرسية ، وبعد أن دلفت الى الحياة العامة ، لم يكن لدى من وقت كاف للقراءة . وترتب على هذا أن معرفتى المستمدة من الكتب كانت ضئيلة . وأعتقد بأنى لم أفقد كثيراً من جراء هذا القيد الجبرى . بل على الضد من ذلك أعتقد أن قلة قراءتى جعلتنى أهضم ما قرأت هضمًا كافياً . والكتاب الوحيد الذى استطاع أن يحدث انقلاباً سريعاً فى حياتى هو كتاب « رسكن » - حتى هذه النهاية - ولشغفى به ترجمته الى اللغة الكجراتية .

ويقينى أنى استكشفت فى كتاب « رسكن » هذا بعضاً من أعمق ما تأصل فى نفسى من المعتقدات ، وكان هذا هو السبب فى أن الكتاب اختلبنى واستولى على كل الاستيلاء ، وحملنى على أن أحدث انقلاباً جوهرى فى حياتى . فان الشاعر هو ذلك الرجل الذى يستطيع أن يوقظ

الخير الكامن في قلب الانسان . وليس كل الشعراء متساوين في التأثير لأن كل انسان انما ينشأ نشأة تختلف مقاييسها عن نشأة غيره .

واليك الصورة التي فهمت بها تعاليم « رسكن » !

أولاً - ان خير الفرد مشمول في خير المجموع

ثانياً - ان عمل المحامي له نفس القيمة التي لعمل الحلاق ، في أن كليهما الحق في أن يعيش من عمله .

ثالثاً - أن حياة العمل - أي حياة الزارع والصانع اليدوي - هي الحياة الجديرة بالانسان العاقل .

وكنتم أعرف التعليم الأول . أما الثاني فكنت أشعر به ، ولكن لا أتبينه تماماً . وأما الثالث فلم يطرأ لي على بال . غير أن « رسكن » جعله أمامى جلياً واضحاً على قدر ما أعتقد بأن التعليمين الثاني والثالث انما يندجان في الاول .

واستيقظت مع الفجر وفي حرقة لأن أضع هذه التعاليم موضع التنفيذ .

وتناقشت مع مستر « وست » فيما كان من أثر كتاب « رسكن » في نفسي وعقلي ، واقترحت عليه أن ننقل « الرأي الهندي » الى مزرعة يعمل فيها الجميع وبعرق جبينهم يتقاضون أجوراً متساوية ويعنون بالطبعة في وقت الفراغ . ووافق مستر « وست » على مقترحي وحددنا ثلاثة جنيهاً أجراً لكل انسان ، مع غض النظر عن اللون والقومية .

ولكن واجهتنا مشكلة. فهل يقبل العشرة العمال الذين يعملون في المطبعة على أن ينتقلوا معها إلى مزرعة ويقنعون بأجر معين كهذا ؟ غير أننا انتهينا من التفكير في هذا الأمر بأن الذى لا يقبل منهم الأجر المحدد يبقى أجره كما هو ، ويجتهد تدرجاً أن يتقرب من الأغراض التى نرى إليها حتى يصبح عضواً فى المستعمرة الجديدة .

من بين الذين كانوا يعملون فى المطبعة « شجا نلال غاندي » أحد أبناء أعمامى . فأدليت إليه بمقترحي فى نفس الوقت الذى ناقشت فيه مستر « وست » . وكان له زوج وأولاد . ولكنه تعود منذ صغره أن يعمل معى ويطيعنى ، لثقتى به . فوافق من غير أن يناقش أو يسأل سؤالاً . وظل فى كنفى منذ ذلك الحين . وكان معنا رجل ميكانيكى هو « غوفندسوامى » فقبل المقترح أيضاً . أما الباقون فلم يقبلوا المقترح ولكنهم صارحونى بأنهم يذهبون معى إلى حيث أذهب .

وأندكر أنى لم أحتج إلى أكثر من يومين لأفرغ من هذا الترتيب مع العمال . وفى الحال أعلنت عن شراء قطعة أرض تقع قريباً من إحدى محطات سكة الحديد بالقرب من دوربان . فوصلنى عرض يتعلق بمزرعة تدعى « العنقاء » - phoenix - وذهبت وبصحبتى مستر « وست » لنعاينها ، وفى أسبوع اشتريت عشرين « أكرآ » من الأرض ، تحتوى على ينبوع جميل وقليل من شجر البرتقال والمانجو . وكان بجوارها مساحة تبلغ ثمانين « أكرآ » فيها عدد كبير من أشجار الثمار وبيت ريفى

متخرب . فاشترينا هذه المساحة أيضاً ، ودفعنا في الاثنين ثمنا ألفاً من الجنيهات الانجليزية .

وكان « بارسي رستوجي » عوني وساعدي في كل ما يماثل هذه المشاريع . ففتن بهذا العمل . ووضع تحت تصرفي أنقاض مظلة حديدية كبيرة وغيرها من مواد البناء . وساعدني بعض التجارين الهنود الذين عملوا معي في حرب البوير على إقامة مكان للمطبعة .

وبدأت أعمل كي أحمل أولئك الذين قدموا معي من الهند من الأقارب والأصدقاء ليعملوا في جنوبي افريقية ، وكانوا مشغولين بأعمال مختلفة . على أنهم هبطوا تلك البلاد ليجثوا عن الثروة ، فكان من أشق الأعمال أن أستغويهم ، ولكن البعض وافق على الذهاب معي . وليس لي أن أسجل هنا من أسمائهم إلا اسم « ماجنلال غاندي » فإنه وحده بقي معي ، في حين عاد الباقون إلى أعمالهم الأولى . أما « ماجنلال » فقد ترك عمله ليلقي بدلوه مع دلوى ، وبكفائته وتضحيته واستماتته في سبيل العمل ، يستحق أن يوضع في الصف الأول مع الذين عاونوني في هذه التجارب الخلقية العنيفة ، فضلاً عن أنه كان صانعاً يدوياً من أشهر الصناع . وهو من هذه الناحية يجب أن يسجل اسمه في رأس القائمة .

كونت مستعمرة العنقاء سنة ١٩٠٤ وعلى الرغم من العقوبات الشديدة فان « الرأى الهندي » مازالت تصدر عن هذه المستعمرة حتى الآن .

ولم يكن من الهين أن يصدر أول عدد من الجريدة عن مستعمرة
العنقاء ، واذا لم أكن قد اتخذت احتياطين بعينهما ، لتعذر اصدار العدد
الأول هناك ، ولتركنا أمره بتاتا . فلم يكن لدى من رغبة في أن تكون
لدينا آلة لإدارة المطبعة ، وفكرت أن ادارتها باليد أكثر ملاءمة مع
البيئة الجديدة ، كما عزمت على أن يكون كل العمل الزراعي يدوياً .
ولكن خشية أن يكون هذا الأمر غير ممكن التنفيذ ، نقلنا معنا آلة
لإدارة المطبعة ، تدار بالبترول . غير أنى اقترحت على مستر « وست »
أن نحتاط فنصطحب شيئاً يمكن أن يدير المطبعة باليد في حالة ما اذا
تعطلت الآلة عن العمل . فاشترى عجلة يمكن بها أن تدار المطبعة بقوة
السواعد .

ولن أنسى ما حييت أول ليلة . فقد ربطنا الصحف المصفوفة
بالحروف على نحاسة المطبعة ، ولكن الآلة تعطلت عن الدوران .
فاستدعينا من دوربان مهندساً ليصلح من شأنها . فعمل ومستر
« وست » كل ما استطاعا ، ولكن بغير جدوى . وتولانا القلق
جميعاً . فحضر الى مستر « وست » أخيراً وعيناه مغرورتان بالدمع وقال
لى - « ان الآلة سوف لا تدور ، وأخشى أن تعطل الصحيفة عن الصدور
في ميعادها » .

فأجبت : « اذا كان الأمر كذلك فلا حيلة لنا . وكذلك لافائدة من
ذرف الدموع . ولكن الفائدة في أن نعمل كل ما يستطيع بشر أن

يعمله . فهل فكرت في عجلة اليد ؟ » .

.. « ولكن أين الرجال الذين يديرونها ؟ وليس فينا الكفاية للقيام بأعبائها . اننا نحتاج الى أربع رجال يتناوبون عليها ، ورجالنا متعبون حتى الاعياء » .

ولم تكن أعمال البناء في المستعمرة قد تمت بعد ، وكان النجارون لا يزالون معنا . ورأيهم نيماً على الأرض في حجرة المطبعة . فقلت له مشيراً اليهم ، « ألا يمكن أن ننتفع بهؤلاء التجارين ؟ انه ينبغي أن نقضى الليل في العمل . وأظن أن هذه الوسيلة لاتزال في متناولنا » فأجابني ، « أما أنا فلا أجسر على أن أوقظ التجارين ، في حين أن رجالنا يكاد يصرعهم الانهالك » .

فأيقظت التجارين وطلبت معوتهم . فلم يحتاجوا الى ضغط ، وقالوا . « اذا لم نكن على استعداد لأن نؤدي ما نستطيع في وقت الحاجة وطلب المعون ، فأية فائدة فينا ؟ انه عمل ليس شاقاً » . أما رجالنا فكانوا على استعداد للعمل .

ولقد ظهر الفرح على أسارير مستر « وست » ، وبدأ يغنى أغنية يحبها عندما بدأنا في العمل . فناوبت التجارين ، وأخذ كل من الموجودين دوره على التوالي ، وظللنا نعمل حتى الساعة السابعة من الصباح . وكان لا يزال أمامنا عمل كثير ، فقلت لمستر « وست » انه من المستحسن

أن نوقظ المهندس ليرى ان كان من الممكن أن تدور الآلة، فاذا استطاع أن يديرها أمكننا أن نفرغ من عملنا في الميعاد المناسب .

وأيقظه مستر « وست » ، فذهب تَوّاً الى حجرة الآلة . وسرعان ما دارت الآلة بمجرد أن جربت التجربة الأولى . وتعالّت أصوات الفرح من جوانب الطبعة . ولكنى تساءلت ، كيف حدث هذا ؟ كيف ان كل ما صرفنا من جهد ذهب عبثاً وكيف تدور الآلة في هذا الصباح كأن لم يكن بها خلل ما ؟ فأجابنى مستر « وست » - من الصعب أن تعرف السبب . ان الآلات قد تسلك بعض الأحيان مثل سلوكنا ، فتحتاج إلى الراحة .

وانى لاشعر بحزن عميق كلما تذكرت أنى أسست مستعمرة العنقاء ولكن لم أستطع المقام فيها غير قليل . وكانت فكرتى الأساسية أن أصنى أعمالى القضائية تدرجا وأقيم بعد تصفيتها فى العنقاء فأحصل على معاشى بقوة ساعدى وعرق جبينى وأجنى سعادة العمل باسماد العنقاء وأهلها . ولكن لم يشأ القدر أن يكون هذا . فقد دلتنى تجاربى على الانسان يفكر فى حين أن الله يدبر أموره . ولكنى وجدت بجانب هذا أنه حينما كان الفرض هو البحث عن الحق ، فلا أهمية اذن ولا تفكير فى أن تفشل المشروعات التى يفكر فيها المرء ، لأن النتيجة

مهما كانت ، فلن تكون شراً ، بل وغالب ما تكون أفضل مما تتوقع .
وهكذا كان . فان المتجه الذى اتجهت فيه العناية ، والحوادث التى
وقعت بعد تأسيسها لم تكن شراً على اطلاق القول .

ومن أجل أن نجعل كل مقيم فى مستعمرة العناية يحصل على قوته
بقوة ساعده ، قسمنا الأرض الواقعة حول بناء المطبعة أقساماً كلا منها
ثلاث « أكرات » . ووقع نصيبى على قسم منها . وفى كل قسم منها
بنينا بيتاً من الخشب قائماً على أعواد من الحديد . وكانت رغبتنا أن نقيم
أكواخاً من لبنات الطين أو يوتاً من اللبنة المحروقة ، ولكن
اتضح لنا أن المشروع كثير النفقة بما لا يتوازن مع مواردنا ، فضلاً
عن أن كل انسان كان يرغب فى أن يستقر فى مكانه فى أقرب وقت ممكن .
ولما عدت الى جوها نسبرج أخبرت « بولاك » بكل ما فعلت ،
وبكل الانقلابات التى تناوبت على أفكارى ومتجهاتى . فكان سروره
عظيماً عندما عرف أن الكتاب الذى أقرضنى اياه كان له هذه النتائج
البعيدة . وسألنى فى شوق - « أليس من الممكن أن أشارك فى هذا
المشروع الجديد » فأجبته قائلاً - « بدون شك . انك تستطيع اذا
أردت أن تشارك فى المستعمرة » فأجابنى - « انى على استعداد تام ،
اذا تفضلت وقبلتني » - واشترك معنا .

ولقد أسرنى بقوة عزمته . وأنذر رئيسه بأن لديه شهراً واحداً

سوف يترك بعده العمل . ووصل بعدها الى العنقاء في المياد الذي
حدده . ولقد أسر قلوب الجميع بالفته وحسن معاشرته ، وسرعان ما
أصبح عضواً محبوباً في أسرة العنقاء .

ان البساطة عنصر أصيل في طبيعته . ولذا وجد أن الحياة في العنقاء
ليست شيئاً جديداً عليه ، فصبح فيها سباح السمك في الماء .



الفصل الثاني عشر

ثورة الزولو

لم يعض زمن طويل على هذه الحوادث ، حتى تناقلت الجرائد خبر ثورة قام بها « الزولو » فى ناتال . ولم أكن أحمل أية ضغينة ضد الزولو ، فانهم لم يضرُوا هندا مقبلا بجنوبى افريقية ، رغماً عن أنه كانت تساورنى شكوك كثيرة فى أمر هذه الثورة . وكنت اذ ذاك أعتقد أن الامبراطوية البريطانية لم توجد فوق ظهر هذه الأرض إلا للعمل على خير الانسانية . ولقد حال شعورى المطلق بالولاء لها عن أن أتمنى أى ضرر يلحق بالامبراطورية . ولنا لم تكن أحقية الزولو فى الثورة أو عدم أحقيتهم مما يؤثر فى حكمى القاطع فى الامر . وكان فى ناتال قوة من المتطوعين معبدة للدفاع ، وكان من حق السلطات أن تضم اليها من تشاء للعمل تحت لوأها . وقرأت أن هذه القوة عبئت بالفعل للقيام بقمع الثورة . ولما كنت أعتبر نفسى من رعايا حكومة ناتال ، وصلى بها وثيقة قائمة على العطف عليها وحب الخير لها ، كتبت إلى الحاكم العام معبراً عن استعدادى إذا كانت هناك أية ضرورة لأن أكون فرقة اسعاف هندية . فأرسل إلى على الفور كتابا بالقبول . ومن حسن

الحظ انى كنت قد اتخذت كل الترتيبات الضرورية قبل أن أرسل خطابى اليه . وكنت قد عزمت ، إذا قبل عرضى ، أن أترك بيتى فى جوها نسبرج فيؤجر « بولاك » بيتاً أصغر وتذهب زوجى الى مستمرة العنقاء . وكنت على الدوام سعيداً بأن ألتقى من زوجى كل عون ومساعدة فلم تخطيء القاعدة هذه المرة أيضاً ، ولم أذكّر أنها وقفت فى وجهى وحالت دون ارادتى فى مثل هذه الأحوال طيلة حياتى . وبمجرد أن وصلنى كتاب الحاكم ، ذهبت الى دوربان وطلبت مساعدة رجال من الهنود . ولم يكن هناك من حاجة الى عدد كبير ، وكنا فى النهاية أربعة وعشرين رجلاً منهم أربعة من الكجراتيين غيرى . أما الباقون فكانوا أجراء من جنوبى افريقية انتهت عقودهم ، ماعدا واحداً كان من الباتيين الأحرار .

ولقد أراد طبيب الفرقة التى ذهبت لاختضاع الثورة أن يرفع من قدرى وأن يهون على مهمتى فعينى طبعا للتقاليد فى رتبة حرية مؤقتة ، وعين ثلاثة من الآخرين انتخبتهم فى رتب أقل من رتبى . ولما وصلت ميدان الثورة لم أجد هناك أى دلالة تدل على أن هناك ثورة بمعنى الكلمة . ولم أر أى أثر للمقاومة . أما الذى جعل الاضطرابات تتطور إلى ما يسمى ثورة ، فيرجع إلى أن زعماء الزولو نصح الى اتباعه بالامتناع عن دفع ضريبة جديدة فرضتها الحكومة ، واعتدى على جاوئش من الجيش مضى الى منطقته ليجبها . ومهما يكن من الأمر ،

فان عواطفى كانت من الزولو ، واغتبطت عندما وصلت الى رئاسة هيئة الجيش وأخبرت أن عملنا الأساسى سينحصر فى تمريض الجرحى من رجال الزولو . ولقد رحب بنا الضابط الطبيب المهود له بالمستشفى الحربى . وقال لنا ان الأوروبيين يرفضون أن يقدموا على تمريض جرحى السود ، وان جراحهم أخذت تتعفن من الاهمال وعدم العناية، وأنه يكاد يفقد صبره على تلك الحال ، بل أضاف الى ذلك أنه يعتقد أن مقدمنا نجدة إلهية لانقاذ هؤلاء الساكنين ، وسرعان ما زدونا بالأربطة والمطهرات وغيرها واصطحبنا الى المستشفى المؤقت . وابتهج الزوليون بمرآنا . غير أن الجنود البيض كانوا يطلون علينا من ثنايا القضبان الحديدية التى تفصلنا عنهم ويفروننا بأن لا نعى بجراح الثوار ، فلما نرفض، يصبون على الزولو أنواع السباب والشتم . واستطعت بعد قليل ان اختلط بهؤلاء الجنود ، فكفوا عن التدخل فى شؤوننا وأقلعوا عن خطتهم .

ان الجرحى الذين عهد الينا بتمريضهم لم يجرحوا فى ساحة حرب . وكان جزء منهم فى الحقيقة أسرى قبض عليهم لمجرد الاشتباه فى سلوكهم . ولكن الجنرال أمر بمجلدهم فجلدوا وأحدث الجلد فى أجسامهم جراحاً بليغة ، أخذت تتعفن من عدم العناية والاهمال . أما الآخرون فكانوا من الزولو الموالين للحكومة جرحوا خطأ فى أثناء اطلاق النار على الثوار ، ولذا أعطوا عصائب يعصبون بها جراحهم . وفضلا عن عملى هذا عهد الى بتركيب بعض العقاقير وصرف الأدوية للجنود البيض . وكان هذا

العمل سهلاً هيناً على ، لأنى كنت قد مرنت عليه سنة كاملة فى المستشفى
الصغير الذى أسسه دكتور « بوز » . واختلطت من طريق عملى هذا
بكثير من الأوروبيين . وكنا نعمل فى فرقة يطلب منها سرعة الانتقال
من مكان الى مكان . وقد صدرت اليها التعليمات بأن نتوجه حيثما نخب
بأن هنالك وجهاً للخطر . وكنا تنتقل فى الغالب فرساناً لامشاة . وبمجرد
أن يتحرك مخيمنا من مكانه يلزمنا أن نتقدم راجلين ومعنا النقلات
نحملها على أكتافنا . وحدث مرتين أو ثلاث مرات ان اضطررنا أن
نمشى على أقدامنا أربعين ميلاً فى اليوم . ولكن حيثما ذهبنا ، هيانا
الله لعمل انسانى نقوم به وننجزه . وكنا نحمل الى الخيم فى نقالاتنا
جرحى الزولو الموالين الذين كانوا يجرحون خطأ ونعنى بجراحهم ونمرضهم
ولقد كانت ثورة الزولو مليئة بالتجارب الجديدة فضلاً عن أنها
زودتنى بمادة واسعة للتفكير . فان حرب البوير ، على حداثتها ، لم تظهرنى
على شيء من فظائع الحروب بقدر ما أظهرتنى ثورة الزولو . ان هذه الثورة
لم تكن حرباً بالمعنى المفهوم ، بل كانت صيداً مادته الأرواح البشرية .
ولم يكن هذا رأى وحدى ، بل كان رأى الكثيرين من الانجليز الذى
صدف أن احادثهم . ولئن يقرع أذنيك صبيحة كل يوم دوى الطلقات
التي ينثرها الجنود على المحلات الآمنة فتنفجر وتنشر الموت والألم ،
وأن تعيش فى وسط الذين ينتثر على مسيرهم الموت ، لامتحان قاس
للاعصاب ، بل تجربة من أشنع ما تجرب فى حياتك . ولكنى ازددت

الجرعة المريرة بصبر، وعلى الأخص عندما اقتصر عمل فرقتي على تمرير
جرحي الزولو . ولولم نعن بهم لما عني بهم أحد . فكان عملي هذا مما
يربح ضميري ويرضى وجداني .

ولكن كان هنالك ماهو أكثر من هذا مما يحمل على التفكير
والتأمل . وكانت بقعة قليلة السكان نادرة العمران . وبين التلال وفي
خلال الوديان والأغوار ، كانت تنتشر حظائر الزولو الودعاء الذين يقال
فيهم « متوحشون » . وكلما كنت أمشي مصحوباً بجرحي أو منفرداً
بنفسي في تلك الوحدة الهادئة ، أقع فريسة فكر عميق .

أخذت أُنْذِر متأملاً ذلك المبدأ الديني الذي ندعوه « براهما شاريا »
Brahmcharya ومحصله مراعاة العفة وضبط الشهوات ، وما يمكن أن
يقوم عليه من المضمونات ، واستقرت معتقداتي في غور أعمق من
أغوار نفسي . ولم أكن قد حققت بعد مقدار الحاجة الى ضبط الشهوات
والطهارة في سبيل العمل على تحقيق الذات ، ولكن ظهر لي بجلاء ان
الذي يريد أن يخضع الانسانية بكل مافي روحه من قوة ، لايمكن أن يحقق
غرضه بغير هذا . وثبت عندى في ذلك الحين ان لدى فرصاً كثيرة
أخرى أستطيع أن أؤدي فيها خدمات من هذا النوع ، وانى ولا شك
سوف أجد نفسي عاجزاً عن تأديتها اذا أنا ظللت مغموراً في شهوات
هذه الحياة ومسراتها وفي اعقاب الأطفال والقيام على تربيتهم . وعلى
الجملة ثبت في يقيني أنى لا أستطيع أن أعيش للناحيتين : ناحية الشهوة،

وناحية الروح . على اننى ما كنت لأقدم على أن أقذف بنفسى فى آتون
هذه المعركة النفسية الحامية لو ان زوجتى كانت ترتقب طفلاً جديداً .
فمن غير أن تركز الى قواعد « البراهما شاريا » تكون خدمة مصالح
الأميرة غير متفقة مع مراعاة صالح الجماعة . أما اذا وعينا قواعدنا ، فان
مصالح الطرفين يمكن التوفيق بينها . وبعد أن فكرت فى كل هذا شعرت
بقلق منشؤه الرغبة فى أن أعاهد نفسى على هذا عهداً نهائياً . وكان عزمى
على ان أعقد هذا العهد مصدراً للابتهاج على صورة ما . وكذلك وجد
التصور مجالاً للترسل والامتداد ، ففتح أمامى أبواباً للعمل النافع
لانتتهى غاياته

فلما وصلت مستعمرة العنقاء فاتحت مشاجللاً وما جنلال ومستر
وست فى موضوع البراهما شارياً ، كما فاتحت غيرهم فأجبوا الفكرة
وأبدوا قبولهم لضرورة اخذ العهد . ولكنهم لم يتوانوا عن أن يظهروا
الصعوبات التى يتطلبها القيام بهذه المهمة . على أن بعضهم أخذ ينفذ
بصلابة قواعد « البراهما شاريا » ، ونجح بعضهم على ما أعرف . وكنت
قد وقعت مع الواقمين ، وقطعت على نفسى عهداً على أن ارفع قواعد
« البراهما شاريا » وانفذها مدى الحياة . والواقع انى لم اكن قد عرفت
مقدار ما يتطلب القيام بهذا العمل من قوة وصبر لما فيه من سعة الأفق
والعظمة التى تتضاءل امامها النفوس البشرية . وما أزال حتى اليوم
وصعب القيام بهذا العمل تصادفنى فى طريقى وتقف أمامى وجهاً لوجه .

على أن قيمة العهد الذى قطعته كانت تزداد مع الزمن قدراً ومكانة من نفسى ، حتى لقد آمنت بأن الحياة بدون « البراهما شاريا » تكون تافهة ولا طعم لها ، بل وتكون أقرب الى الحيوانية . فان السوائم لا تعرف بطبعها معنى لضبط النفس . أما الانسان فهو انسان لأنه يستطيع أن يضبط نفسه . وكل مظهر لى من كتبنا الدينية انه افراط ومغالة فى امتداح « البراهما شاريا » ، يظهر لى الآن على الضد مما كنت أرى من قبل ، انه صحيح وقائم على التجارب الحقة ، وهذا الأمر يزداد عندى وضوحاً يوماً بعد يوم .

رأيت ان البراهما شاريا ، بما فيها من تلك القوة الشاملة والفاعلية التامة ، لا يمكن أن تكون مراعاتها عملاً سهلاً هيناً ، وانها ليست شيئاً يتعلق بالجسم وحده والاحتكام فيه . حقيقة ان البراهما شاريا تبدأ بالاحتكام فى الجسم وتقييده ، ولكنها لا تنهى عند ذلك . ذلك لأن اكتمالها يقتضى حتماً الحيولة بين الانسان وبين الأفكار السيئة . فان « البراهما شاريا » اذا كان مؤمناً ، لا يمكن ان تساوره « الأحلام » فى ان يشبع نهمة الجسم ، وامامه قبل الوصول الى هذه الغاية ، سفر طويل لا بد من أن يقطعه اليها .

أما عن نفسى فلا بد من أن أقول ان مراعاة البراهما شاريا فى تقييد الجسم وحده كانت صعبة قاسية . اما اليوم فانى أستطيع أن أقول بحق انى ناج من هذا . ولكن املئ أن اصل الى الغاية التى أقدر عندها

ان أحتكم فى فكرى ، وهذا أمر جوهري ولا أقصد بهذا انه تعوزنى العزيمة أو القوة أو الارادة . كلا . ولكن لأنى ماأزال فى حيرة من أمر ذلك النبع الخفى الذى تغزوني من طريقه الأفكار السيئة . وما أشك فى أن الانسان لديه المفتاح الذى يلقى به الباب الذى تلجه وتنفذ منه الى عقله الأفكار غير المرغوب فيها . ولكن لكل انسان ان يفتش عن ذلك المفتاح ويجده من غير أن يستمد العون من غيره . ولقد ترك لنا القديسون والعرافون تجاربهم . ولكنهم مع الأسف لم يتركوا لنا وصفات محققة معصومة عن الزلل نصل من طريقها الى هذه الغاية . ذلك لأن الكمال والحرية انما يأتیان من طريق واحد ، هو طريق العناية الأزلية ، ولذا ترك لنا الذين أفنوا أعمارهم فى البحث وراء الله متوناً مقدسة مثل كتاب « رامانا » Ramanama مثلت بوصف ما لاقوا فى الحياة من خشونة ، وما زاولوا فيها من تقشف وتصوف . ومن غير أن نسلم بأنفسنا الى عنايته القدسية ، فان الأحتكام الكامل فى أفكارنا وتقييدها لن يكون كاملاً . وهذا هو المبدأ الأساسى الذى تضمنته كل الكتب المقدسة . وانى لاحقق صدقه فى كل لحظة من لحظات حياتى التى اجد فيها نفسى وراء الفوز « بالبراهما شاريا »

ولقد أخذت الحوادث فى جوها نسبرج وجهة جعلتنى اتجه نحو تطهير نفسى تمهيداً للعمل فى سبيل الستيا جراها ^(١) Satyagraha

(١) معناها قوة الحق وقوة الروح وهو الاسم الذى أطلقه مہاتما غاندی على المقاومة السلبية

وانى لأرى الآن بوضوح ان كل الحوادث الجوهرية التى وقعت فى حياتى
والتي ترتبت على هذا العهد ، انما كانت تمدنى لأن أقطعه على نفسى
وروحى . فان المبدأ الذى دعوته « ستيا جراها » كان له وجود فعلى
من قبل أن يوضع له هذا الاسم . وفى الحق ان هذا المبدأ عندما « ولد »
لم أكن أستطيع أن أقول « ماهو » . فقد كنا نستعمل فى اللغة
« الصكجراتية » الاصطلاح الانجليزى « المقاومة السلبية »
Passive Resistance لنعبر عنه أو لنصفه . وبينما كنت فى جمعية من
الأوروبيين رأيت أن هذا الاصطلاح ضيق الحدود ولا يدل على حقيقة
المبدأ دلالة صحيحة . فقد فرض انه سلاح الضعيف المغلوب على أمره ،
وأنه قد يكون مدخولا بالكراهية ، أو انه فى النهاية قد يلجأ الى أعمال
العنف . ولذا حلت كل هذه المدخولات وأبنت عن حقيقة الحركة التى
يقوم بها الهنود . فكان من الضروري مع هذا أن ينحت الهنود كلمة
تدل دلالة واضحة جلية على حقيقة الحركة التى يخوضون غمارها .
غير انى لم أستطع أن أقع على كلمة تطلق اسماً علماً على حقيقة المبدأ ،
ولذلك لجأت الى الاعلان على صفحات « الرأى الهندى » وحددت
جائزة يناها القارىء الذى يقترح أقوم اصطلاح . وفى النهاية فاز
« ماجنلال غاندى » بنحت كلمة « ستيا جراها » وهى تتركب فى
الهندية من مقطعين « سات : حق » و « اجراها : صلابة » وصاغها
هكذا Sadagraha ونال الجائزة . غير انى جاباً فى أن أجعلها أئين وأجلى

غيرتها الى Satyagraha « ستيا جراها » ، فدخلت في اللغة الكجراتية لتدل على حقيقة الحركة التي يخوضها الهنود . أما تاريخ الستيا جراها فهو عبارة عن تاريخ حياتي في جنوب افريقية ، وعلى الأخص في تجاربي الشاقة في التزام الصدق في تلك القارة النائية .

...

لقد نجت زوجي ثلاث مرات من الموت بعد أن تصاب بمرض عضال . في المرات الثلاث كان شفاؤها راجعاً الى أدوية منزلية عادية . وعند ما مرضت المرة الأولى كنا نخوض احدى معارك الستيا جراها ، أو كنا على وشك أن نخوض احداها . وكانت تصاب بنوبات من النزيف . ونصحني أحد أصدقائي من الأطباء باجراء عملية جراحية ، وافقت هي على اجرائها بعد تردد قليل . وكنت تراها مهزولة نحيلة ، وكان الدكتور مضطراً لأن يجرى العملية بغير تخدير . ولكن العملية نجحت ، رغم انها تأملت كثيراً . ولكن الدهش انها احتملتها بشجاعة نادرة المثال . وقام الدكتور وزوجه على خدمتها فصرفا نحوها جهداً ممدوحاً وانتباها انسانياً . ووقع هذا في دوربان ، وتفضل الدكتور فأجاز لي أن أذهب الى جوها نسبرج وأن لا أكون في قلق على المريضة

وفي خلال أيام قلائل وصلني خطاب جاء فيه ان « كسترباي » أصبحت اسوأ مما كانت ، وانها ضعيفة لا تستطيع الجلوس في فراشها ، وانها اصببت مرة بالاغماء وفقدت الحواس ، وكان الدكتور على علم بأنه

لا يجوز له ان يعطيها خمرأ أو لهما من غير موافقتي . فخطبني تليفونيا من جوها نسر ج لاوافق على أن تعطى مرق العجل . فأجبتة بأنى لا استطيع أن أعطى تصريحاً كهذا ، ولكنها اذا كانت فى حالة تستطيع معها ان تعبر عما تريد ، فمن الواجب أن يؤخذ رأيها ، وانها حرة فى أن تفعل كيف تريد . فقاطعتنى الدكتور قائلاً :

« ولكن ارفض ان أستطلع رأى المريضة فى الأمر . ان الواجب يدعوك للحضور بنفسك . فاذا لم تتركى حرأ فى أن أصف ما أشاء من أصناف الأغذية ، فانى لن اتحمل مسؤولية شفاء زوجك . »
فركبت القطار الى دوربان فى نفس اليوم ، وقابلت الدكتور فأخبرنى بهدوءه المهدود قائلاً « انى أعطيت زوجك مرق العجل فى الوقت الذى كلمتك فيه تليفونيا » فأجبتة :

« انى اعد هذا يا حاضرة الدكتور غشاً » . فأجابنى
« انى لا أرى أى وجه للنفس فى أن أصف داوء أو غذاء لمريض . وفى الحقيقة نعتبر نحن معاشر الأطباء أنه من الفضيلة أن نفس مرضانا أو أقاربهم فى سبيل أن ننقذ حياة بشرية » .
فحسرنى الألم ، ولكنى ظلمت هادئاً . وكان الطبيب رجلاً خيراً وصديقاً شخصياً لى . وأصبح له ولزوجه فى عنق قيد من الجليل الذى لا ينسى ، ولكنى لم أك مستعداً لأن أقبل الخضوع لآرائه الطبية . فقلت له .

- « خبرني يا دكتور ماذا تقترح أن نعمل الآن . اني لا أستطيع أن
أصرح بحال أن تعطى زوجي لحما أو مرق العجل ، ولو أدى ذلك الى
موتها ، ما لم تقبل هي أن تتعاطى هذه الأشياء » . فكان جوابه
- « أنت حر في أن تظل على فلسفتك . ولكني أخبرك أنك
مادمت تمهد إلى بعلاج زوجك ، فلا بد من أن يكون لي الخيار المطلق
في أن أعطيها ما أشاء . أما إذا كنت لا توافق على هذا ، فاني أسألك
أسفاً أن تأخذها معك . فاني لا أستطيع أن أراها تموت تحت
سقي » .

- « هل تعنى بهذا أنه يجب على أن أتقلها الآن ؟ »
- « ومتى سألتك أن تنقلها ؟ اني انما أريد أن أترك حراً . فاذا
فعلت ، فاني وزوجي سوف نعمل لها كل ما في استطاعتنا من المكنات ،
ويمكنك أن تذهب لمباشرة عملك من غير أن يكون لديك أقل شاغل من
ناحيته . ولكنك اذا كنت لا تستطيع أن تفهم هذا الشيء البسيط ،
فانك تضطرنى لأن أسألك أن تنقل زوجك من بيتي » .

وأظن أن أحد أبنائي كان معي ، فوافق على رأيي كل الموافقة ، وقال
بأن « كستر باي » لا يجب أن تعطى مرق العجل بأى حال من
الأحوال . وبعد ذلك تكلمت مع زوجي . وفي الحق انها كانت
ضعيفة ضعفاً يتعذر معه أخذ رأيها في هذا الموضوع . ولكني رأيت أن
من واجبي ، وان كان مؤلماً ، أن أفعل هذا . وأخبرتها عن كل ما كان

بينى وبين الدكتور . فأجابتنى جواباً قاطعاً قائلة :

« انى لن أتعاطى مرق المجل . ان من أندر الأشياء فى هذه الدنيا أن يولد المرء فى هذه الحياة مكتمل الانسانية . وانى لأفضل أن أموت بين ذراعيك ، من أن أدنس جسمى بمثل هذه الدنابات » . فتوسلت إليها ، ثم أخبرتها أنها ليست بحجرة على أن تتبع رأيى ومذهبى . ورويت لها أمثالا اجتزأتها من هندوكيين يأكلون اللحم ويتعاطون الحجر كدواء . ولكنها ظلت صلبة ولم تلتن فقالت - « لا ، أتوصل اليك أن تنقلنى من هذا المكان فى الحال » .

فاغتبطت . وعزمت على أن أنقلها ، ولكن بشيء من الانفعال . ثم أخبرت الدكتور عن عزمها . فقال لى !

« كم أنت صلب أيها الرجل . كان من الواجب عليك أن تحجيم عن أن تناقشها فى الأمر وهى على هذه الحال . وانى لاصارحك بأن زوجك ليست فى حالة تسمح لها بالانتقال . انها لا تستطيع الوقوف على رجلها لحظة واحدة . وانى لن أعجب اذا سمعت أنها ماتت فى الطريق . ولكن إذا كنت لاتزال عازماً على هذا ، فأنت حر فى أن تفعل ما تشاء . وأزيد على هذا أنك اذا لم تعطها مرق المجل ، فانى لن أخاطر بأن أقبلها فى بيتى يوماً واحداً » .

على هذا صممنا على أن ننقلها وترك بيت الدكتور تواء . وكانت المطر ينزل رذاذاً ، والمحطة بعيدة بعض الشيء . وكان علينا أن نأخذ القطار

من دوربان الى مستعمرة العنقاء ، فاذا نزلنا من المحطة القريبة منها ، بقى علينا أن نقطع ميلين ونصفا. ولا شك في أنى كنت أخطر مخاطرة عظيمة وأقذف بنفسى فى مأزق حرج ، ولكنى كنت كثير الثقة بالله ، فضيت أتم واجبى . فأرسلت رسولا الى المستعمرة ليتقدمنا ومعه رسالة الى مستر « وست » لينتظرنا فى المحطة ومعه « همك » - سرير من شبك - وزجاجة من اللبن الساخن وأخرى من الماء الحار وستة رجال ليحملوا زوجى . واستأجرت « عربة يد » لاستطيع أن أقلها فى أول قطار يغادر دوربان ، وأركبتها القطار وهى على تلك الحال وسافرنا .

ولم تكن « كسترباى » فى احتياج لمن يشجعها . بل على الضد أخذت تسكن من روعى قائلة « لن يحدث لى أى حادث ، فلا تهتم » وكانت كأنها قفص من الجلد والعظام، ولم تكن قد جرعت شيئا من المغذيات لعدة أيام . ورصيف المحطة طويل ، وكان من التعتذر أن تدخل العربة داخل المحطة لتتنقل المريضة فكان علينا أن نسير مسافة طويلة لنصل إلى عربة القطار . فحملتها بين ذراعى حتى أجلستها داخل العربة . ومن المحطة حملناها على « الهمك » وهناك بدأت تسترد قواها بالعلاج المائى

- Hydrathic Treatment -

بعد مضى يومين أو ثلاثة من هبوطنا مستعمرة العنقاء زارنا « سوامى » - Swami - من رجال الدين . وكان قد سمع بمرضنا فى (١٤ - ١٥)

رفض نصيحة الدكتور ، فحضر اشفاقا علينا ليغرينا بأن نسمع نصيحة الطبيب . وكان ابناى الثانى والثالث ، مانيلال وردماس حاضرين لما زارنا ذلك الرجل . وأخذ يغرينا بأنه لا ضرر من الوجهة الدينية اذا تعاطينا اللحم، مستنداً إلى نصوص دينية اقتطعها من شريعة « مانو » وهى أقدم الشرائع الهندية . فكرهت أن أتمشى معه فى هذه المناقشة فى حضرة زوجى، ولكنى تركته يقول ما يريد أمامها احتراماً له . وكنت أعرف الآيات التى ذكرها عن « مانو » ولم أكن فى حاجة لأن تعاد على سمى لكى أقتنع بجواز أكل اللحم . بل كنت أعرف أكثر مما يعرف من أن هنالك مدرسة دينية تعتقد أن هذه الأقوال مكذوبة . وحتى بفرض أنها غير مكذوبة ، فانى قد أخذت نفسى بالحياة النباتية بصرف النظر عن النصوص الدينية ، كما أن إيمان « كسترباى » كان ثابتاً لا يتزعزع . على أن النصوص الدينية كانت لغزاً لا تعرفه ، ولكن تقاليد أسلافها كانت كافية عندها لأن تحمل من قلبها فى منزلة الايمان . وأقسم الولدان بعقيدة أبيهما أن اجازة أكل اللحم لن تكون . وفى ذات اللحظة أجابته كسترباى قائلة :

« سيدى السوامى . مهما يكن فى أقوالك من حق ، فان ذلك لن يجعلنى على أن أطلب الشفاء بأكل اللحم . وانى لأتوسل اليك أن لاترعبنى بأكثر من هذا . ولك أن تناقش فى الأمر مع زوجى وولدى، أما أنا فقد صممت وانتهيت » .



مہاتما گاندھی

وكنت قد قرأت في بعض الكتب التي تعالج الحياة النباتية ان الملح ليس عنصراً أساسياً في غذاء الانسان، وانه على الضد من ذلك تفيد الأغذية الخالية من الملح أكثر مما تفيد الأغذية التي يضاف اليها الملح . ومن هنا استنتجت كيف أن أحد البرهمناساريين قد استفاد من الأغذية الخالية من الملح . وقرأت كذلك أن ضعاف الأجسام يجب أن يتفادوا تعاطي البقول، وكنت من المفرمين بها. وحدث اذ ذاك أن كسترباي بعد أن أجريت لها العملية استراحت قليلا ولكن الزيف عاودها ، وظهر المرض في مظهر خبيث حاد، ولم يفد فيه العلاج المائي وحده . ولم تكن واثقة في أنواع العلاج التي أستعملها ، ولكنها لم تكن تعارضني في شيء . ولم تسألني أن أستعين بالمساعدة الخارجية . فلما فشلت كل أنواع العلاج ، سألتها أن تتفادى أكل الملح والبقول . فلم تقبل بادىء الأمر ، على الرغم من توسلاتي اليها مستنداً على أقوال الثقة في هذا الموضوع . ولما بلغ منها الضيق ، جابهتني بأني أنا شخصياً لا أستطيع أن أقلع عن تعاطي هذه الأشياء لو طلب مني أن أقلع عنها . فتأملت وسررت في آن واحد . سررت لأنني أعطيت الفرصة التي أظهر لها فيها حبي لها وعطفي عليها ، فقلت لها .

« انك مخطئة - فاني اذا كنت مريضاً ونصحني الطبيب بأن أتفادى هذه الاشياء أو غيرها في أغذيتي ، فاني لا أتردد في أن أعمل بمشورته . ولكن اليك . فاني من غير أى مشورة طبية سأقلع عن

أكل الملح والبقول سنة كاملة ، سواء أفعلت أنت ذلك أم لم تفعل .
فتولتها هزة عنيفة وقالت في حزن عميق - « سامحني . غفر الله لك .
فقد كان من الواجب عليّ أن لا أتمدك وأنا على علم بمن أنت . واني
أعدك بأن أقلع عن تعاطي هذه الأشياء . ولكن بحق السماء أن تحلل
نفسك من هذا العهد . ان هذا كثير لا أستطيع احتماله » فأجبتها

- « ان في اقلعك عن تعاطي هذه الأشياء خيرا لك ، ولا شك
عندي مطلقا من أنك سوف تستفيدين من ذلك وتحسن صحتك . أما
أنا فاني لن أحلل نفسي من عهد قطعته عليها جادا لا هازلا . ومن
المؤكد أنني سوف أستفيد بتنفيذه لأن كل القيود التي يقيد بها المرء
نفسه مهما كانت بواعثها ، مما يعود عليه بالخير . ولذا أسألك أن تتركيني
وشأني . ان هذا سوف يكون امتحانا لنفسي ، وتشجيعا أدبيا لك على
أن تنفذي عزمك . » فتركنتي وشأني قائلة

- « انك عنيد جدا . انك لن تصني لأحد » . وفاضت عيناها
بدمع غزير .

اني أريد أن أعد هذا الحادث كثال على قوة الستياجراها ، وهو بحق
من أحلى الذكريات التي أذكرها في حياتي .

بعد هذا بدأت كستراي تسترد صحتها بسرعة . ولا أستطيع أن
أقول أ كان هذا راجعا إلى الأغذية الخالية من الملح والبقول ، أم
إلى التغيرات الأخرى التي تترتب على مثل هذا العمل ، أو كان سببه

شدة مراسى فى متابعة قواعد محدودة أتبعها فى حياتى ، أم إلى تأثير الصدمة العقلية التى استدعتها الحادثة . والواقع أنها أخذت تستعيد صحتها بسرعة ، ووقف الزيف ، وكسبت أنا شهرة أخرى بأنى طبيب روحانى .

أما أنا فشعرت بأن حالتى أحسن باتباع النهج الجديد . ولا أتذكر أنى رغبت فى الأشياء التى عاهدت نفسى على تركها . ومرت السنة فوجدت أن حواسى أشد خضوعا لارادى مما كانت . وكانت التجربة سبباً فى أن يزداد ميلى الى ضبط النفس فمضيت أراعى ذلك النهج مدة طويلة بعد عودتى إلى الهند .

ولقد فرضت علاج الاقلاع عن الملح والبقول على كثير من كانوا يعملون معى فى جنوبى افريقية فأتتج العلاج نتائج باهرة . أما من الوجهة الطبية فالرأى ينقسم ، ولكن أدبياً فانى مقتنع بأن كل انكار للذات مفيد للروح . ان الغذاء الذى يعكف عليه الرجل الذى يضبط نفسه يجب أن يختلف عن الغذاء الذى يعكف عليه الرجل الذى ينشد الملذات . فهما يختلفان فى هذا اختلافهما فى بقية طرق الحياة .

ان الذين يتطلعون الى « البرهشاريا » غالباً ما يهزمون ويفقدون القدرة على الوصول الى غايتهم ، باتخاذ طريق فى الحياة لا يعكف عليه الا المكبون على الملذات

الفصل الثالث عشر

تثقيف الروح

كان تثقيف الأولاد الروحي مهمة أشق بكثير من تربيتهم الجسمية وتثقيفهم العقلي . ولما كنت أبدأ إلى الكتب الدينية لابلغ إلى ما أرى إليه من هذا التثقيف . وبالضرورة كنت أعتقد أن كل تلميذ لابد من أن يلم بعناصر دينه وأن يكون على معرفة بكتبه المقدسة . وعلى هذا أخذت أعد مثل هذه المعرفة والقنها لهم على قدر ما أستطيع . غير أني كنت أعتقد أن هذا جزء من التثقيف العقلي . وكنت قبل أن أشغل نفسي بتعليم الأطفال في مزرعة تولستوى - بالقرب من جوها نسبرج وعلى غرار مستعمرة القنماء - قد تحققت أن تثقيف الروح شيء مستقل بذاته . ومن أجل أن تقوى الروح ، عليك أن تبني الأخلاق وأن تكون لديك معرفة بالله وأن تعمل على تحقيق ذاتك . بل اوقن بأن ذلك أمر جوهري في تربية الأطفال . وأن كل ضروب التربية والتعليم من غير تثقيف الروح لنو بل عدم ، ان لم يكن ضررها أكبر من نفعها وكيف اذن وعلى أية قاعدة القن الصغار هذا التثقيف الروحي ؟ أخذت أقرأ لهم فصولا من كتب في الثقافة الأدبية . ولكن كان هذا بعيدا عن

ان يرضينى . ولما بدأت صلتى بهم تشدد ونقوى ، وجدت أن تنقيف الروح لن يكون من طريق الكتب ، وكما أن الترية الجسمية لاتكون الا من طريق مراانة الجسم ، وكما ان التنقيف العقلى لا يكون الا بالمرانة العقلية ، كذلك التهذيب الروحى لن يكون الا بالمرانة الروحية . وهذا يتوقف أكثره على حياة العلم وأخلاقه . وانه لمن السخافة أن أكون كذوباً ثم أحاول أن اعلم الأولاد الصدق . ومعلم جبان لن ينجح فى أن يعلم الأولاد الشجاعة والاقدام ، ورجل بعيد عن القدرة على ضبط النفس ، لن يتمكن من أن يفرس فى تلاميذه تقدير فضيلة ضبط النفس . فبدالى أن أكون للأطفال ذكوراً واناثاً درساً عملياً ومثلاً حياً ينفذ مايريد أن يفرس فيهم من الفضائل . ومن هنا انقلبت الآية فأصبح الأطفال لى معلمين علمونى ضرورة أن أعيش خيراً مستقيماً ، ولو من أجل أن أضرب لهم المثل الأعلى . وقد أقول ان مراعاة النظام والقيود التى قيدت بها نفسى فى مزرعة تولستوى، ترجع فى الغالب الى حكم هؤلاء الأطفال الذين كنت أقوم على تثقيفهم .

كان أحدهم وحشى الطبع ولا يخضع لنظام ، كثير الكذب والخصام . وغلب عليه طبعه مرة فاتفجر وتبذل . وغضبت واحتاجت أعصابى . ولم أكن قد تعودت على أن أفرض عقاباً على تلاميذى ، ولكن هذه المرة امتلكنى الغضب . غير انى حاولت مع هذا أن اناقشه وأنقاهم معه ، فكان عنيداً ، وزاد تبذله بأن حاول أن يحتال على ويخدعنى . فلم

أطلق على هذا صبراً وأمسكت بمسطرة كانت قريبة منى وضربته على ذراعه . بيد أنى انتفضت عندما ضربته ، وانى لعلى يقين من أنه لاحظ اضطرابى . ولا شك فى أن هذا الحادث كان جديداً عليهم أجمعين . فصاح الولد وأخذ يسألنى الصفح والمغفرة ، ولا رية فى انه لم يصح لان الضربة آلمته الى هذا الحد ، بل كان قادراً على أن يكيل لى من نفس ما كملت له وأزيد ، فقد كان ولداً مستوى الجسم قوى الاعصاب فى السابعة عشرة من عمره . ولكن الحقيقة انه صاح مقدراً قيمة الألم الذى شعرت به ، لأنى اضطرت الى اللجوء الى هذه الوسيلة . ولم يمد هذا الولد بعد ذلك الى عنادى وعدم طاعنى . وما أزال حتى الآن أستغفر عن هذا العنف الذى اضطرت اليه مرغماً . وانى لأخشى أن أكون قد كشفت له فى ذلك اليوم عن وحشيتى الكامنة ، لاعتن روحى الشفافة الوديمة .

كنت على الدوام من الذين يمارضون فى العقاب البدنى . وأتذكر مرة واحدة اضطرت فيها أن أعاقب أحد أبنائى عقاباً جسانياً . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم لم أستطع أن أستبين ما اذا كنت محقا أو مخطئاً فى استعمال العصا . ومن الراجح ان ذلك كان مسلکاً غير قويم ، لأنى وقعت عقاب العصا تحت تأثير الغضب والرغبة فى ازال العقاب ، ولو أن ذلك العقاب كان مجرد تعبير عن ضيق صدرى وغمى ، اذا لاعتبرت انه أمر مبرر . ولكن الباعث فى الحال التى ذكرتها كان مزيجاً من

الاثنين . من الغضب والاسى معاً . وحفزنى هذا الحادث الى التفكير وعلمنى طريقاً أمثل من هذا فى تقويم الأطفال . ولست أعرف الى أى حد تجدى هذه الطريقة المبكرة فى الحادث الذى رويته . فان ذلك الفتى سرعان مانسى الحادث تماماً ، ولا أظن أن سلوكه تحسن تحسناً ظاهراً . غير ان الحادث جعلنى أفهم على وجه أكمل ماهو واجب العلم ازاء تلاميذه . ولقد تكررت بعد ذلك الحوادث التى أظهر فيها الفتيان بسوء السلوك ، ولكنى لم ألبأ قط إلى العقاب البدنى . ولقد تحققت أثناء محاولتى أن أثبت فى الأولاد والبنات مبادئ الثقافة الروحية ، انى استطعت أن أفهم شيئاً بعد شىء قوة الروح وأثرها الاسمى .

كان فى مزرعة تولستوى ان وجه مستر كالنباخ نظرى إلى مشكلة لم أكن قد فكرت فيها من قبل . فقد سبق لى أن قلت ان بعض الفتيان فى المزرعة كانوا سيئى السلوك بعيدين عن مراعاة النظام والقواعد ، وكان من بينهم كسالى وبلداء . ومع هؤلاء أخذ يختلط أولادى الثلاثة كل يوم ، كما يختلط غيرهم من الأولاد الذين هم على شاكلتهم . وهذا جعل مستر كالنباخ فى قلق . ولكن انتباهه انصرف الى انه من عدم الكياسة ان أجعل أولادى يختلطون مع هؤلاء الفتيان . وقال لى يوماً :

« ان طريقتك فى أن تجعل أولادك يختلطون مع هؤلاء الفتيان لا أوافق عليها . ان أولادك سوف تنتحط أخلاقهم من طريق هذه العشرة السيئة » . ولا أذكر ان هذا الاشكال الذى وجهنى إليه مستر

كالنباخ قد ألقني حينذاك ، ولكنى أذكر ما قلت :
 « كيف أستطيع أن أفرق بين أولادى وبين هؤلاء الكسالى السيئى
 السلوك ؟ انى أعتبر نفسى مسؤولا بدرجة واحدة عن الجميع . وهؤلاء
 الفتيان لم يحضروا الى هنا إلا لأنى دعوتهم للحضور . والحق الذى لا
 أخفيه عليك انهم وأولياء أمورهم يعتقدون انهم بحضورهم الى هنا قد
 ألزمنى بواجبات ومسئوليات . وأنا وأنت نعرف ، أو كنا نعرف ، انهم
 بحضورهم الى هنا سوف يحدثون لنا بعض المتاعب . كان يلزمنى أن
 يحضر هؤلاء الفتيان الى هنا ، وعلى هذا يجب على أولادى أن
 يخاطبهم ويعيشوا معهم . ومن الحق أنك لا تريدنى أن أغرس فى روع
 أولادى انهم مفضلون على غيرهم . ولئن تفرس فى عقولهم فكرة انهم
 أفضل من غيرهم ، فان معناه أنك تقودهم فى طريق الغواية . واشترآكهم مع
 بقية الأولاد يعودهم النظام ، فضلا عن انهم سوف يقتدرون من هذه
 الطريق أن يميزوا لأنفسهم بين الخير والشر ، وبين الصالح والطالح .
 ولماذا لا نمتقد انه اذا كانت فيهم ناحية من الخير فسوف تترك أثرها
 الثابت فى غيرهم من الصبيان ؟ ومهما يكن من الأمر ، فانى لا أستطيع
 أن أتقضى اختلاط أولادى بهم ، واذا كان فى هذا بعض المخاطرة ،
 فواجبنا أن نصمد لها . »

فهرز مستر كالنباخ رأسه . ولكن النتيجة لم تكن سيئة على ما رأيت
 فيما بعد . فان أولادى لم يصبحوا أسوأ مما كانوا . فضلا عن أنى رأيت

أنهم جنوا ثمرة ما . رأيت أنه اذا كان قد غرس فيهم الغرور شيئاً من شعورهم بالأفضلية فان هذا قد محى أثره ، وتعلموا أن يختلطوا مع كل الأولاد من غير مراعاة لميولهم أو نزعاتهم . رأيت أنهم مروا وتعودوا النظام . وهذه التجربة وأشباهاها علمتني أنه اذا نشأ أولاد خيرون مع أولاد شريرين واختلطوا بهم ، فان الخيرين لن يفقدوا شيئاً من نزعتهم ، على شرط أن تقوم التجربة تحت أعين آبائهم وأولياء أمورهم .

ولا يستتبع ذلك ضرورة أن الأولاد الذين ينشأون مختلطين يكون اختلاطهم حافظاً لهم من الفوارة أو عدوى الأخلاق . والحق أنه عندما يختلط الصبيان والبنات على اختلاف نشأتهم ويتعلمون في صعيد واحد ، فان الآباء والمعلمين يواجهون من تلك الحال تجربة من أقسى التجارب . لأن الواجب يقضى عليهم أن يكونوا دائماً على حذر وانتباه .

أخذت أتبين شيئاً بعد شيء مقدار الصعوبات التي تواجه الانسان اذ يعتمد أن يربى ويعلم صبياناً وبنات معاً على طريقة مثلى . فاذا كنت ذلك الرجل الذي يعهد اليه بتنشئتهم أو أنى كنت من أولياء أمورهم ، اذن لا أخذت أمتحن قلوبهم ، ولسأمت معهم في المسرات والأحزان ولسأدتهم في حل المشكلات التي تعرض لهم ، ولا تبغت معهم السبيل الأقوم في أن أستشف آمالهم الفتية وأشاركهم فيها . حدث عندما كنت في جوها نسبرج أن وصلتني أخبار سقوط اثنين من أعضاء المدرسة

سقوطاً أدبيراً . وان أخباراً تصلنى عن سقوط رجال يمارسون « الستياجرها » وهم يجوبون معركتها لن تصدمنى أو ترعبنى . ولكن هذا الخبر انقض على رأسى انقضاء صاعقة غير منتظرة . وفى نفس اليوم أخذت القطار إلى العنقاء . وصمم مستر كالبناخ على أن يرافقتى فقد لاحظ اضطرابى وحزنى . ولم يشأ أن يتركنى أذهب بمفردى لأنه هو الذى حمل إلى تلك الأخبار التى احتاجتى وأحزنتنى . وبينما أنا فى الطريق استنارت بصيرتى فرسمت الخطة التى أتبعها . شعرت بأنه اما أن يكون المعلم أو يكون ولى الأمر ، مسؤولا الى درجة ما عن سقوط هذا التلميذ . وفى الحال تحدثت مسؤوليتى ازاء هذا الحادث تحديداً وضح لى كأنه الصبح الأبلج . وكانت زوجتى قد حذرتنى ، ولكن لما كان طبعى يميل الى التسليم ويأنف من المحاذرة ، لم أحفل بتحذيرها . وكذلك شعرت بأن اللذين ارتكبا هذه الخطيئة قد يحققان شيئاً من حزنى وألمى ومقدار ما فى عملهما من شناعة اذا أنا فرضت على نفسى عقاباً أدبيراً . أستغفر لهما به عن ذنبهما . وسرعان ما نفذت . فنذرت صوم تسعة أيام وعهداً بأن لا أتعاطى الا وجبة واحدة أربعة أشهر ونصفاً . واجتهد مستر كالبناخ فى أن يجعلنى أقلع عن عزى ، ولكن ذهبت توسلاته سدى . وفى النهاية سلم بتنفيذ هذه الكفارة ، ولكنه لم يسلم بها الا ليشاركنى فيها . فلم أستطع أن أقاوم ارادته الحية وعطفه الحار . بعد أن عقدت عزى هذا شعرت بأن عبثاً ثقيلاً أزيح عن عقلى ،

وأحسست بأنى راض مستريح الضمير الى حد بعيد ، ولطف عضبى على المجرمين ، وحل محله احساس بالعطف والشفقة عليهما . وعلى هذه الحالة النفسية وصلت مستعمرة القنءاء . وقت بابحاث أخرى وفحصت الأمر وعرفت بعض التفاصيل التى كنت فى حاجة الى معرفتها . غير ان كفارتى آلت كل انسان ، ولكنها طهرت الجو وصفته من الأكدار . وأخذ كل انسان يشعر بمقدار البشاعة التى تنطوى عليها الخطيئة ، كما ان الرابطة التى كانت تربطنى بالأولاد وبالبنات أصبحت أقوى وأصل . ولقد وقع بعد ذلك بقليل حادث له اتصال بهذه المناسبة ، أرغمنى على أن اكفر عنه بصوم دام أربعة عشر يوماً ، فكانت النتيجة أعظم بكثير مما كنت أنتظر .

وليس من غرضى أن أستنتج من هذه الحوادث أنه على المعلم أن يفرض على نفسه صوماً لمدة تطول أم تقصر تكفيراً عن ذنوب تلاميذه . ولكنى أحكم بأن هنالك بعض حوادث تستدعى اللجوء الى هذا الدواء القاسى العنيف . ان هذا النهج ينبئ بدياً بنفوذ البصيرة وقوة الروح . وحيثما يحدث أن يفقد الحب والعطف بين المعلم والتلميذ ، أو ان لاتمى خطيئة التلميذ أعماق العلم النفسية ، أو حينما يفقد الاحترام بينهما ، فاني أعتقد ان الصوم لا يكون له من محل ، وربما كان ضرراً بالغاً . وعلى الرغم من أن تساورنى الشكوك فى ما يحتمل أن يكون من نتائج الصوم فى مثل هذه الحالات ، فاني لأشك فى أن المعلم انما يحمل مسؤولية

كبرى تافاء الخطايا التي يقع فيها تلاميذه .

ان تنفيذنا لأول كفارة لم يكن صعباً علينا . ولم أشعر بأنى فى حاجة لأن أعطل شيئاً من أعمالى العادية ، ولى أن أذكر أنى كنت فى ذلك الوقت أعيش على الفواكه الصرفة . أما الصيام الثانى الذى فرضته كفارة على نفسى، فقد شعرت خلاله بكثير من التعب فى نصفه الأخير . والسبب فى هذا أنى لم أكن قد فقهت على صورة بينة قيمة « الراماناما » وأثرها ، فكانت قدرتى على احتمال المشقات أقل مما هى الآن . وفوق ذلك فانى لم أكن أعرف الطريقة العملية التى يجب أن تتبع فى الصوم وعلى الأخص ضرورة تعاطى كميات كبيرة من الماء ، مهما شعر الانسان مع تعاطيها من الغثيان وسوء الطعم . ولم أشرب أثناء صيامى الثانى الا قليلا من الماء، فكان كربه الطعم، وكنت أشعر مع تعاطيه بغثيان . وبدأ مريئى يجف وأحس فيه بضعف ظاهر ، وفى خلال الأيام الاخيرة لم أستطع الكلام الا بصوت خافت جداً . وعلى الرغم من هذا كنت أؤدى أعمالى بطريق الاملاء عندما أحتاج إلى كتابة شىء . فلما اعتدت أن يقرأ لى بانتظام مقاطع من « الراماناما » وغيرها من الكتب المقدسة ، بدأت أشعر بأن عندى من القوة ما يكفى أن أناقش وأبدي رأيى فى كل المسائل المستعجلة .

لقد وقعت لى فى حياتى حوادث كثيرة جعلتنى أحتك بكثير من الناس وبعدد عديد من الجماعات ، فلم أشعر فى خلال كل التجارب التى

وقعتلى معهم أنى أشعر بأقل فارق بينهم سواء أ كانوا أقارب أم أباعد، من قومى أم أجنب ، بيضاً أو من ذوى الألوان ، هندوكيين أم من غيرهم من الطوائف ذوى العقائد الاخرى ، مسلمين أو فارسيين أو نصارى أو يهود . وأقول موقناً بأن قلبى لم يتسع يوماً ما فى حياتى للشعور بمثل هذه الفروق . على انى لا أدعى أن هذه فضيلة خاصة بى ، لانها كانت جزءاً من طبعى وقسماً من فطرتى ، ولم تكن نتيجة مراعاة عكفت عليها أو غرض سعىت اليه ، على الضد مما كان شأنى فى مراعاة « الالهسا » (عدم العنف) والبراهما شاريا (العزوبة) وغيرها من الفضائل العليا .

فان هذه فضائل مرت عليها واكتسبتها اكتساباً

ولما كنت أشتغل بالحمامة ، كان كتبه مكتبى يقيمون معى ، ومن بينهم هندوكيون ونصارى . وانى لا ذكر انى كنت أعاملهم دائماً كالو كانوا من أهلى وذوى قرايى ، بل كنت أنصرف معهم كالو كانوا من أسرتى ، وكثيراً ما كنت أختلف وأعارك زوجى اذا هى حاولت أن تقف فى طريق معاملتى اياهم على هذا الاعتبار . وكان أحدهم نصرانياً

منحدراً من سلالة من الانجاس Panchawa

كانت حجرات المنزل مشيدة على الطريقة الغربية ، وليس لها منافذ الى الخارج مباشرة . وكانت كل حجرة مهيأة بآنية الغسيل والأدوات الاخرى . وعلى الرغم من أنى كنت أعهد بنظافة هذه الأشياء الى خادم ، كنت دائماً الاحظها بنفسى أو تلاحظها زوجى . وكان الكتبه يقومون

بتنظيف أدواتهم بأنفسهم لأنهم كانوا يعتبرون البيت بيتهم . ولكن الكاتب النصرانى كان جديداً فى العمل، وكان من واجبتنا القيام بملاحظة حجرته . وكانت زوجى تلاحظ حجات الآخرين ، غير أنها كانت ترى أن مدى قيامها بمثل هذه الواجبات تقف عند الحد الذى تكلف فيه بملاحظة أدوات شخص من الأنجاس، فاختلفنا : ولم تكن تحتمل أن ترانى أعنى بتنظيفها ، فى حين أنها تأنف أن تقوم هى بهذا العمل . وانى ما أزال أذكر حتى اليوم صورتها وهى تحجبنى بنظراتها، وقد احمرت عيناها من الغضب وتساقطت منهما الدموع ، وقد أخذت تهبط السلم وفى يدها الطسوت . ولكنى كنت زوجاً قاسياً فى ذلك الوقت ، وكنت أعتبر أنى معلمها ومثقفها ، فأخذت أؤذيها وأولها من طريق حبي لها . ولا شك فى أنى كنت بعيداً عن أن أقنع بأن أراها تحمل الطسوت فى يديها . بل كنت أريد أن تقوم بهذا العمل مقتبضة مسرورة . فقلت لها رافعاً صوتى - « انى لا أستطيع أن أرى مثل هذه الترهات فى منزلى » .

ولقد اخترقت هذه الكلمات قلبها كما لو كانت سهماً دامياً، فأجابتنى فى غضب - « دع بيتك لك اذن واركنى أذهب » . فنسيت فى تلك البرهة نفسى، وجفت من روحى احساسات العطف والشفقة، وأمسكت بيدها وسحبت المرأة المسكينة نحو الباب الخارجى الذى كان يقع قبالة

(م - ١٥)

السلم ، وعالجت فتحه لأقف بها إلى الخارج . وكانت الدموع تنهمر من عينيها غزيرة كثيرة ، والتفتت إلى قائلة - « ألا تشعر بخجل ؟ هل لزام عليك أن تنسى نفسك الى هذا الحد ؟ إلى أين أذهب ؟ ليس لي أب ولا أم ولا أقارب في هذا الثغر . ولأنى زوجتك يخيل إليك أن على أن أحتمل اهاناتك ، وردائك . فشب الى نفسك بحق السماء واغلق الباب . ووفر علينا أن نظهر أمام الناس بهذا المظهر » .

فتظاهرت بالشجاعة ، ولكن الخجل كان قد ملكنى وغلبنى ، فأقفلت الباب . واذا كانت زوجى لم تستطع تركى ، فانى لم أكن لأستطيع تركها . ولقد كان لنا كثير من المشاحنات ، غير أنها كانت تنتهى بسلام . ولا أنكر أن زوجى بما كانت تظهر من القدرة على الاحتمال ومعالجة الكاره ، كانت دائماً تنتصر على .

انى اليوم فى مركز أستطيع فيه أن أروى هذه الحادثة بشيء من التفصيل ، لأنها انما وقعت فى عهد تحللت أنا من قيوده تماماً ، وخرجت من حماته لحسن حظى . انى لم أعد ذلك الزوج الأعمى المتشامخ ، ولم أعد معامها ومثقفها ، وفى استطاعتها اليوم أن تسقينى بكأس أشد مرارة من الكأس الذى سقيتها به . لقد أصبحنا صديقين مجريين ، فلا ينظر أحدنا لصاحبه باعتباره موضعاً للشهوة . لقد خدمتنى ومرضتنى أثناء مرضى باخلاص تام ، من غير أن تفكر فى أن أكايتها بشيء تلقاء اخلاصها .

وليس لأحد أن يستخلص من كل الرواية التي أرويها عن ذكريات
أعتقد أنها مقدسة، أننا زوجين متماثلين أو أن بيننا توافق في الصفات التي
تعود كلا منا في الحياة . على أن زوجي لا تعرف ان كان لها في الحياة
غايات عليا غير الغايات التي أتطلع اليها . غير أن بعض أعمالي حتى اليوم
لا تحوز موافقتها ورضاها . وبرغم هذا فانا قلما نتناقش فيها ، لأنى
لا أرى خيراً في أن نتناقش . ذلك لأنها لم تتعلم . فلا أبواها عنيا بذلك
ولا أنا عانيت به عند ما كان الواجب يدعوني الى ذلك . ولكن المراحم
العلوية زودتها بصفة عليا تشترك معها فيها كل زوجة هندوكية . فانها
سواءً بارادتها أم رغما عنها ، وسواء أبوعيا أو بعقلها الباطن ، كانت
تتبع خطواتي ، ولم تقف يوماً واحداً في وجهي لتحول بيني وبين اتباع
خطة في الحياة أضبط فيها نفسي الضبط الذي أريد . ولذلك ترى أنه على
الرغم من^١ أن بيننا فرقاً كبيراً من حيث العقلية ، فاني كنت أشعر
دائماً أن حياتنا حياة قناعة ورضاً وسعادة وضرب الى الامام

الفصل الرابع عشر

الستيا جراها في ناتال

وقعت حادثة اضطررنا معها الى تطبيق مبدأ الستيا جراها في ناتال عقب مغادرة مستر « جوكهال » - Gokhale - لجنوب افريقية ^(١) . وظن « جوكهال » ان ضريبة الثلاثة جنهات سوف تلغى في بحر سنة وان القانون بالغائها سوف يعرض على برلمان اتحاد جنوب افريقية في الدورة المقبلة . ولكن على الضد من ذلك صرح جنرال « سمطس » من فوق منصة البرلمان ان حكومة الاتحاد لاتستطيع أن تتقدم بقانون يرمى الى إلغاء هذه الضريبة مادام الأوروبيون في جنوبي إفريقيا يعارضون في إلغاءها . ولم يكن في هذا القول ظل من الحقيقة . ذلك لأن الأعضاء الذين كانوا يمثلون ناتال لم يكن لديهم من القوة ما يكفي للتأثير في الأعضاء

(١) مستر « جوكهال » محام وزعيم هندي حضر الى جنوب افريقية لفاوض الحكومة في رفع ضريبة تجائرة فرضت على كل هندي من الأجراء ينتهي عقده ويصبح حراً في عمله وقدرها ثلاثة جنهات على كل شخص رجل أو امرأة أو طفل . وكان الغرض من هذه الضريبة أن يضطروا للعودة الى العمل بالقيود ، وفي هذه الحالة ترفع عنهم الضريبة . وقد غادر « جوكهال » جنوب افريقية وهو يعتقد ان هذه الضريبة ستلغى .

الذين يمثلون أربع الولايات معاً . ومن ناحية أخرى كان الواجب يدعو جنرال « سمطس » أن يتقدم بمشروع القانون عن الوزارة الى البرلمان ويترك الأمر تجرى به الظروف بما يقدر لها . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وزودنا في الوقت نفسه بفرصة كنا نترقبها تضمنت كل الأسباب المغرية على أن نعلن على الحكومة « الحرب » . ولقد اعتمدنا في اعلان الحرب على سببين . الأول أننا اذا فرض وأعلنت الحكومة خلال المعركة عهداً جديداً ثم أخذت تراوغ لسجبه ، فانتا لا تنحسر شيئاً بأن تتابع الجلاذ حتى ننال بغيتنا بإلغاء القانون . والثاني : ان تحمل الحكومة من عهد قطعتة لزعيم مثل « جوكهال » هبط جنوب افريقية بصفته ممثلاً للهند ، لا يعتبر اهانة شخصية له فقط ، بل يعتبر سباً علنياً للهند جمعاء وسخرية بها ، ولذا لا يمكن أن نقضى عنه ونهمله .

وأصبح من المستحيل علينا أن نقضى عن اهانة تلحق بوطننا ، ولذا دب فينا الشعور بأن على الذين يقومون بحركة الستيا جراها أن يدخلوا ضريبة ثلاثة الجنيهات في برنامجهم . وما دامت هذه الضريبة قد دخلت ضمن الأغراض التي نسعى اليها من وراء المعركة ، فان الاجراء ذوى العقود لا بد ان ينضووا تحت لواء « الستيا جراهين » ويشتركوا في الحركة بقلوبهم . ولا ينسى القارئ ان هذه الفئة ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن الاشتراك في الجهاد . ولا شك في ان هذا التوسع الذي أصاب سياستنا قد زاد المسؤولية التي نشعر بها من جهة ،

وفتح أمامنا ميداناً جديداً نحصل فيه على متطوعين يؤمنون بمبدئنا من جهة أخرى .

وحتى ذلك الحين لم تكن كلمة « الستيا جراها » من الأشياء التى تجرى على ألسنة الأجراء ذوى العقود ، كما انهم لم يكونوا قد تعلموا كيف ينفذونها من طريق عملى أو يشتركون فيها . ولما كان أكثرهم أميين ، لم يطلعوا على ما كان ينشر فى جريدة «الرأى الهندى» أو غيرها من الصحف . غير انى مع هذا وجدت ان هؤلاء الساكنين كانوا يرقبون المعركة عن كثب ، وكانوا يفهمون طرفاً منها ، فى حين أن بعضهم كثيراً ما أبدى أسفه لعدم قدرته على الاشتراك فيها والانتظام فى صفوفها . ولكن لما كسر وزراء حكومة الاتحاد كلمتهم وتقضوا عهدهم ، ودخلت ضريبة ثلاثة الجنيهات ضمن برنامجنا ، خيل الى أن الجميع سوف ينضون تحت لوائنا .

وكتبت الى «جوكهال» ابنته بخبر التكوّن عن العهد الذى عاينه عليه وزراء حكومة الاتحاد ، فكان أله بالفأ وأسفه شديداً . ولكنى عرفتة بأن يطمئن للحالة وأن لا يقلق علينا ، وأكدت له اننا سوف نحارب حتى الموت واننا سوف نتزع من حكومة الترنسفال قانوناً بالفاء الضريبة . وعلى هذا انتهيت عن عزمى الذى كنت عزمته على الرجوع الى الهند فى خلال عام ، وأصبح من المستحيل على أن أعرف متى أعود اليها . وكان « جوكهال » رجل حقائق لا رجل نظريات . فكتب الى

لكي أطلعه على أقصى وأقل ما يمكن أن نجند من رجالنا في جيش السلام، مع كشف مفصل بأسمائهم . وعلى قدر ما أستطيع أن أذكر الآن أرسلت إليه كشفا يتضمن خمسة وستين أو ستة وستين اسماً كالحد الأقصى وستة عشر كالحد الأدنى ، وأخبرته انني لن أبتظر أية مساعدة تأتي من ناحية الهند للقيام بمساعدة مثل هذا العدد الضئيل .

وبينا كنا نعد المعدات اللازمة لنقوم بالمعركة ، وقع حادث جديد زاد في آلامنا وأمض نفوسنا ، ولكنه فتح باب العمل حتى للنساء كي يشتركن في العمل ويخضن معنا المعركة ، على ان بعض المقدمات منهن كن قد وعدن بالاشتراك في الحرب ، حتى ان الستيا جراهين عندما سجنوا لانهم مارسوا بيع سلعهم من غير أن يكون معهم ترخيص ، عبر نساؤهم عن رغبتهن في أن يحذون حذو الرجال . ولكننا لم نوافق على أن نرسل النساء الى السجون في بلاد أجنبية .

ومن غير أن يستين أحد منا أى شيء ، كان الله يعد لنا أسباب الانتصار ، فدفع الاوروبيين الى الظلم حتى ظهر جلياً واضحاً ، وحدث ما لم يدر في روع أحد أن يحدث .

وفد على جنوب افريقية عدد عديد من الرجال المتزوجين من الهند ، بينا تزوج بعض الهنود في جنوب افريقية . وليس في الهند قانون يحتم تسجيل الزواج العادي ، ويستعاض عن تسجيل عقود الزواج بالاحتفالات الدينية التي تعطى العقد صبغته القانونية . فالواجب اذن يقضى بأن تحترم

هذه العادة في جنوب إفريقية . وبالرغم من أنها عادة محترمة فإن الهنود نزلوا جنوب افريقية منذ أربعين سنة (قبل سنة ١٩١٣) وشرعية عقود الزواج التي عقدوها طوال هذه المدة لم تكن موضع مناقشة أو حوار يوماً من الأيام . ولكن حدث في ذلك الوقت أن نظرت قضية أمام القاضي « سيرل » Searle رئيس محكمة مقاطعة الكاب العليا ، وأصدر فيها حكماً بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩١٣ قضى فيه بأن كل زواج عقد في جنوب افريقية يكون خارجاً عن حدود الزواج الشرعي ، ما لم يكن قد عقد على مقتضى المراسيم النصرانية وسجل أمام مسجل عقود الزواج .

ولقد قضى هذا الحكم المزعج بحجة قلم واحدة على كل زواج عقد في جنوب افريقية على مقتضى المراسيم الهندوكية والاسلامية والزرادشتية . وأصبح كل الزوجات الهنديات بمقتضى هذا الحكم لسن زوجات شرعيات لأزواج شرعيين ، ونزلوا الى مرتبة الجوارى والاماء ، بينما فقد أولادهم الحق في أن يرثوا ما يملك آبائهم ، فأصبحنا رجالاً ونساء في موقف حرج لا يمكن احتمال ما يترتب عليه من النتائج ، وحزت هذه السخرية في قلوب الهنود فاحتاجوا وغضبوا .

وجرياً على عادتي كتبت للحكومة لاعرف رأيها في الأمر ، وهل هي توافق على الحكم الذي أصدره القاضي « سيرل » ، وعماً اذا كانت مستعدة ، في حالة ما اذا اعتبر تفسير القاضي صحيحاً ، أن تحوز

القانون حتى يعترف بشرعية عقود الزواج الهندية التي عقدت حسب العادات الدينية التي يعتنقها المتزوجان في كل حالة من الحالات والتي تعتبر في الهند مشروعة معترفاً بها . وكانت الحكومة اذ ذاك في حالة نفسية يصعب عليها فيها ان تصنى وان تصيخ بسمها للشكوى ، أو ان تستبين طريق الرشاد فتجيب ما طلب منها .

فمقدت جمعية « الستياجراها » اجتماعاً لتتظر هل تستأنف ضد الحكم الذي أصدره القاضي « سيرل » ، ولكن انتهت المناقشة بأنه يستحيل علينا أن نستأنف قانوناً في مثل هذه الحال . لأن الاستئناف لا يقبل في مثل هذه الحال إلا من طريقين . فاما أن تستأنف الهيئة الحاكمة اذا فضلت ذلك ، واما أن يستأنف الهنود أنفسهم ، اذا عاوتهم الحكومة علناً وأوعزت إلى المدعى العمومي أن يقوم بعمل الاستئناف . وفي احدى هاتين الحالتين يقبل الاستئناف قانوناً . أما ان نستأنف من غير أن تثق بأن أحد الطريقين ممد ، فعنى هذا أننا نقبل الاعتراف بعدم شرعية عقود الزواج المعقودة بين الهنود . واذن وجب أن نلجأ الى عمليات الستياجراها ، حتى ولو قمنا بعمل الاستئناف ورفض فلما . وفي هذه الحال يحسن أن لا نلجأ الى الاستئناف لنمحو به مثل هذه الالهانة الكبرى .

وساورتنا أزمة شديدة ، اذ شعرنا بأنه يستحيل علينا أن نتتظر يوماً أو ساعة معينة . وأضحى الصبر مستحيلاً ازاء هذه السبة الشديدة التي

وجهت الى شرف نساينا . وعلى هذا عزمنا على أن نقوم بعمل « الستياجراها » وبعناد من غير أن نأبه لعدد الذين يخوضون المعركة منا كبر أم صغر . وهنا لم نفكر في أن نمنع النساء عن الاشتراك في المعركة ، بل صممنا على أن ندعوهن كي يشاركن الرجال في العمل . وبدأنا بدعوة الاخوات اللاتي يعشن في مزرعة تولستوى ، فوجدت أنهن مقتبطات بخوض غمار هذه الحرب . غير أني فضلت أن أئين لهن المخاطر التي قد يتعرضن لها من جراء اشتراكهن في مثل هذا العمل ؛ وأظهرت لهن أن عليهن أن يفرضن على أنفسهن ضوابط خاصة من حيث الغذاء والملبس وبقية الضرورات الأخرى وعلى الأخص الكماليات . وحذرتهن من أن يفرض عليهن شغلا شاقا في السجن ، فيفسدن ملابس أو يشتمهن السجنانون . ولكنهن كن بإسلاط ولم يداخلهن خوف من مثل هذه التحذيرات . وكانت احداهن على وشك الوضع ، وكانت ست أخريات يحملن أطفالا على أذرعتهن . ولكنهن كن جميعا صامدات للحرب والعراك مقتبطات بالاشتراك في الجلاذ ، فلم أرد أن أقف حائلا دون رغبتهن . وكن جميعا من « التاميل » -

Tamilians

على أن من السهل أن يدخل الانسان السجن جانبا معتديا ، ولكنه من أصعب الأشياء أن يسجن المرء رغم أنه برىء . والمجرم إذا خشي القبض عليه هربا ، فيتعقبه رجال الشرطة ليقبضوا عليه . ولكنهم

انما يقبضون على الرجل البرى الذى يسعى لأن يقبض عليه حراً مختاراً،
 فى الوقت الذى لا يجدون فيه مناصاً من القبض عليه . ولم تقلح أول
 محاولة قن بها . وانحصرت محاولتهن فى اجتياز حدود الترنسفال عند
 بلدة تدعى « فريبنجينج » - Vereeniging - من غير تصريح باجتياز
 الترخوم . ثم عمدن إلى بيع السلع من غير رخصة ، ولكن البوليس لم
 يشأ أن يتعرض لهن . وأصبحن فى مشكلة كيف يقبض عليهن ؟ ولم
 يكن لدينا من الرجال عدد كاف على استعداد لأن يدخلوا السجن ،
 والذين كان عندهم هذا الاستعداد كانوا فى حيرة من أمر الطريق الذى
 يتبعونه ليدخلوه .

عند ما وصلت الأمور إلى هذا الحد عزمنا على تنفيذ خطة كنا
 استبقيناها لحين الحاجة إليها ، فنجحت وحقت رغباتنا . وكنت قد
 فكرت فى أن أضحي بكل المقيمين بمستعمرة العنقاء فى الوقت الذى
 تشتد فيه الحاجة إلى مثل هذا العمل . وكانت هذه الوسيلة آخر ما أقدم
 من قربان لآله الحق والعدل . والمقيمون فى العنقاء كانوا جميعاً من ذوى
 قرباى ومن الذين عاونونى فى العمل . واستقرت الفكرة على أن نرسل
 بهم جميعاً إلى السجن ما عدا القليل منهم ليقوموا بشؤون « الرأي
 الهندى » والذين يعنون بالأولاد الذين هم دون السادسة عشرة من
 العمر . وكانت هذه هى التضحية الكبرى التى أستطيع أن أقدمها فى ذلك
 الوقت . ولقد ذكرت أسماء ستة عشر شخصاً لستر « جو كمال »

باعتبار أن هذا العدد هو أقل عدد يمكن الاعتماد عليه في العراك المنتظر ،
وكانوا جميعاً من مؤسسى مستعمرة العنقاء . أما الخطة فكانت تنحصر
في أن يجتاز هؤلاء حدود الترنسفال فيقبض عليهم لأنهم اجتازوا
التخوم من غير ترخيص رسمى .

كان اجتياز حدود الترنسفال اعتداء . وكذلك كان اجتياز حدود
الناتال من الترنسفال اعتداء أيضاً . فإذا قبض على الأخوات وهن
يجتزئن حدود الناتال ، فحسن . أما إذا لم يقبض عليهن فكان عليهن
أن يتقدمن حتى يصلن الى نيوكاسل مركز مناجم الفحم فى ناتال
ويسكرن هنالك ، ويأخذن فى تحريض الأجراء ذوى العقود على أن
يقوموا باعتصاب عام . وكن يتكلمن بلغة « التاميل » ، ومنهن من
يتكلمن بالهندوسانية ولكن بغير اتقان . يبدأن أكثر الأجراء
الذين يعملون فى مناجم الفحم من مقاطعة مدارس وكلهم يعرف لغة
« التاميل » أو « التيلوغو » ، كما كانت البقية من سكان شمالى الهند .
فإذا اعتصب الأجراء اجابة لدعوة الأخوات ، فإن الحكومة اذذاك
تكون مضطرة لأن تقبض عليهن ومعهن الأجراء الذين من الجائر أن
تزداد حماسهم وتلتهب حميتهم . هذه كانت المناورة التى فكرت فيها
وشرحتها لآخوات مزرعة تولستوى من الترنسفال .

وذهبت الى مستعمرة العنقاء وكلت نزلها فى الأمر وشرحت لهم
تصميمى . وكان أول ما فعلت أنى أخنت أتفاوض مع الاخوات

المقيات في المستعمرة . وكنت أعرف أن فكرة ارسال النساء الى السجن فيها مخاطرة وما زق حرجة كل الحرج . وكان أكثر المقيات في العنقاء يتكلمن اللغة الكجرانية ، ولم يكن لديهن ما لدى أخوات الترنسفال من المراتة والتجارب . فاذا نكصن في وقت العمل أو اذا لم يستطعن تحمل أعباء السجن ، فربما طلبت منهن أن يعتذرن . فاذا فعلن ذلك ، فانهن بذلك لا يطعنني طعنة شديدة لا غير ، بل انهن يتحدثن بذلك أقصى المضار للحركة نفسها . وعلى هذا عذمت على أن لا أفضى بالأمر لزوجي ، لأنها لم تكن تستطيع أن تقول « لا » فرفض أى اقتراح أعرضه عليها ، واذا قالت « نعم » فاني لا أستطيع أن أزن القيمة الحقيقية التي تحتفي وراء موافقتها . هذا وانى أعتقد أن واجب الزوج في مثل هذه الظروف انما ينحصر في أن يترك زوجه حرة في أن تتخذ الطريق التي تختارها متحملة في ذلك المسؤولية كلها ، وأن لا يمتنع اذا هي لم تحتر أن تشاركه في أية سبيل يريد أن يلقى بنفسه فيها . فتكلمت مع بقية الأخوات ، فوافقن مسرورات على مقترحاتي ، وأظهرن استعدادهن للذهاب الى السجن ، بل أكدن لى انهن على استعداد لأن يقضين بقية أيامهن في السجن وليكن بعد ذلك ما يكون .

ولقد سمعتني زوجي أتكلم معهن فبادرتني قائلة

ـ « اني لحزينة لأنك لم تفانحنى بهذا الأمر . فأية نقيصة رأيتهـا

في حتى تصور أئى غير قادرة على احتمال مكاره السجن ؟ انى أريد أن

أنهيج نفس هذا النهج الذي تدعو اليه الاخريات » . فأجبتها : -
 « انك تعلمين انى آخر شخص يفكر فى أن يجعلك تتألمين . وليست
 المسألة تنحصر فى انى لا أئق بك . وانى لا أكون مسروراً جداً اذا أنت
 ذهبت الى السجن ، على أن لا يظهر بحال من الأحوال أن ذهابك اليه
 كان باغواء منى . وفى مثل هذه الأمور يجب على كل انسان أن لا يعتمد
 الا على قوته وشجاعته الشخصية . فاذا سألتك أن تشتركى فى الحركة ،
 فربما تتقدمين للاشتراك طواعية لطلبى . وعلى هذا اذا بدأت تنتفضين
 فى قاعة المحكمة أو اذا أزعجتك مصاعب السجن ، عجزت عن أن
 أعزو الخطأ اليك ، ولك أن تصورى كيف يكون حالى ، وكيف يكون
 موقفى . كيف أستطيع أن أستر على ضعفك أو كيف أستطيع أن أرى
 وجه الناس ؟ ان مخاوف كهذه هى التى حالت دون أن أسألك أن تذهبي
 مختارة الى السجن » . فقالت

- « ليس لك من شأن بى . فانى اذا لم أستطع أن أتحمّل مكاره السجن
 فانى أستطيع أن أسترّد حريتي باعتذار بسيط من غير أية مسئولية عليك .
 ومادمت أنت تستطيع أن تتحمل السجن وكذلك أولادى ، فلماذا لا
 أحتمله أنا ؟ انى ملزمة أن أشارك فى المعركة » .

- « واذن فأنا ملزم أن أدعوك اليها . أنت تعرفين أحوالى وكذلك
 تعرفين مزاجى وحتى هذه اللحظة لك أن تعيدى النظر فى الأمر وتتمعنى
 فيه طويلاً ، فاذا انتهيت بعد التفكير والتأمل الطويل الى أنك لا تشتركين

فى الحركة ، فانك حرة فى أن تنسحبى . ولك أن تفهمى أنه ليس من موجب للخجل اذا أنت اثنتى عن عزمك الآن . فأجابت « ليس عندى ما أفكر فيه ، انى مصممة تماماً »

وكذلك اثنتى الى بقية نزلاء العنقاء وأوحيت اليهم أن لكل منهم أو منهن أن يصل الى النتيجة التى يرغب فيها بكامل الحرية ، ومن غير أن يتأثر بحكم غيره . ولقد كررت عليهم هذا الوعى منتجاً طرقاتى ونبهتهم اليه وحذرتهم من أن ينكص أحدهم أو بعضهم فى منتصف الطريق طالت المعركة أم قصرت ، وسواء عمرت مستعمرة العنقاء أم خربت ، وسواء احتفظ الكل رجالاً ونساءً بضعة جيدة أم حطت عليهم الأمراض فى السجن . فوطن الجميع أنفسهم على العمل وأظهروا الاستعداد التام . وكان الرجل الوحيد الذى شارك فى العمل من غير نزلاء مستعمرة العنقاء رجلاً يدعى « رستوجى جيفانجى جوركهودو » وكان من الضرورى أن لا أخفى عنه شيئاً من مجمل هذا ، ولكن « كا كاجى » كما كان يدعى ، لم يكن ذلك الرجل الذى يهتز أمام مثل هذه الأشياء فقد زار السجن من قبل وشدد فى أنه يزوره مرة أخرى . وبدأت الغزوة .

كان على الغزاة أن يذهبوا الى السجن بمجرد اجتياز التخوم ودخول أرض الترنسفال من غير أن يكون لديهم ترخيص بذلك . ولم نشعر

أحداً بتحرك هذا الركب، وكتمنا الخبر عن الصحف، وكنا قد زدنا الغازيات بنصيحة محصلها ان لا يعطين أسماءهن حتى لو طلب منهن رجال الشرطة ذلك، ويقلن لهم انهن لا يظهرن شخصياتهن الا أمام المحكمة . وكان رجال الشرطة عارفين بمثل هذه الظروف . فبعد أن عكف المهنود على اتباع خطة البحث عن طريقة يقبض عليهم بها ، كانوا يتمتعون عادة عن اعطاء أسمائهم لمجرد التسلية واللهو ، وبذلك لم يجد البوليس شيئاً جديداً في غازيات العنقاء ، فقبض عليهن جبراً على عادته وقدمن للمحاكمة وحكم عليهن بالسجن ثلاثة أشهر مع الشغل . وكان ذلك في يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٣ .

والآن بقى على الأخوات اللاتي لم يفلحن في الترنسفال أن يدخلن ناتال ، ودخلن بالفعل ، ولكن لم يقبض عليهن . فيممن شطر نيوكاسل وبدأن عملهن اتباعاً للتعليمات التي أخذنها . وهناك ابتشر تأثيرهن انتشار النار في الهشيم . فان الرواية التي روينها للعمال عن الظلم الفادح الذي توقعه عليهم ضريبة الثلاثة الجنيهات هزتهم من الأعمال وحفزتهم للعمل ، فأضربوا . ووصلتني الأخبار بطريق البرق ، فارتبكت بقدر ما سررت . وماذا كان على أن أعمل ؟ فاني لم أكن أتوقع مثل هذه الضحوة العظيمة ، لأستعد لها . ولم يكن لدى الرجال ولا الاموال التي أستطيع بها أن أواجه حالة كهذه . ولكنني حددت واجبي تحديداً

تأماً . فشعرت بأنه يجب على أن أذهب الى نيوكاسل وأفعل كل ما أستطيع . فسافرت إليها في الحال .
أما الحكومة فلم تستطع أن تترك أخوات الترنسفال الباسلات متمتعات بحريتهن ليفعلن ما يردن ، وليزاولن نشاطهن في الدعاية . فحوكن وحكم عليهن بنفس ما حكم به على أخواتهن الأوليات ، وسجن مع غازيات مستعمرة العنقاء .



من كتاب لندن تأليف أحمد عطية الله تعرف كل شئ عن لندن والانجليز

الفصل الخامس عشر

المقاومون السليبيون

لقد هزت هذه الحوادث قلوب الهنود من الأعماق . ولم تقتصر هذه الهزة على جنوبي افريقية ، بل تعدتها الى الهند . ولقد ظل سير « فيروز شاه مهتا » حتى ذلك الحين غير مهم بقضيتنا العامة . وفي سنة ١٩٠١ نصحنى بشدة أن لا أهبط جنوبي افريقية ، واقتصرت حجته على أنه من المتعذر أن يعمل الانسان أى عمل يخدم به الهنود المقيمين في الخارج، مادامت الهند مستعبدة ولم تحقق حريتها ، كما أنه لم يتأثر بحركة « الستياجراها » في أدوارها البدائية الأولى . ولكن دخول النساء الى السجن حركه وهزه الى الدرجة التي لم تبلغها أية حادثة أخرى . ولقد أشار الى هذا في خطابه الذي ألقاه في قاعة محاضرات بومباي، فقال بأنه كلما ذكر أن نساء الهنود يرقدن في سجون جنوبي افريقية ، يغلي دمه في عروقه .

كانت الشجاعة التي أبدأها النساء مما لا تعبر عنه الكلمات التعبير الصحيح . وكن قد سجن في سجن « مارتربرج » ، حيث بولغ في ازعاجهن والكيد لهن بمختلف الصور . فأعطيت اليهن أسوأ الأطعمة ، وعهد

اليهن بغسل الملابس . ولم يسمح لهن باحضار طعام من الخارج اللهم
الا في أواخر مدة الحبس . وكانت احداهن قد قطعت على نفسها عهداً
دينياً بأن لا تتغذى الا بغذاء خاص . وبعد جهد جهيد ومحاولات
كثيرة سمح لها رجال السجن بأن تتناول ذلك الغذاء ، ولكن المادة التي
كانت تقدم لها منه كانت مما تعافه النفس ويأخذها من منظرها الفثيان .
فلما أفرج عنها خرجت من السجن أشبه بهيكل عظمى ، حتى اننا لم
ننقذ حياتها الا بجهد شديد . وأفرج عن أخرى وهي مصابة بحمى
شديدة لم نستطع انقاذها منها فمات بعد الافراج عنها بأيام .

وأنى لى أن أنسى « فلياما » ؟ - Villiama - هي فتاة من
جوها نسبرج لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، ولقد رأيتها وهي
طريحة الفراش . وكانت طويلة القامة ، فكان منظر جسمها الأعجف
الهزيل ، مما يشق المرأى ويصهر القلوب الرحيمة . سألتها :

- « أتدمنين يا فلياما على أنك دخلت السجن » ؟ فأجابتنى فوراً
- « أأندم ! انى لعلى استمداد الآن وفي هذه اللحظة أن أعود اليه
لوقبض على . »

- « وماذا لو ينتهى الأمر بموتك » ؟
- « انى لا أهتم بهذا . ومن ذا الذى لا يحب أن يموت فى سبيل
وطنه » ؟

وبعد بضعة أيام من هذا الحوار لم تصبح فلياما الا حديثاً يروى :

ولكنها خلفت لنا باسمها الخالد ميراثاً أبدياً عظيماً. وعقد الهنود اجتماعات في أماكن مختلفة ليعبروا بها عن حزنهم عليها ولتقبل بعضهم من بعض العزاء فيها ، وبدأ الهنود يفكرون في إقامة قاعة يسمونها قاعة « فلياما » ليخلدوا بذلك ذكرى التضحية الكبرى التي قدمتها اليهم إحدى بنات الهند . واني لأقول آسفاً أن هذه الفكرة لم تحقق إلى الآن . فقد أعترض تنفيذها صعاب كثيرة. لأن وحدة الجالية الهندية هنالك مزقتها الاختلافات الداخلية ، وترك المشتغلون بالقضية الميدان الواحد تلو الآخر ولكن مما يسليني أنه سواء أ شيدت قاعة من اللبنات أم لم تشيد ، فإن الخدمة التي قامت بها « فلياما » خالدة ولن تزول . لقد أقامت هيكلها الأبدى بعمل يديها . وإن اسم « فلياما » سيظل مذكوراً في تاريخ حركة الستياجراها في جنوبي افريقية ما بقي للهند اسم يذكر فوق الكرة الأرضية .

إن التضحية التي قدمتها أوليائكن الاخوات لتضحية خالصة بعيدة عن التأثير بالأغراض ، لأنهن كن جاهلات كل ما يترتب على الاجرات القضائية . وكثيرات منهن لم يكن ليدركن معنى للوطن ، بل كانت وطنيتهن قائمة على مجرد الايمان . وبعضهن كن غير مثقفات ولايستطعن قراءة الصحف . ولكنهن كن يدركن أن ضربة مميتة قد وجهت الى شرف الهنود ، وإن ذهابهن إلى السجن ليس الا صرخة عالية يعبرن بها عن آلامهن ومواجهتهن ، بل صلاة يرسلنها من أعماق قلوبهن لمن هو مطلع

على الأفئدة . فكانت هذه التضحية اسمي وأتقى التضحيات . وإن الصلاة التي تصدر من القلب لن تصل طريقها الى الله . كما أن التضحية لن تثمر الا بقدر ماتكون صافية نقية . ان الله يطلب من العبد أن يتورع ويتبذل . انه ليتقبل عطاء الثاكلة ، دافقاً كان أو سحتوناً بغبطة ، مادامت تهبه ورعة متبذلة ، أى مادامت تهبه غير مدفوعة عليه بغرض ذاتي ، فيرده عليها أضعافاً مضاعفة . لقد وهب « سوداما » ^(١) Sudama - الساذج حفنة من الأرز ، ولكن عطيته الضئيلة قد كفت الناس أعواماً من الشدة والعوز والموت جوعاً . لهذا أعتقد أن سجن الكثيرين ربما كان عملاً فائلاً وبلا نتيجة ، ولكن تضحية صافية نقية تقوم بها نفس تجردت من الأغراض ، لن تذهب سدى . ولن يستطيع أحد أن يقول تضحية من من الهنود الذين قاموا بالحركة في جنوب افريقية ، كانت أكثر تقبلاً عند الله ، فحملت الثمرة الأخيرة . ولكننا نعلم علم اليقين أن تضحية « فلياما » قد آتت أكلها . وكذلك كانت التضحيات التي قدمها بقية الأخوات .

لقد ذهبت أرواح لاعداد لها في الماضي ، وتذهب الآن أرواح أخرى ، وستذهب غير هذه وتلك في المستقبل ، خدمة للوطن والانسانية ، ولكن طبيعة الأشياء لن تجعلنا نعرف أيها كانت نقية صافية . ولكن

(١) « سوداما » في الأساطير وهب السد « كريشنا » ثلاث خففات من الأرز كانت كل ما يملك . ولكنه استعاضها أضعافاً .

ليطمئن الستياجراهيون . فلو أن نفساً واحدة من بين نفوسهم كانت صافية شفافة كالبلور ، لكفى ذلك لأن يوصلهم الى الغرض الأخير الذى رموا اليه . ان العالم انما يقوم على أساس « الساتيا » - Satya - أى الحق . أما « الأساتيا » - Asatya - ومعناها الباطل ، فإنها تؤدي أيضاً معنى « المدم » . وكذلك تؤدي كلمة « ساتيا » معنى « ماهو كائن » . فإذا انتصر الباطل الذى هو « عدم » فترة ما ، فإن انتصاره الموقوت ليس مما يعني . أما الحق الذى يفيد « ما هو كائن » فانه لن يعدم ولن يزول . وفي هذا يحمل ما نعى بكلمة « ستيا جراها » ، محدودة غير مفصلة .

لقد كان لسجن النساء فعل السحر فى العمال الذين كانوا يعملون فى المناجم بالقرب من « نيو كاسل » . فآلقوا بمعاولهم وأدواتهم وأخذوا يفقدون على المدينة زرافات متعاقبة . وعندما وصلتني هذه الأخبار غادرت مستعمرة العنقاء الى نيو كاسل .

لم يكن لهؤلاء العمال بيوت يملكونها . لأن أصحاب المناجم كانوا يهبثون لهم المساكن وزودونهم بالنور الذى ينير لهم الطرق والماء الذى يحتاجون اليه . فكانوا بهذا فى حالة افتقار دائم لن يعولونهم . ومن قبل قال « تولاسيداس » - Tulasidas - ان الشخص المفتقر الى غيره ، لن يرى السعادة حتى فى الأحلام .

ولقد أبدى لى المتصبون كثيراً من الشكاوى . فقال بعضهم ان

أصحاب الناجم قد حرموهم من النور والماء ، وذ كر آخرون ان أمتعتهم ألقيت في عرض الطريق وأصبحوا بلا مأوى . وتقدم الى رجل من الباثيين - pathian - يدعى «سيد ابراهيم» وكشف لى عن ظهره وقال لى « انظر كيف أوسعونى جلداً . وانى لم أترك العلوج يفلتون من يدي الا خضوعاً لأوامرك . فانى بائى . وأنت تعرف أن الباثيين لم يتعودوا أن يضربوا ، بل تعودوا أن يكونوا البادئين » . فأجبتة

- « حسناً يا أخى . انى أعتبر مثل هذا السلوك منتهى الشجاعة . ولسوف ننتصر لوكثر بيننا أمثالك » .

بهذه الكلمات هنأته وشكرته . ولكن قام فى روعى أن الاعتصاب لن يستمر إذا عومل كل المعتصين كما عومل هذا الأخ . وإذا تركنا مسألة الجلد جانباً ، فان الشكوى من قطع تيار الضوء والماء وغير ذلك من المميزات التى كان يزود بها المؤاجرون عما لهم ، لم يكن لها من موضع . ولكن سواء أكان هنالك أى مبرر للشكوى أم لم يكن لدينا أى حق فى أن نشكو ، فان المعتصين لم يكن فى وسعهم أن يثبتوا فى موقفهم ، وأصبح من واجبي أن أفكر فى مخرج ينقذنا من هذه الشدة ، والا فانه يصبح من الاوفى أن يعترف المعتصبون بأنهم هزموا ، فيرجعون الى العمل تواءم أن يرجعوا اليه بعد أن يظلوا زمناً ينفقونه فى الترقب الملل والانتظار المضى . غير أنى لم أكن قد وضعت فى خطى تصميا يحملنى على الانهزام . ولهذا حدثت أن المخرج الوحيد انما يكون فى

أن يترك المعتصبون محلات مؤاجريهم ويخلوها ، وأن يهيموا على وجوههم كما لو كانوا مهاجرين .

ولم يكن المعتصبون يعدون بالعثرات ، بل بالثبات . وربما زاد عددهم وتضاعف فصاروا آلافا . فكيف اذن أستطيع أن أهيم المأوى والمأكل لمثل هذا العدد العديد الذى أخذ يتزايد ويتضاعف ؟ ولم أكن على استعداد لأن أهيب بالهند لتمدد إلى يد المساعدة المالية . فان سيل الذهب الذى تدفق من الوطن لم يكن قد بدأ ينساب بعد . والتجار الهنود كانوا فى رعب ووجل ، ولم يكن فى مستطاعهم أن يساعدونى جهرة ، لما كان لهم من صلات مالية بأصحاب مناجم الفحم وغيرهم من الأوروبيين . وكانت عادتي أن أمر بهم كلما هبطت نيوكاسل . ولكنى فى هذه المرة أردت أن أوقفهم فى موقف حرج ، فنزلنا فى مكان آخر .

لم يكن عندى من المعدات ما يمكننى من أن آوى المعتصبين . فكانت السماء غطاءهم . ولكن ساعدنا حسن الحظ بأن كان الجو معتدلا ، ليس بالمطر ولا بالمهرير . غير أنى مع هذا كنت مقتنعا بأن فئة التجار لن تحجم عن أن تزودنا باليرة . وبالفعل أرسل إلينا تجار نيوكاسل أوانى الطبخ وأكياس الأرز . وأرسل إلينا كثير من الأرز « والدال » (١)

« Dal » من أماكن أخرى ، وأمطرنا بوابل من الخضر والتوابل

(١) الدال Dal بقل قريب الشبه بالعدس

وغيرها من الحاجيات . وفاقت المساعدات الحد الذى كنت أنتظره . ولم يكن جميع المعتصبين على استعداد لأن يدخلوا السجن ، ولكنهم كانوا يشعرون شعوراً مشتركاً بالمطف على قضيتهم ، كما كانوا مجمعين على أن يقوم كل منهم بما يستطيع وإلى الحد الذى تنتهى عنده قدرته . أما الذين لم يكن فى قدرتهم أن يمدوا الحركة بأى شىء فأنهم تطوعوا لأن يندسوا بين العمال بصفتهم عمالاً ليكبر العدد ويتضخم . وكنت فى حاجة إلى كثير من المتطوعين البارزين الأذكياء ليقوموا بمهنة إرشاد هؤلاء المترددين غير المثقفين ، فلم أنتظرهم طويلاً . وكانت نجاتهم فى مثل موقعي مما لا يقدر بأي ثمن ، أو يوزن بأى وزن . ولقد قبض على كثير منهم وزجوا فى السجن ، وعلى الجملة أقول بأن كلا منهم أدى واجبه كاملاً ، فهد ذلك سبيل الانتصار وعبد طريق الفوز .

وتدقق علينا سبل من الرجال فكنا نقبل باغتيال انضمامهم إلى صفوفنا غير أن مهمتنا أصبحت شاقة إن لم تكن مستحيلة ، إذ رأينا أنه من المتعذر علينا أن نحلهم فى مكان واحد ، وأن نعى بهم فى وقت بطالتهم . وبما زادنا رهبة ، أنهم جميعاً كانوا جاهلين بقواعد الصحة الأولية . وكان بعضهم من أضياف السجون حلوا بها للسرقة أو القتل أو الفسوق . ولا شك فى أنه من العبث أن يضع الإنسان نفسه فى موضع الحكم الذى يقضى على المعتصبين من حيث السلوك والأخلاق . وأمعن من هذا فى العبث ، أن يحاول الإنسان أن يفرق فى مثل هذه الحالة بين

الشيء والذئاب، بل حصرت كل همى فى أن أقود الاعتصاب، وأوجهه إلى الناحية التى يرجى منها النفع . وهى مهمة بعيدة كل البعد عن أن تتمزج بمجهود توجه نحو الإصلاح . غير أنى على الرغم من هذا شعرت أنه من واجبي أن ألاحظ أن أصول الآداب لابد من أن تظل مرعية فى المخيم ، من غير أن أنظر فى سوابق كل من المعتصبين .

وأخذت أفكر فى حل أخلص به من هذه الورطة . فتبادر الى أن أقود هذا الجيش العرم الى الترنسفال وأسلم به فى أمان الى السجن كما فعلت من قبل بـ سكان مستعمرة العنقاء . وتخوم الترنسفال تبعد عن نيوكاسل ثلاثاً وستين ميلاً . والقريتان الواقعتان على تخوم ناتال والترنسفال هما شارلستون فى الأولى وفلكسرست - Volksrust - فى الثانية . وفى النهاية صممنا على أن نسير على الأقدام . واستشرت العمال المعتصبين فى ذلك الأمر . وكان معهم زوجاتهم وأولادهم ، فتردد البعض فى قبول مقترحي . ولكن لم يكن أسمى من سبيل إلا أن أقسو قليلاً ، فأعلن أن هؤلاء أحرار فى أن يعودوا الى العمل فى المناجم . فلم يشأ واحد منهم أن ينتهز هذه الفرصة . لهذا قررنا أن الذين هم مصابون بمرض فى أطرافهم يعوقهم عن متابعة السير مسافات طويلة ، يرسلون بالقطر الحديدية ، فى حين أن كل الأقوياء القادرين على السير على القدم، أعلنوا أنهم مستعدون للذهاب مشياً إلى شارلستون. وكانت المسافة تستغرق يومين سيراً معتدلاً . ولم نكد نصل الى نهاية السير

ونبلغ غرضنا ، حتى بدا الابتهاج على الجميع . أما الأوروبيون في نيو كاسل فقد توقعوا انتشار الطاعون ، وأخذهم الشفاق والوجل ، فكانوا على استعداد لأن يتخذوا من الاجراءآت كل ما من شأنه أن يحول دون وقوع مثل هذه الكارثة .

ولقد قابلت أصحاب المناجم في دوربان ورأيت أنهم متأثرون بمض الشيء من جراء الاعتصاب . ولكنى لم أكن أُنظر أية نتيجة كبيرة من وراء الاجتماع بهم . غير أنه يجب أن نذكر أن المؤمن بمبدأ الستياجراها لا يجب أن يعرف للتجرد أو الاستسلام حداً . من واجبه أن لا يترك فرصة يمكن أن تنتهز للتفاهم من غير أن يفتنمها ، بدون أن يفكر في أن ينظر اليه أى انسان باعتباره جباناً أو أن الشجاعة تعوزه . فان الرجل المؤمن الحائر لتلك القوة الكبرى التى يبعثها الايمان ، لن يضيره من شىء أن ينظر اليه الغير نظرة امتهان . انه لا يقيم لشيء وزناً اللهم الا قوته الذاتية . لهذا يجب أن يكون محتشماً مع الجميع وبذلك يندر ذلك البذر الذى لن يكون له من جنى الا أن تنجحه الفكرة الى قداسة قضيته . ولهذا تقبلت دعوة أصحاب المناجم بأحسن القبول ، فلما قابلتهم رأيت أن الجو مشبع بكثير من الحرارة والشهوة الجامحة التى تبعثها مثل هذه المواقف . فبدلاً من أن يسمعن مندوبهم فأشرح له الموقف ، أخذ يستجوبنى . ولكنى أجبتة أجوبة تلائم مقتضى الحال :

— « انه في مقدورك أن تنهى الاعتصاب » . فكان جوابى

— « اننا لسنا بموظفين » .

— « في استطاعتكم أن تعملوا كثيراً من العمل المنتج ، ولو انكم غير موظفين . وفي قدرتكم أن تقتحموا المعركة لصالح المال . فاذا سألتكم الحكومة أن ترفع ضريبة ثلاثة الجنيهات ، فليست أظن انها ترفض الفاءها . كما ان في وسعكم أن تثيروا الرأي العام الأوروبي فيما يختص بمسألتكم . »

— « ولكن ماذا عن ضريبة الثلاثة الجنيهات بالاعتصاب؟ فانه اذا كان للمعتصبين مايشكون منه تلقاء أصحاب المناجم ، فهذا من واجبيكم أن تعملوا على تسويته على وجه مقبول . وليست أجد من سلاح يمكن أن يلجأ اليه العمال سوى الاعتصاب . وضريبة الجنيهات الثلاثة لم تكن الا خدمة لأصحاب المناجم الذين يريدون أن يشتغل لهم العمال، ولكن لا كعمال أحرار، بل كعبيد . فاذا أضرب العمال ليتوصلوا الى الفاء هذه الضريبة ، فليست أرى في هذا العمل مايمكن أن يعتبر تحدياً أو ظلاماً لأصحاب المناجم »

ولا أذكر بقية المناقشة الآن . ولكنني فهمت أن أصحاب المناجم قد فهموا جيداً ضعف موقفهم ، فأخذوا يفاوضون الحكومة . ولقد رأيت خلال سياحتي الى دوربان والعودة منها أن الاعتصاب وما وسم به من مظاهر السلام والمسالمة كان له أكبر الأثر في مراقبي سكة الحديد وغيرهم . وسافرت في الدرجة الثالثة كما هي عادتي ، فقدم الى المراقب

وغيره من الموظفين وألقوا على كثيرًا من الأسئلة المتعلقة بالاعتصاب وتمنوا الى النجاح . ولقد أبدى هؤلاء الموظفون عجبهم واعجابهم من أن مثل هؤلاء الفقراء الجهلاء غير المثقفين، قد احتملوا مثل هذه الشدائد في سبيل أن ينجحوا ويفوزوا بغرضهم . ولاشك في أن الحزم والشجاعة صفتان لا بد من أن تتركا أثرهما الثابت حتى في الأعداء والمنافسين

وعدت الى نيو كاسل . وكان المال لا يزالون يفدون زراقات من كل مكان . وما وئيت في أن أشرح كل الموقف لجيش المال المعتصين ، قائلاً في النهاية أنهم ما يزالون أحراراً في أن يعودوا الى العمل اذا أرادوا . وابنت لهم عن التهديدات التي كان يهددهم بها أصحاب المناجم ، وصورت لهم المآزق التي قد يضطرون الى اجتيازها في المستقبل ، وأظهرت لهم مصاعب السجن وويلاته . ومع كل هذا فانهم لم ينكصوا على أعقابهم ، بل أجابوني بغير ما خوف أو وجل بأني لن أشغل نفسي بهم لأنهم اعتادوا الشدائد ومرتوا على الولايات .

لم يبق اذ ذاك لدينا من شيء الا أن نبدأ الزحف . وأعطينا العمال الإشارة بأنهم سوف يبدأون السير في الصباح الباكر من اليوم القادم (٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣) وقرأنا عليهم التعليمات التي يجب أن تراعى لدى السير . وليس من الهينات أن ننظم جمعاً مكوناً من خمسة آلاف أو ستة آلاف رجل . ولم يكن في استطاعتي أن أزودهم بأكثر من رطل ونصف من الخبز وأوقية من السكر لكل جندي خلال المسير ،

واذا سهل على أن احصل على شيء آخر من التجار الهنود في الطريق، فاني لأبخل به عليهم . ولكن اذا لم يتيسر ذلك فعليهم أن يرضوا بما قسم لهم . ولقد كانت تجاربي في حرب البوير وثورة الزولو أكبر عون لي على معالجة الحالة . فأمرت بأن لا يحمل أحد من «الغزاة» من الملابس أكثر مما هو ضروري ، وأن لا يمس أحد أمتعة غيره خلال الطريق . كما نهت عليهم أن يهتموا بصبر واثابة ما يمكن أن يوجهه اليهم الاوروبيون من الاهانات أو السباب، وأن يمشوا في سلام حتى ولو ضربوا أو جلدوا . فاذا أريد القبض عليهم فليسلموا أنفسهم بغير مقاومة، ولقد أثبت لهم كل هذه التعليقات بجلاء ، ثم أعلنت عليهم أسماء الذين يخلفوني في قيادتهم اذا قبض على . ولا شك في أنهم فهموا ماقلت فهماً جيداً ، فوصلنا شارلستون بسلام . وهناك أمدنا التجار بكثير من المعونة . ففسحوا لنا بيوتهم لنشغلها ، وسمحوا لنا أن نطهى الطعام في صحن الجامع . وكانت الميرة لا بد من أن تنتهي بانتهاء المسير الى حيث قصدنا ، وكنا في حاجة الى أوان للطبخ ، فلم يتوان التجار في أن يمدونا بها . وكان معنا مخزون كبير من الأرز وغيره من الحاجيات التي سارع التجار بامدادنا بها .

كانت شارلستون في ذلك الوقت عبارة عن قرية صغيرة لا يزيد تعدادها على ألف نسمة . فلم نسمح لغير النساء والأطفال أن يحتلوا المنازل . ولذا خيم الباقون في العراء . ولقد تمر بي كثير من الذكريات السعيدة

وقليل من الذكريات المؤلة ، وقمت حوادثها خلال اقامتنا بقرية شارلستون . أما الذكريات السعيدة فتتعلق بمصلحة الصحة والموظف المنوط به أمر الصحة في ذلك المركز وكان يدعى دكتور « برسكو » Dr. Briscoe فانه على الرغم من أنه أخذته الحيرة من تضاعف عدد السكان فجأة تضاعفاً مزعجاً ، سارع الى ملاقاتي ، وبدلاً من أن يتخذ أى اجراء عاجل ، اقترح على بعض المقترحات وعرض على المساعدة . ولا شك في أن الأوروبيين ذوى عناية بنظافة الماء والطرق والاحتفاظ بالأدوات الصحية في أحسن حال من الاناقة . على الضد منا ، فاننا قلما نمنى بهذا الأمر . لهذا رجاني مستر « برسكو » أن أمنع القاء المياه القذرة في الطرقات وان احول بين رجالنا وبين تقذير المكان الذى يحتلونه أو القاء الكناسة والفضلات حيثما اتفق . وكان من الصعب على ان أحمل الهنود على مراعاة هذه الأوامر وتنفيذها ، ولكن المهاجرين والزملاء الذين رافقوني لدى بدء الاعتصاب هونوا على كثيراً من هذه المصاعب ولقد بان لى في كثير من المواقف أن العمل يسهل وينتج أحسن النتائج ، اذا انصرف الخادم الى الخدمة بمجد وكد من غير أن يحاول أن يعلى ارادته على الذين يخدمون معه . فاذا أقدم على العمل بنفسه ، فلا بد من أن يتبعه الباقون . فلم تخطيء تجربتي لدى التطبيق في هذه الفرصة . فاني وزملائي لم تتأخر هنيهة على الاكباب عن الكس ونقل الكناسة والفضلات وما يشابه ذلك من الأعمال . فكانت النتيجة ان اشترك الكل

في العمل بحماسة وحرارة . وكان « كلنباخ » قد سبقنا الى شارلستون ، وكذلك مس « شلسن » التي لن أستطيع ان أوفى صفاتها في الاكباب على العمل والدقة والأمانة حقها من الوصف والمدح . ومن الهنود المعروفين الذين عملوا بكل حماسة وأمدونا بكل ما يمكن من المساعدات، الزحومان « نايديو » والبرت كروستوفر .

كلما فكرت فيما أبدى الرجال من الصبر والاحتمال في هذه المشقة، تملكني شعور عميق بقدره الله الشاملة . وكنت بين الطهارة رئيساً عليهم . وقد يحدث ان يضاف على بقل « اللال » كثير من الماء، كما يحدث أن لا يتم نضجه في الطهي . وكثير ما كان الارز والخضروات تقدم غير مطبوخة طبخاً كافياً . ولم أر في أطراف الكرة الأرضية التي زرتها لفيماً من الناس يستسيغ ازدراد مثل هذا الطعام . بمثل ما شاهدت لدى المعتصين من شية . فقد رأيت في سجون جنوب افريقية انه كثيرا ما يفقد الذين نسهم بأنهم متعلمون صبرهم، اذا قدم اليهم طعام أقل من اللازم، أو طعام سيء الطهي أو تأخر تقديمه اليهم .

كان من بين الأخوات اخت من دوربان تدعى « باي فاطمة محتب » لم تستطع ان تحتل معايشة اخواتها التاميليات عند ما سجن في نيو كاسل . ولهذا ذهبت الى فولكسبرست ليقبض عليها وتسجن بها مع أمها « حنيفة باي » وابنها الذي لم يكن يتجاوز السابعة من عمره . وقبض على الأم والبنت ولكن الحكومة لم تشأ أن تقبض على الابن .

ودعيت « فاطمة باى » لتؤخذ بصاتها فى المكان المعين لذلك ، ولكنها رفضت أن تخضع لمثل هذه الأهانة فحكم عليها وعلى أمها بالسجن ثلاثة أشهر .

وكان اعتصاب العمال فى ذلك الوقت قد بلغ أشده . وكان الرجال والنساء حينذاك آخذين فى الزحف بين مقر المناجم وبين شارلستون . وكان من بينهم امرأتان ومعهما أولادهما فمات أحدهم من التعرض للطقس ، وسقط واحد غيره من بين ذراعى أمه عند ما كانت تتجاذج بجرى نهر ومات غريقاً . ولكن الأمين الباسلتيين رفضتا ان تنكصا ، وتابعتا المسير . بل لقد قالت احدهما « ليس لنا ان نحزن على الموتى الذين لن يعودوا إلينا مهما حزنا . ان الواجب يدعونا إلى العمل من أجل الاحياء » . ولقد وقعت بين الفقراء والموزين على أمثال هذه الصور النادرة من الشجاعة الهادئة والايمان الثابت والنظر الشامل لحقائق الحياة .

ولقد قام الرجال والنساء فى مركزهم الدقيق بقرية شارلسون بما يفرضه عليهم الواجب وروح التضحية . فان الذى حملنا على أن نهبط هذا المكان مهاجرين لم تكن روحاً سلمية . هذا على الرغم من أننا كنا فى سلام روحى نشعر به من أعماق نفوسنا . ولقد علقنا اعلانات كبيرة فى كثير من الأماكن كتبنا عليها « لا سلام هنا » . ولكن لا شك

أنه في مثل هذا الجو يمكن لمثل « ميراباي »^(١) - Mirabai - أن تأخذ كأس السم الى فيها وتجرب ما فيه فرحة راضية ، وأن يذهب سقراط هادئاً الى أحضان الموت في سجنه السحيق المنفرد ، ويوجه الى أصدقائه والينا في شخصهم ذلك اللوم المقذع الذي ضمنه مذهب ان الذي ينشد السلام يجب أن يبحث عنه في نواحي نفسه . وبمثل هذا السلام الذي نما في نفوس السيتاجرايين عاشوا في غيهم غير آبهين بما سوف يأتي به القدر .

وكتبت الى الحكومة أنبئها بأنه ليس من غرضنا أن ندخل الترنسفال بقصد الإقامة ، بل ندخلها احتجاجاً على أن ينقض الوزير عهده ، وتظاهراً صارخاً على يأسنا من أن نسترد احترامنا الذي فقدناه . ولا شك في أن الحكومة كانت توفر علينا كثيراً من المتاعب اذا هي تفضلت وقبضت علينا حيث كنا ، أى في شارلستون . ولم تكن حركتنا بالسر الذي لا يباح به . بل كنا نأف من أن يدخل أحدنا أرض الترنسفال تسلاً وفي خفية . ولكننا لم يكن في وسعنا أن نمثل مسؤولية ما يأتي أى شخص من عمل قد يروقه ، لأنه كان علينا أن ننظم آلافاً من الناس الذين لا نعرفهم شخصياً ، ولم يكن في وسعنا أن نفرض عليهم من شيء اللهم إلا الدعوة للحجة والصفاء . ولقد أكدت للحكومة في النهاية

١ ميراباي ملكة وقديسة لها أغنية دنيئة يحبها أهل الهند .

أنها اذا ألغت ضريبة الجنيحات الثلاثة ينتهى الاعتصاب ويعود المال
ذوو العقود الى العمل ، لأننا سوف لا ندعوم الى الجلالد فى سبيل
التغلب على بقية الأشياء التى نرفع أصواتنا بالشكوى منها .

كان موقفنا حينذاك غير مفهوم جيداً ، ولم نكن نعرف متى تقدم
الحكومة على القبض علينا . وكان علينا أن لا ننتظر فى مثل هذه الأزمة
الشديدة جواباً من الحكومة الا بعد مضى بضعة أيام . لهذا صممنا
على أن تغادر شارلستون وندخل الترنسفال توأ ، اذا لم تقبض الحكومة
علينا . فاذا لم يلق القبض علينا خلال الطريق ، بقى علينا أن نغضى فى
السيد فنقطع فى اليوم أربعة وعشرين ميلاً ونستمر على ذلك ثمانية أيام
لنصل الى مزرعة تولستوى وأن نظل هنالك حتى تنتهى المعركة ، وقى
خلال الإقامة بالمزرعة يعمل المال فى فلحها ليقوموا بأودهم ، وكان مستر
كلنباخ قد أكمل كل المعدات الضرورية . وكانت الفكرة أن نشيد
أ كواخاً من الطين يصنعها المهاجرون بأنفسهم . وكانت الصعوبة
الوحيدة التى تعترض هذا العمل ، ان فضل الأمطار كان قد أظلمنا لإيانه ، ومن
الضرورى أن يكون لكل انسان ملجأً يحتمى به اتقاء الأمطار .
ولكن مستر كلنباخ كان يتوقع فى شجاعة ، أنه سوف يحل هذا المشكل
بصورة من الصور .

وفولكسبرست قرية قدر شارلستون مرتين . وأيدي صاحب مخبز
أوروبى بها رغبته فى أن يتعاقد معنا على أن يزودنا بما يلزمنا من الخبز ،

ولم ينتهز صاحب الخبز هذه الفرصة ليأخذ منا ثمناً للخبز أعلا من الثمن السائد في السوق ، كما أنه أخذ يصنع الخبز من أجود صنف من الدقيق . وكان الخباز يرسل الخبز في الوقت المناسب بطريق سكة الحديد فأخذ عمالها وكلهم من الأوروبيين يقومون بواجبهم نحونا ، فكانت الارساليات تصلنا كاملة ، وعنوا كل عناية بنقلها وخصونا ببعض التسهيلات . فقد كانوا يرفون أن قلوبنا لا تنطوي على عداة أو ضغينة ، وأنه ليس من قصدنا أن نلحق ضرراً بمخلوق ، وأن غايتنا هي الوصول الى حقوقنا من طريق ما نعانى من آلام وما نحتمل من مشقات . ولذا كان الجو الذى أحاطنا تقياً خالصاً من الشوائب ، واستمر تقياً طوال أيام جهادنا . وما السبب في هذا الا أن الحب الكامن في النفس الانسانية قد نشط وأخذ يظهر أثره . فكان الكل يشعر بأنهم اخوان مهما اختلفت النحل بين نصارى ويهود وهندوكيين ومسلمين أو غير ذلك .

ولما خيم الظلام سكنت الأصوات واستقرت الأرواح ، وكنت على وشك أن أوى الى مضجعى عندما سمعت جلبة . ورأيت أوروبياً يتقدم نحونا وفي يده مصباح . ففهمت معنى ذلك ، ولكن لم يكن عندى من المهام ما أوصى به قبل القبض على .

« لدى أمر بالقبض عليك . أريد أن ألقى عليك القبض » .

فأجبت الضابط:

- « الى أين سوف تذهب بي . »

ت « الى أقرب محطة لسكة الحديد الآن ، ثم الى فولكسبرست
عند ما يصل أول قطار مسافر اليها » .

- « سأذهب معك من غير أن أخبر أى انسان ، ولكن على أن
أترك بعض التعليمات مع أحد الزملاء » .



الفصل السادس عشر

السجن والانتصار

أيقظت مستر « نايدو » الذى كان نائماً بالقرب منى ، وأخبرته بخبر القبض على ورجوته أن لا يذيع الأمر بين المهاجرين قبل أن يتنفس الصبح . وان عليهم عندما يبين النهار أن يتحركوا للمسير ، على أن يبدأوا به قبل بزوغ الشمس . وعندما يحين وقت الاستراحة ليقنأولوا وجبتهم ، له أن يذيع بينهم خبر القبض على . وأبحت له فوق ذلك أن يلتقى بهذا الخبر لأى انسان يسأله عنى ، فيما لو قبض على المهاجرين ، والا فالواجب عليهم أن يتابعوا السير طبقاً للبرنامج الموضوع . ولم يداخل نايدو أى شك أو خوف على الاطلاق . فأملت عليه تعليماتى بما يتبعه فيما لو قبض عليه هو أيضاً . وكان مستر كلبناخ فى فولكسمرست فى ذلك الحين . ورافقت ضابط البوليس وسافرنا الى فولكسمرست . غير ان النائب العمومى أبى أن يستمر القبض على اذ لم تكن قد وصلتته الأسباب التى يبنى عليها أمر القبض ، وعلى هذا أجل النظر فى أمرى وأطلق سراحي بعد وضع كفالة قدرها خمسين جنيهاً . وكان مستر كلبناخ قد أعد مركبة لى وسافر معى فى الحال لنعود الى مشاركة المهاجرين

في زحفهم . وأراد مراسل جريدة « ترنسفال ليدر » أن يرافقتنا . فأخذناه معنا في العربة ، فنشر في ذلك الحين وصفاً دقيقاً للجمالة ووصف سياحتنا ومقابلتنا مع المهاجرين الذين تلقوني بمظاهر الحماسة وأبدوا أشد الفرح بمودتي . واستمر زحفنا . ولكن لم يرق للحكومة أن تتركني حراً . ولذا صدرت الأوامر بإعادة القبض على ، وقبض على فعلا في ستندرتون في الثامن من الشهر . ولقد زدنا تجار ستندرتون بيضمة علب من مربى الشمس ، فاجتاج توزيعها على المهاجرين وقتاً أزيد مما يحتاج توزيع بقية المأكولات

ولقد سألت المهاجرين أن يتابعوا السير ، ثم فارقتهم صحبة الحاكم الذي أتى على القبض بنفسه . وبمجرد أن وصلت قاعة الجلسة في المحكمة وجدت أن بعض زملائي كان قد قبض عليهم . وجدت منهم خمسة هم : بايدو ، وبهاريلال مهاراج ، ورامايان سنها ، وراجونا راسو ، ورحيم خان . ولم ترغب الحكومة في أن يؤدي قبضها إلى سجننا معاً ، كما إنهم لم ترد أن يحمل الزملاء رسالاتي عندما يطلق سراحهم إلى الخارج . ولهذا صممت السلطات على أن تفصل بين ثلاثنا ، أنا وكلنباخ وبولاك ، فرحلتنا من فولكسرسست ، وأرسلت بي إلى مكان لا يمكن أن ألتقي فيه بأحد من بنى جلدتي .

لهذا أرسلت إلى سجن « بلونفوتين » . ولم يكن بهذه البلدة أكثر من خمسين هندياً يشتغلون جميعاً خديناً في الفنادق : وكنت السجين

الهندي الوحيد ، في حين كان باقي ضيوف السجن من الاوروبيين والعبيد . ولم تأخذني هزة من جراء هذه العزلة ، بل تقبلتها كنعمة أنعمت على الحكومة بها ، فقد وفرت على أن اوقظ سمعى ونظرى لازاقب تصرفات بقية السجناء ، وفرحت لان سنحت لى فرصة التزود بتجاريب جديدة ، وفضلا عن هذا فانه لم تمر بى أوقات أستطيع أن أتفرغ فيها للدرس ، وعلى الأخص منذ سنة ١٨٩٣ ، فكانت هذه الفرصة أحسن الفرص التى أنفقها فى الدرس والا كباب عليه سنة كاملة . وقد تمت فى سجن بلوفوتتين بأ كبر قسط من الانفراد كنت أتوق اليه . ولا شك فى أنه كان حولى كثير مما يقلقنى ويمضنى ، ولكنه كان مما يمكن احتماله . ونشأت بينى وبين طبيب السجن صداقة . وكان السجنان لا يستطيع أن يفكر الا فى أن يظهر سلطانه وجبروته ، فى حين كان الطبيب تواقاً لأن يتمتع المسجونون بحقوقهم التى يحولهم إياها قانون السجن . وكنت من ذلك الوقت أغتذى على الفواكه صرفاً ، فلا أتناول الا الموز والطماطم والجنود الخضراء وزيت الزيتون . ولم يكن لى مفر من الموت جوعاً اذا قدم الى شىء من هذه الأشياء فى حالة فساد أو كان منه صنف غير جيد . لهذا عنى الطبيب كل عناية باتتقائها ، وأضاف اليها اللوز والجوز العادى والجوز البرازيلى لتكون من ضمن الأصناف التى تقدم الى : ولم يكن فى حجرة السجن التى خصصت لى طريق كاف للتهوية . فعمل الطبيب أقصى جهده فى أن تظل الحجرة

مفتوحة الباب ، ولكن لم يفز من ذلك بطائل ، وهدده السجن بالاستقالة اذا هو حمل على أن يترك باب الحجرة غير موصد . على انه لم يكن رجلاً شريراً ، ولكنه كان يريد أن يتبع نظاماً واحداً لا يخالفه ولا يشذ عنه في حالة من الحالات ومهما كانت الظروف

وكان مستر كلنباخ قد حمل الى سجن بريتوريا ، وبولاك إلى سجن جرمستون . ولكن الحكومة كانت تستطيع أن تتق كل هذه المتاعب . لأن مثل رحلها في هذه الحال كان كمثل مسر بارتنجتون في الأقصوصة ، عند ما أرادت أن توقف مد المحيط الخضم بالكنيسة التي كانت تحملها . ذلك لأن العمال في ناتال كانوا قد استيقظوا من غفوتهم ، وأصبح من المتعذر على اية قوة في الأرض أن تشيخهم عن عزيمتهم .

ان الصائغ يمتحن ذهبه على المحك ، فان لم يستبن مقدار مافيه من النقاء أحماه ودقه بالمطرقة ، حتى اذا كان فيه شيء من المعادن الاخرى أو الأوساخ انفصل عنه وبقي الذهب الخالص . ولا شك عندي في أن الهنود مروا في جنوب افريقية بمثل هذه التجربة . فانهم صهروا ودقوا بالمطارق الثقيلة ، ثم دمنوا بطابع الذهب الصافي ، بعد أن مروا بهذه التجارب القاسية صابرين مصابرين . فقد شحن المهاجرون في قطر سكة الحديد لا ليتزوها ، بل ليتطهروا بالنار ، ويتمدوا بها . فان الحكومة لم تمن خلال تسفيرهم مشحونين شحن البضائع والسلع حتى بأمر طعامهم ، وبمجرد ان وصلوا ناتال وجهت اليهم التهمة وحكم عليهم وسجنوا . على

اننا كنا ننتظر هذا العمل وترغب فيه ، غير ان الحكومة كان عليها ان
تتحمل نفقات كبيرة فتظهر في الوقت ذاته كأنها لعبة في يد الهنود اذا
هي استمرت ثغرى في سجونها بمثل هذا العدد الهائل من العمال . ناهيك
بأن أصحاب المناجم كان عليهم ان يعطوا العمل في مناجمهم خلال المدة التي
يقضونها في السجن . ولا شك في ان الحال اذا ظل سائر على هذا النوال
فترة ما من الزمن ، فان الحكومة تكون مضطرة الى الغاء ضريبة ثلاثة
الجنيهات . لهذا فكرت الحكومة في طريقة مبتكرة . فحطت منطقة
المناجم بالاسلاك الشائكة وأعلنت ان هذه المنطقة أصبحت من ملحقات
سجن دندى ونيوكاسل ، وعينت المستخدمين الأوربيين لدى أصحاب
المناجم مراقبين عليهم . وبهذه الوسيلة استطاعوا أن يضعوا انوف العمال
في الرغام على الضد من ارادتهم ، وبدأت المناجم تزدهم بالعمال في الحال .
على أن هنالك فرقا بين خادم وعبد . فان الأول اذا ترك عمله لم يكن في
مستطاعك ان ترغمه على شئ الا من طريق التحاكم واستصدار حكم
عليه . ولكن الثاني يمكن أن تعيده الى العمل بالقوة . وبهذا اعيد
العمال الى العمل ولكن بصفتهم عبيداً من غير قيد ولا شرط .

وكان هذا العمل في جانب الحكومة أكثر مما تنتظر منه . ولكن
العمال كانوا بسلاء فأبوا أن يعملوا في المناجم . وانتهى الأمر الى أن يجلدوا
بقسوة ووحشية . وكان رقباؤهم الوحشيو الطبائع قد استعانوا بالسلطة
التي خولتهم الحكومة فأخذوا يسطونها على العمال ويؤدونها اليهم ركلا

بالأرجل وصفعاً بالأكف وسباً بالأسنة ، الى غير ذلك من ضروب
القسوة والاهانة التي لم تسجل عليهم . ولكن على الرغم من هذا كله
ظل العمال الساكنين مستمسكين بموقفهم ، غير آبهين بما يقع عليهم من
صنوف العذاب .

وأرسلنا الى الهند اشارات برقية ضمناها خبر هذه الاعتداءات
وخصصنا بها الزعيم «جوكهال» الذي اهتم بالأمر واتصل بنا ، حتى أنه
كان يستعلم عن الأخبار اذا أخرناها عنه يوماً واحداً . وأخذ «جوكهال»
ينشر الأخبار رغم أنه كان ملازماً فراشه لمرض شديد ألم به . ولكنه
على الرغم من مرضه أصر على أن يلحظ بنفسه أحوال الهند في جنوبي
افريقية ويعنى بها حتى لقد شغل بها ليل نهار . ولقد اهتزت جميع أنحاء
الهند في تلك الآونة واستيقظت فأصبحت مسائل جنوبي افريقية
حديث المجالس وشغل الساعة .

في ذلك الحين ألقى اللورد هاردنج خطابه المشهور في مدراس ،
ذلك الخطاب الذي أزعج الأوروبيين في جنوبي افريقية وفي إنجلترا على
السواء . ولم يكن من عادة حكام الهند أن يوجهوا انتقاداتهم الى
التصرفات التي تأتيناها الحكومات الأخرى في أنحاء الامبراطورية ،
ولكن اللورد هاردنج لم يكتف بأن يوجه تقدماً مقنعاً لحكومة الاتحاد
الافريقى فقط ، بل دافع دفاعاً مجيداً عن تصرفات الستياجراهميين
وخطتهم السلمية ، وأيد عصيانهم اللدنى لقانون وحشى جائر . وعلى

الرغم من أن خطاب اللورد هاردنج قد لاقى كثيراً من التعليقات المعادية في إنجلترا ، فإنه لم يحاول أن يمتد أو يعدل موقفه ، بل على الضد من ذلك صرح للكثيرين بأنه مقتنع بصحة الموقف الذي اضطر أن يقفه . ولا شك في أن حزم اللورد هاردنج في خطته هذه قد أحدث أثراً ظهرت نتائجه في كل مكان .

ولترك الآن أولئك العمال البواسل التعساء مأسورين داخل حدود منطقة المناجم هنيئة ، لتكلم قليلاً عن حقيقة الموقف في أطراف أخرى من بلاد ناتال . فإن منطقة المناجم تقع في الشمال الغربي من تلك البلاد ، ولكن الهنود كانوا يعملون في البقاع المجاورة للشواطئ في الشمال والغرب . وكنت متصلاً قبل حدوث الاعتصاب بالهنود الذين يعملون على الشاطئ الشمالي ، لأن كثيراً منهم اشترك معي في حرب البوير . ولكنني لم أكن قد اتصلت بالعمال الذين يعملون في منطقة الشاطئ الجنوبي اتصالي بالأولين ، ولم يكن لي هناك من الزملاء إلا العدد اليسير ، ولقد باع كثير منهم أثاث منزله مقدراً أن المعركة سوف يطول أمدها وأنه سوف يحتاج للزاد الذي ربما يضمن به عليه أهل جلدته من الأغنياء . ولما ذهبت إلى السجن حذرت زملائي في العمل من أن ينصحوا الغير المتعصبين من العمال أن يعانون اضطرابهم عن العمل ، لأنني قدرت أننا نستطيع أن ننتصر حتى لو اقتصر الاعتصاب على عمال المناجم ، ولأن عمال الهنود لو أضربوا جميعاً - وعددهم لا يقل عن ستين ألف نسمة -

لأصبح من المستحيل تدبير أمورهم من كل الوجوه . ناهيك بأنه لم يكن لدينا من الوسائل ما يمكننا من أن نصحب عدداً كبيراً كهذا خلال الهجرة . لم يكن لدينا الرجال الذين يرشدونهم ، ولا المال الذي نطمعهم به . وفضلاً عن هذا فإن عدداً كبيراً كهذا لا يمكن أن نضمن معه الاحتفاظ بالنهج السلمي الذي كنا ننشده . ولكن إذا فتحت الهواويس التي تحبس الماء ، فلا مناص اذن من حدوث الطوفان المحتاح . فأضرب العمال في جميع الأنحاء من تلقاء أنفسهم وتطوع كثيرون لينظروا في أمورهم ويدبروا موقفهم

وهنا بدأت الحكومة تنفذ سياسة الدم والنار . فأخذت تمنع العمال عن الاعتصاب بمحض القوة . فتصدى البوليس الحربي الراكب للعمال ليحملهم على الرجوع الى العمل . وكان أقل اضطراب بين العمال كاف لأن يجاب عليه برصاص البنادق . وحدث أن قاومت فئة من العمال القوة التي أرادت أن تحملهم على الرجوع الى العمل ، وقنف بعضهم الحجارة على رجال البوليس ، فأطلقت عليهم نيران البنادق ققتل منهم البعض ، وجرح كثيرون . ولكن العمال مع هذا رفضوا أن يخضعوا . وكذلك لم يتمكن المتطوعون من أن يمنعوا اعتصاباً كبيراً بالقرب من « فريولام » الابدجهد جهيد . ومع هذا أبى كل المتعصبين أن يمددوا الى العمل . حتى بلغ يعضهم الأمر أن يختفوا عن الأعين رهبة ، وفضلوا أن يبقوا مختفين على أن يمددوا الى العمل .

ولابد لي من أروى وقائع حادثة لا أجدر دون ذكرها مندوحة .
فقد ترك كثير من الممال أعمالهم بالقرب من «فريولام» وأبوا أن يعودوا
إليها رغم الجهد الذى بذله رجال السلطة معهم . وكان الجنرال «لوكن»
Lukin فى ميدان الاعتصاب ومعه جنوده ، وكان على وشك أن يأمر
رجاله بإطلاق النار ، عندما تقدم إليه هندی باسل هبط تلك المدينة من
دوربان هو سواريجى ابن «بارسى رستوجى» ، ولم يكن يتجاوز الثامنة
عشرة من عمره وأمسك بأعنة الجواد الذى كان يمتطيه الجنرال وقال له .
« لا يجب عليك أن تأمر بإطلاق النار . وعلى أن اقنع أبناء وطنى بأن
يعودوا الى العمل » فأكبر الجنرال شجاعة هذا الشاب ، وسمح له أن
يجرب طريقة التفاهم الحى فى فترة حدها له . ففاوض سواريجى
الممال وأقنعهم فعادوا الى العمل . ولقد حل هذا الشاب بعمله هذا دون
قتل الكثيرين بحضور ذهنه وببسالته وشفقته

وأصبحت الحياة فى مزرعة العنقاء حرجة شديدة . ورغم ذلك قام
كل بواجبه ، حتى ان الأولاد عهد اليهم بمهمات خطيرة فأدوها بشجاعة
وقبض فى ذلك الحين على مستر «وست» على الرغم من أنه لم يكن هنالك
أى سبب يبرر القبض عليه . وكانت خطتنا التى رسمناها أن يعمل مستر
وست وماجنللال غاندى جهدهما أن يتفاديا القبض عليهما . وعلى هذا
عمل وست على أن لا يعطى الحكومة أية فرصة تبرر بها القبض عليه .
ولكن الحكومة كانت بعيدة عن أن تنظر فى الأسباب التى ترك

للقائمين بحركة الستياجراها بعض الرضى عن حالتهم ، ولم تدرث في القبض على أى شخص يمكن أن يكون في تركه حرجاً تأثير على أعصاب رجالها ، غير منتظرة قيام الأسباب التى تجعل القبض على ذلك الشخص مبرراً بوجه من الوجوه . وأصبحت شهوة أصحاب السلطة فى القبض على الأشخاص كافية لأن تلقى بمن شاءت فى غيايات السجون بسبب وبغير سبب .

ولما أن أبرقنا الى « جوكهال » ننبئه بخبر القبض على مستر وست ، فكر فى أن يرسل الى جنوبى افريقية بضعة من أقدر رجال الهند ليعالجوا الحالة . وفى اجتماع عقد فى « لاهور » لتأييد الستياجرايين فى جنوبى افريقية ، أعلن مستر « أندروز » أنه يتنازل عن كل ما يملك من النقود تأييداً لحركتهم ومساعدتهم . ومنذ ذلك الحين رفق « جوكهال » بعين الاجلال والاكبار . فلما وصله خبر القبض على « وست » أبرق الى « أندروز » يسأله ان كان على استعداد لأن يذهب الى جنوبى افريقية ، فلم يتردد أندروز لحظة فى قبول مقترحه . وأبدى صديق جيم من أصدقائه يدعى مستر « بيرسون » رغبته فى أن يصاحبه ، وترك الصديقان الهند الى جنوبى افريقية على ظهر أول باخرة قصدت لبلاد حكومة الاتحاد .

ولكن المفرة كانت اذ ذاك فى أواخر أدوارها ، فان حكومة الاتحاد عجزت عن أن تحتفظ بالآلاف من الرجال والنساء فى سجونها . وأصبح

الحاكم العام في حالة نفسية لا تحتتمل ذلك الحدث العظيم، وأخذت أنظار العالم تتجه نحو الجنرال « سمطس » لتري كيف يتصرف في الأمر . ولقد عملت حكومة الاتحاد نفس ما عمله أية حكومة أخرى تقف في مثل موقفها . ولم تكن هنالك من حاجة للقيام بعمل تحقيق ، فان الخطأ الذي أدى الى هذه الحالة كان معروفاً ظاهراً ، واتفقت كل الآراء على أن الواجب يدعو الى اصلاح هذا الخطأ . وكذلك رأى الجنرال « سمطس » أن هنالك ظلماً يجب أن يرفع . ولكنه كان في موقف أشبه بموقف ثعبان ازدد فأراً، فلا هو يستطيع أن يبتلعه، ولا هو يستطيع أن يلفظه . فانه كان قد قطع للأوروبيين في جنوب افريقية عهداً بأن لا يلنى ضريبة الثلاثة الجنيهات ولا أن يقوم بعمل أى اصلاح ينتفع به الهنود . ولكنه بدأ يشعر بضرورة إلغاء هذه الضريبة ، وأن يلجأ الى تشريع يعالج الحالة ييمض الاصلاحات . ونحن نرى دائماً أن الحكومات اذا أخرج مركزها ونقصت حجتها أمام الرأي العام، تلجأ دائماً الى تعيين لجان تقوم بتحقيق شكلى ، لأن كل ماسوف توصى به من الاصلاحات يكون مقررراً بالفعل في الأذهان قبل أن تعرضه على الحكومة وعلى الناس . والسائد في مثل هذه الأحوال أن الحكومة تقبل دائماً ما توصى به مثل هذه اللجان ، وبهذه الوسيلة تقتنع الحكومات ، فتقبل التوصيات التي تقررها لجان التحقيق ، فتقر بذلك العدل الذي كانت ترفض من قبل الا أن يستقوى عليه الظلم والجبروت . ولذا عين جنرال

« سمطس » لجنة من ثلاثة ، أعلن الهنود بأنهم لن يتقوا بها مادام أن الحكومة امتنعت عن تلبية بعض طلبات كانوا قد تقدموا بها للحكومة كأساس للتفاهم . ومنها أن المسجونين من الستياجراهيين يجب أن يخلى سبيلهم في الحال ، وأن يمثل الهنود في اللجنة عضو على الأقل . ولقد قبلت اللجنة الى حد ما قبول طرف من الطلب الأول ، فأوصت الحكومة أن تخلى سبيل كلنباخ وبولاك وأنا ، بحجة «أن بذلك يمكن أن يسهل طريق التحقيق في مطالب الهنود بقدر المستطاع » . وأن يكون اطلاق سراحنا بغير قيد ولا شرط . وقبلت الحكومة هذا المقترح وأخلت سبيلنا بعد سجن دام ستة أسابيع . ولذلك أفرج عن مستر وست وكان قد قبض عليه من قبل ، لأن الحكومة لم تكن لديها من تهمة توجهها اليه .

ولقد وقع هذا كله قبل أن يصل مستر اندروز ومستر بيرسون ، فتلقيتهما في دوربان . وكما كانت دهشتما كبيرة عندما رأياي ، لأنهما كانا يجهلان ما وقع من الحوادث التي قتالت خلال سياحتهما . وكانت هذه أول مرة ألتقى فيها بهذين الانجليزين اللذين أقدر فيهما البسالة والقدرة الفائقة .

لما أفرج عن ثلاثتنا أخذنا العجب والامتعاض . فانا لم نكن نعرف شيئا من الحوادث التي وقعت . وهبطت علينا أخبار تعيين اللجنة

كشئ جديد له دهشة وجدة ، ولكننا رأينا أننا لا نستطيع أن نتعاون معها على أية صورة من الصور ، وأول ما بدا لنا في الأمر هو أن الهنود يجب أن يعطوا حق تعيين ممثل واحد على الأقل لشرح مظلمتهم للجنة . فلما وصلنا نحن الثلاثة الى دوربان حررنا خطابا الى جنرال « سمطس » مؤرخا في ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٣ جاء فيه :

« نحن نرحب بتعيين لجنة التحقيق . ولكننا نعترض بشدة على تعيين مستر اسلن ومستر ايلي عضوين بها . وليس بيننا وبينهما أى عداوة شخصية ، فانهما رجلان لهما شهرتهما ولا ننكر مقدرتهما . ولكن لما كان كلاهما قد أعلن في مواقف كثيرة عداوتهما للهنود ، فقد يحتمل أن يقعا في شئ ينال الهنود منه ظلم من غير أن يكونا شاعرين بأنهما يظلمانهم . والانسان قلما يستطيع أن يغير مزاجه تغييرا كلياً . وانه لما يضاد قانون الطبيعة أن نفرض أن هذين السيدين يمكن أن ينقلبا الى ضد ما كانا دفعة واحدة . ولكننا مع ذلك لا نطلب أن يخرجنا من اللجنة . بل نطلب أن يضم اليها فى اللجنة رجال عرفوا باستقلالهم فى الرأى وعدم تحيزهم ، نذكر منهم سير جيمس روز ليزوالنبيل و . ب . شرينر كلاهما معروف بعدله وجهه للانصاف . وطلبنا الثانى ، ينحصر فى أن يطلق سراح الستياجراهيين جميعا ، فاذا لم يحدث هذا ، فانه بصمب علينا أن نبقى خارج السجن اذ ليس هناك أى مبرر يحيز بقاء الستياجراهيين فى السجن الى الآن ؛ وثالثا اذا طلب منا أن نبحت عن الاستعلامات

الضرورة للتحقيق ، وجب علينا أن نذهب الى الناجم والمعامل التي يعمل بها العمال المتعاقدون لنتم عملنا . فاذا لم تجب هذه الطلبات ، فانتنا نأسف أن نصارحكم بأننا سوف نبحث عن وسائل أخرى تؤدي بنا إلى السجن » .

ولما سمع « جوكهال » أننا تأهب لرحف آخر أ برق الينا برقية مطولة قال فيها أننا إذا خطونا هذه الخطوة أوقفنا لورد هاردنج وأوقفناه في موقف حرج ، ونصحنا بشدة أن نعدل عن هذا الزحف ، ونعاون اللجنة بأن نعرض عليها البيانات التي تسهل مهمتها .

ولقد وقفنا بذلك في معضلة كبرى . قال الهنود كانوا قد تعاهدوا على مقاطعة اللجنة اذا لم ينضم إليها أفراد يرضيهم أن يكونوا بين رجالها . وقد يمتنع لورد هاردنج أو يتألم جوكهال من تصرفنا ، ولكن كيف نرجع عن عهد قطعناه ، وكيف نبتكض عن خطوة خطوناها ؟ وتقدم الينا مستر أندروز يتبناها الى صحة مستر « جوكهال » المتهدمة ، ويبين لنا عن مقدار ما يؤثر فيه عملنا إذا صدمناه تلك الصدمة القوية بأن نستمر في خطتنا . والحقيقة ان هذه الاعتبارات لم تقب عن ذهني أبداً . فبعدنا اجتماع من الزعماء وخرجنا من البحث بقرار أن مقاطعة اللجنة يجب أن تستمر مهما كانت النتائج اذا لم تسمح الحكومة باضافة أعضاء آخرين الى هيأتها . وبهذا القرار أرسلنا برقية مطولة الى « جوكهال » وافق عليها مبهر أندروز وقد جاء فيها :

« اننا نعرف مقدار ألمك الذى تتحملة فى سبيلنا ، وعلى هذا كنا نرغب فى أن تتبع مشورتك ولو ضحينا فى سبيلها أكبر تضحية . كما أننا نعترف بأن لورد هاردنج قد أمدنا بمساعدة لا تقدر قيمتها ، ونود أن نكون جديرين بأن نحظى بمثلها حتى النهاية . ولكننا مع هذا نرغب فى أن نقف على حقيقة مركزنا . وينحصر الأمر فى أن ألوفا من الرجال قد قطعوا على أنفسهم عهداً لا يمكن أن يرجعوا عنه فى حين أن المعركة التى خضنا غمارها من المبدأ إلى النهاية قد قامت على قاعدة احترام اليهود التى كنا نقطعها . ولا شك فى أن الكثيرين منا كانوا ولا شك يتركون الميدان لولا قوة اليهود التى كنا نتعاهد عليها . كما أن الروابط الأدبية لا شبهة تنحل تواتراً اذا نكص آلاف من الرجال دفعة واحدة عن موقف يوقفوه وكلمة أجمعوا عليها . على أن اليهود التى تعاهدنا عليها ، لم نجمع عليها إلا بعد أن قتلنا الموقف بحثاً وتأملاً ، ووجدنا أن تمسكنا بيهودنا لا ينافى أى شرعة من شرائع الآداب المرعية . ولا يخفى أن الجالية الهندية لها الحق المطلق فى أن تقاطع اللجنة من غير أن يوجه لها أى لوم . والذى نرغب فيه رغبة أكيدة هو أن تكون نصيحتك لنا أن لا نرجع عن عهد كهذا يجمع بين ارادة الآلاف من الرجال وأن نقف جميعاً موقف الوحدة التامة مهما ترتب على موقفنا من النتائج . وأنا نلرجو أن تطلع لورد هاردنج على هذه البرقية . وأملنا أن لا تقف من

جرائها في موقف ضعيف . اننا بدأنا هذه المعركة متخذين من الله شاهداً
ومرشداً » .

ولقد أثرت هذه البرقية في صحة « جوكهال » أسوأ تأثير . ولكنه
ظل يساعدنا ويمدنا يأكثر بما أمدنا به من التأييد والحماة . وأبرق الى
لورد هاردنج يشرح له حقيقة الموقف . فلم يرفض بذلك أن ينفذ عنا
ويبقى بنا في خضم المعترك ، بل ثبت على تأييدنا ووافق على وجهة نظرنا
وكذلك كان شأن لورد هاردنج معنا . فانه ثبت على تأييدنا .

وذهبت إلى بريتوريا مصطحبا مستر أندروز . ولقد وقع في هذه الآونة
بالذات اعتصاب قام به عمال سكة الحديد الأوروبيون مما جعل الحكومة
تشعر شعوراً تاماً بمخرج موقفها . ودعيت الى أن ابدأ الزحف بمجنودي
الهنود في تلك الفرصة السانحة ، وبذلك أساعد المعتصبين في عمال سكة
الحديد ، وأربح المعركة بأن أملى على الحكومة شروطاً . ولكنني بادرت
بأن أعلن أن الهنود لا يساعدون بهذا العمل عمال سكة الحديد ، لأنهم
لم يعتصبوا ليربكوا الحكومة ، وان خوضهم المعركة ليقترحوا ميدانها
انما يرمى الى غرض غير هذا . وانه اذا كان ولا بد من أن نبدأ الزحف ،
فاننا لن نبدأ به الا بعد أن ينتهى اعتصاب عمال سكة الحديد . ولقد
أحدث هذا القرار أثراً عميقاً في النفوس ، ونقله روتر الى انجلترا .
فأبرق اليها لورد « أمبثيل » يهنئنا على هذا القرار . وصارحنى أحد
مساعدى جنرال سمطس قائلاً - « إننى لأحب أهل وطنك ، ولا يهمنى

أن أمد اليهم يد المساعدة بحال من الأحوال . ولكن كيف أستطيع أن اتصرف ازاء ماتعمل ؟ انك تساعدنا في وقت الحاجة . فكيف تفكر في أن نقبض عليك أو نأمرك . اننى أود لو أنك تنزع الى أعمال العنف كما يفعل عمال سكة الحديد ، وبذلك تؤدي لنا أكبر خدمة بأن تفتح لنا طريق التصرف معك . ولكنك تحض على ترك العنف وتوصى بعدم فعل الشر حتى بالاعداء . انك تنشذ الاتصاف من طريق المشقة والاحتمال وتعذيب النفس ، وتراعى في خطتك حدود الآداب المرعية والبسالة . وهذا مايوقفنا موقف العاجز مكتوف اليدين » - وكذلك عبر جنرال سمطس عما يشابه هذا من المواطف .

ولم تكن هذه هى الحادثة الأولى التى عبر فيها أناس من مضاديننا عن عواطفهم العميقة تلقاء ماييدي الستياجراهيون من ضروب البسالة النادرة . فانه عند مأضرب العمال الهنود فى منطقة الشواطىء الشمالية ، تعرض المزارعون فى جبل « إدجكومب » الى خسارة فادحة اذا لم ينقل القصب الذى قطع الى العامل ليعصر حالا . فرجع ألف ومائتا هندي الى العمل ، ولم يرجعوا الى اخوانهم المضربين الا بعد أن قاموا بهذا الواجب . واذكر أيضا أنه عند مأضرب العمال الهنود فى بلدية دروبان ، أرجعنا العمال الذين كان يعهد اليهم بالعمل فى المجارى الصحية والمرضين فى المستشفيات . فلم يرفضوا الرجوع الى أعمالهم . ولا شك فى أن الأعمال الصحية اذا تعطلت ، واذا لم يمرض أحد اولئك المرضى الساكنين الذين كانت تعص

بهم المستشفيات ، فإن المدينة كانت تحتاحها الأمراض ، ويحرم المرضى من المساعدات الضرورية . ولم يقبل مؤمن بمبدأ الستياجراها أن يكون سبباً في مثل هذا أو يتحمل مسؤولية مثل هذه الكارثة . ولذا استثنينا العمال الذين يعملون في مثل هذه المهام . فانه على الستياجراها أن ينظر في كل خطوة يخطوها موقف عدوه ومركزه . وكنت أستطيع أن ألاحظ ان كل عمل من أمثال هذه الأعمال الباسلة كان يترك أثره غير الظاهر في القلوب ويرفع من قدر الهنود ويهيئ الجو للتفاهم على قاعدة معقولة . ولقد تهيأ الجو للتفاهم بالفعل . وكان سير بنيامين « روبرتسون » الذي أرسله « لورد هاردينج » في سفينة خاصة على وشك الوصول الى جنوب افريقية في ذات الوقت الذي ذهبت فيه مع اندروز الى بريتوريا . ولكننا لم نتظر مقدمه وسافرنا ، لأنه كان علينا أن نصل الى بريتوريا في اليوم الذي حدده جنرال سمطس . ولم يكن هناك سبب حقيقي يدعونا الى انتظاره ، لأن النتيجة التي نرغب فيها ، لا سبيل اليها الا بقوة إيماننا .

ووصلت ومعى اندرو الى بريتوريا . ولكن كان على بمفردي أن أفاوض جنرال سمطس . وكان الجنرال في ذلك الحين مشغولاً باعتصاب عمال سكة الحديد ، وقد كان اعتصاباً ذا مظاهر خطيرة، حتى لقد اضطرت حكومة الاتحاد أن تعلن الأحكام العرفية . فان العمال الأوروبيين لم يقتصرُوا في مطالبهم على زيادة الاجور ، بل بدؤُوا يعتمدون

على السلطات محاولين أن يقبضوا على عنان الأمور دون الحكومة . وكانت أولى مفاوضات مع جنرال سمطس قصيرة ، ولكن رأيت منها أن الجنرال لم يمتط فيها نفس الأثهب الذي كان يمتطيه من قبل ، عند ما بدأنا بالزحف الأول . فانه لم يبد من الاستعداد لمناقشتي ما أبدى الآن . ذلك في حين أن سلاح الاستياجراها الذي لجأنا اليه في الأولى كان هو نفس سلاحنا الذي نهبط به في الثانية ومع هذا فقد رفض في الأولى أن يدخل معنا في مفاوضات ، أما في الثانية فقد أبدى استعدادا لأن يبحث معنا الموقف من جميع وجوهه .

ولقد وصلت مع الجنرال الى اتفاق مبدئي ، وأوقفت حركة الاستياجراها لآخر مرة . لقد فرح بذلك كثير من أصدقائي الانجليز . ووعدوا بأن يمدوا يد المساعدة في تمام الاتفاق النهائي . ولقد لاقت بعض المصاعب في أن أحمل اخواني الهنود على قبول هذا الاتفاق . فذكرني بمضهم بما كان من خلف سمطس لوعده سنة ١٩٠٨ بل قالوا « ان جنرال سمطس قد تلاعب بنا مرة من قبل ، ويؤسفنا أنك لم يفد فيك ذلك الدرس ووثقت به مرة أخرى . ولا شك في أن الرجل سوف يخونك مرة أخرى ، كما أننا لا نشك في أنك ستضطر الى اعادة الدعوة للقيام بحركة الاستياجراها مرة أخرى . ولكن من من بني جلدتك سوف يجيب دعاءك ؟ وهل تتصور ان الناس يكونون مستعدين دائما لأن يذهبوا الى السجن كما دعوا لذلك ؟ وان لا يكون لهم من وراء ذلك إلا

الفشل مع رجل كالجنرال سمطس لا يلبث ان ينكث عهده بمجرد أن يعاهد عليه ؟ » .

وكنت على يقين من أن مثل هذا الاعتراض سوف يوجه الى ، ولذلك لم أؤخذ بالعجب ولا بالاندهاش عندما واجهني به اخواني . فليس من المهم أن يغش السيتاجراهي ويخدع ، بل عليه أن يثق بمناقشه مادام بعيداً عن ان يجد أسباباً لعدم الثقة به . والألم للمؤمن بمبدأ السيتاجراها كاللذة تماماً . ولذا لا يجب عليه أن يرتبك بمجرد أن يتصور الألم أو يخاف الشدة ، فيلقى بنفسه في أحضان الشك وعدم الثقة . ومن جهة أخرى فإن السيتاجراهي مادام معتمداً على قوته الذاتية ، فلا يهمه اذن أن يخدعه منافسه . فان عليه أن يثق مما تكررت الخيانات وتنوعت المكائد وتلونت الخدع ، ويؤمن أنه بثقته هذه انما يزيد الحق قوة وبطشاً ويقرب أوان الانتصار .

وعقدت الاجتماعات في محال متفرقة ، ونجحت في النهاية في أن أحمل الهنود على قبول مبادئ الاتفاق . وهنا بدأ الهنود يفهمون معنى السيتاجراها فهما أدق وأعمق . وكان اندروز هو الوسيط والشاهد الأوحد على مواد الاتفاق . ولو أنني كنت تشددت وعاندت في قبول هذا الاتفاق ، فلا شك في أن عنادي كان يتخذ وسيلة لاتهم مراعى الهنود، وسلاحاً يستعمل ضدهم بشدة وعنف ، ولما استطعنا أن نصل الى النصر النهائي الذي فزنا بهاره في خلال ستة أشهر التالية ، الا بعد زمن

طويل . ان الحكمة السنسكريتية القائلة بأن «الفران تاج الباسل» -
قد تقضى على الستياجراهى بأن لا يترك لأى انسان أية وسيلة لأن يجد
فى تصرفه منفذاً للخطأ . وعدم الثقة دلالة على الضعف ، ومبدأ
الستياجراها إنما يتقضى كل أسباب الضعف ومعه عدم الثقة والشك ،
مادام أن الستياجراهى لا يرمى الى تحطيم خصمه بل يرمى الى اجتذابه
نحوه ورده الى العقول .

ولما انتهت هذه المعركة كان «جوكهال» فى إنجلترا وأرسل الى
طالباً أن الاقيه هناك . وفى شهر يولية سنة ١٩١٤ سافرت مصحوباً
بمستر كلنباخ وكوسترباى الى ثغر «سوزمبتون» بإنجلترا .

وعند ما بلغنا جزر «ماديرة» بلغنا أن الحرب العظمى على وشك أن
تنشب . ولما وصلنا بحر المانش سمعنا أنها نشبت بالفعل ، وتعطل سفرنا
حيناً من الزمن . وكان من الصعب أن تقاد السفينة فى البحر بعد أن
بثت الفواصات فى أنحائها ألغامها الفتاكة ، فلم نصل الى سوزمبتون الا
بعد يومين قضيناها فى سياحة شاقة .

ولقد أعلنت الحرب يوم ٤ أغسطس ، غير أننا لم نصل لندن إلا فى
اليوم السادس من ذلك الشهر .

ولما وصلت لندن علمت أن «جوكهال» فى باريس لا يستطيع
العودة ، ولما كانت كل المواصلات قد قطعت بين لندن وباريس ، لم
يتيسر لى أن أعرف متى يعود . ولم أكن أرغب فى العودة الى وطنى

قبل أن أراه ، ولكن لم يستطع أحد أن يعرف بالضبط متى يعود .
 بقى على أن أفكر فيما أعمل فى تلك الفترة ؟ وما هو واجبى نحو
 الحرب ؟ وكان « سورايجى أدا جانيا » رصيفى فى السجن وأحد زملائى
 فى حركة الستياجراها يدرس القانون فى لندن . ولما كان هذا الشاب
 من أخص المؤمنين بمبدأ الستياجراها ومن أوقف الناس على روحها ،
 أرسلناه الى لندن ، حتى اذا فاز بشهادة المحاماة حل محلى فى جنوبى
 افريقية . وفى طريق اتصالى به قابلت « جفراج مهتا » وغيره من
 الهنود الذين كانوا يدرسون فى إنجلترا ، وبعد المناقشة عقدنا اجتماعا
 حضره كل الهنود المقيمين فى إنجلترا وإيرلندا ، ليستمعوا مقترحاتى .

فقد كنت أشعر بأن الهنود المقيمين فى لندن يجب أن يأخذوا بضلع
 فى الحرب ، فان الطلاب الانجليز قد تطوعوا فى الجيش، فعلى الهنود أن
 لا يكون حظهم أقل من حظ اخوانهم . فاعترض على مقترحاتى ، وقيل
 بأن الفاصل بين الهنود والانجليز ازاء الحرب واسع فسيح . واننا العبيد
 وهم الأسىاد . فكيف يمكن للعبد أن يعاون سيده ومالك رقبته فى وقت
 حاجته اليه ؟ وان واجب العبد يدعوه وهو يريد أن يتحرر أن ينتهز
 فرصة احتياج سيده وشده ؟ ولكن هذا رأى لم يقنعنى . وكنت
 أعرف الفارق البعيد بين الهندى والانجليزى من حيث المركز والعلاقة ،
 ولكنى لم أكن أعتمد أننا أصبحنا عبيدا بالفعل . بل كنت أعتقد أن

متابعينا انما ترجع الى سفاهة الموظفين الانجليز ، أكثر من رجوعها الى الأسلوب الانجليزى فى مجموعه ، وان هؤلاء يمكن أن نربحهم لصفنا بالمطف والحب . فاذا أردنا أن نحسن مركزنا معهم من طريق معاونتهم ومساعدتهم فى الحرب ، فان من واجبنا اذن أن نقف بجانبهم فى وقت حاجتهم القصوى . على أننى وان كنت أعتقد اذ ذاك أن أسلوب الاستعمار الانجليزى فيه نقص وظلم ، الا أنه لم يكن قد بدالى كل ما فيه من العيوب والنقائص التى أدركها الآن الادراك كله . أما وقد فقدت ثقتى بأسلوب الاستعمار البريطانى ، فانى أرفض الآن أن أعاون الحكومة الانجليزية بأى وجه من وجوه التعاون . ولذلك أعجب كيف أن أصدقاء كثيرين ، على الرغم من اقتناعهم بفساد ذلك الأسلوب بل وبالموظفين ، وعلى الرغم من فقدانهم كل ثقة به وبهم ، ما يزالون يعاونون الحكومة ويمدون لها يد المساعدة .

وكان من رأى الذين قاوموا فكرتى فى معاونة الانجليز فى الحرب ، أن باعلان الحرب قد حانت الساعة التى يعلن فيها الهنود مطالبهم الوطنية ليفوزوا بما يحسن مركزهم وطنياً وسياسياً . ولكن فكرى كان يتجه الى أنه لا يجب علينا أن نتخذ من حاجة بريطانيا وشدتها فرصة ننتهزها ، وان من حسن السياسة وبعد النظر ، أن لا نعرض مطالبنا مادامت الحرب قائمة . ولذلك اتبعت رأى ودعوت كل قادر من الهنود على

التطوع أن يشترك في الحرب. وأجيت دعوتي ، بأن اشترك فيها هنود
من مختلف الأقاليم ومن مختلف النحل .

وحررت خطاباً للورد « كرو » أخبره بهذه الحقائق وأعرفه بأننا
على استعداد لأن نتلق دروساً في الاسعاف الحربى ، وإن خطبائى هذا
يعتبر قبولاً منا للقيام بهذا العمل . ولقد قبل لورد « كرو » ما عرضنا
عليه بعد قليل من التردد ، وشكرنا إذ أظهرنا استعدادنا لخدمة
الامبراطوية فى مثل هذا الموقف الحرج .

وكانت لندن فى ذلك الحين تعج بالناظر التى يروق للمرء أن يراها ،
فلم يكن هنالك ذعر ، ولكن كان الجميع فى شغل شاغل وكل منهم
يعمل على قدر ما تصل استطاعته . فبدأ الأصحاء يتمرنون على الحرب
وحركات الميدان . وبقى على الضعفاء والشيوخ والنساء مهام كثيرة ،
أهمها تجهيز الملابس والضادات للجرحى فى الميدان ، والعائدين منه
الى الوطن .

(ملحوظة — « اضطر مهاتما غاندى أن يعود الى طقس حار بعد
إصابته بالتهاب « البلوره » - Pleurisy - فغادر إنجلترا الى الهند فى
شهر ديسمبر سنة ١٩١٤ » . س . ف . أندروز)

فهرس الكتاب

الصفحة	
٤	قصيدة المرحوم شوق بك فى مهاثما غاندى
٧	ديباجة - صورة بقلم المترجم
١١	الفصل الأول - المولد والسكن
٢١	الفصل الثانى - أيام المدرسة
٣٥	الفصل الثالث - باكورة الشباب
٤٧	الفصل الرابع - فى لندن
٧١	الفصل الخامس - العودة الى الهند
٩٠	الفصل السادس - فى ناثال
١٠٨	الفصل السابع - فى برتوريا
١٣٧	الفصل الثامن - عنف القوغاء فى دوربان
١٥٩	الفصل التاسع - حرب البوير
١٦٩	الفصل العاشر - الطاعون الاسود
١٨١	الفصل الحادى عشر - حق هذه النهاية
١٩٦	الفصل الثانى عشر - ثورة الزولو
٢١٥	الفصل الثالث عشر - تثقيف الروح
٢٢٨	الفصل الرابع عشر - الستاجراها فى ناثال
٢٤٢	الفصل الخامس عشر - المقاومون السليون
٢٦٢	الفصل السادس عشر - السجن والانتصار

تتبيهان

- ١ - جاء فى ص ١٤ أن غاندى ولد سنة ١٨٩٦ وحققة ميلاده سنة ١٨٦٩
- ٢ - نشرت خمسة الفصول الاولى من هذا الكتاب بمجلة المتططف القراء ، وقد أعدنا نشرها فى هذا الكتاب .

ملوك المسلمين والعجاص ودرولهم

بقلم الكاتب الشرقى الكبير

الاستاذ أمين سعيد

أول كتاب فى باب بالغة العربية

جامع لسيرة ٢٠ ملكا وأميراً من ملوك الشرق وأمرائه ،
ومزين بصورهم ، وفيه بيان عن أحوال كل منهم ومعيشته اليومية ،
ونشأته وعلومه وتاريخ بلاده السياسى . وفى الكتاب ١٥٠
وثيقة ومعاهدة سياسية ، وبيان مفصل عن القضية المصرية
والسورية ، والثورات التركية والعربية والایرانية والمغربية
والأفغانية وغيرها

ملوك الطوائف
ونظرات في تاريخ الإسلام
للعامة دوزي مترجمة بتمام
كمال كيتلاني

عرف العلامة المستشرق دوزي باختلاصه ودقته في بحوثه
عن الأندلس والمسلمين وقد ترجم هذا الكتاب الخالد بدقة
وأمانة وعلق عليه المترجم تعليقات نفيسة فأصبح لا يستغنى عنه
ياحث عربي يعني بتاريخ الأندلس والإسلام .



Biblioteca Alexandrina



0405233